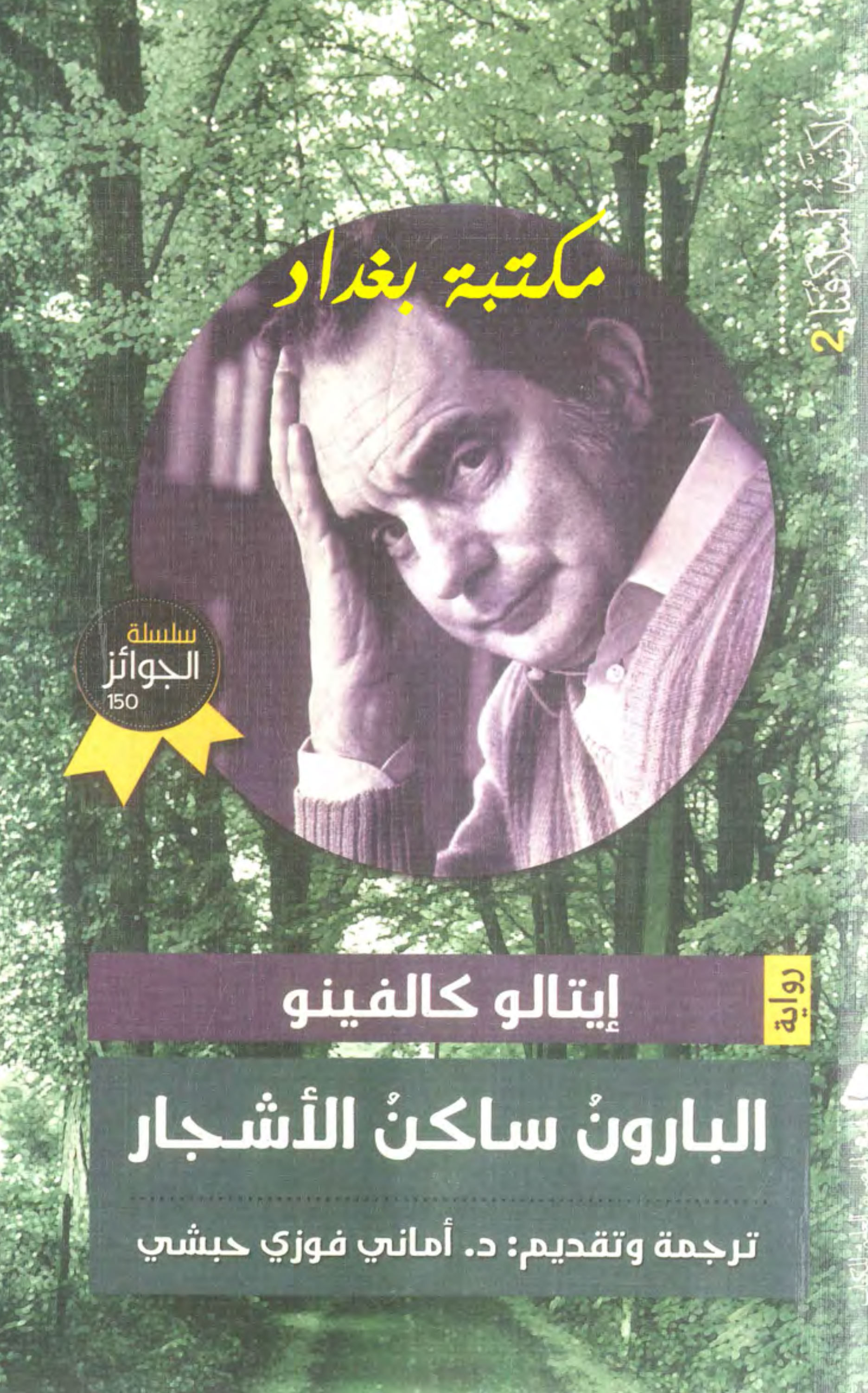

مكتبة بغداد
سلسلة
الجوائز
150
رواية
إيتالو كالفينو
البارونُ ساكنُ الأشجار
ترجمة وتقديم: د. أماني فوزي حبشي

كالفينو، اتيالو، ١٩٢٣ ـ ١٩٨٥.
البارون ساكن الأشجار/ تأليف: اتيالو كالفينو؛
ترجمة: أمانى فوزى حبشى. ـ القاهرة : الهيئة
المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٥.
٣٢٠ص؛ ٢٤ سم.
تدمك ٧ ٠٦١٣ ٩١ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ القصص الإنجليزية.
أ ـ حبشى، أمانى فوزى (مترجم)
ب ـ العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ٢٧٤١٦/ ٢٠١٥
I. S. B. N 978 - 977 - 91 - 0613 - 7
ديوى ٨٢٣

البارون ساكن الأشجار

تأليف : إيتالو كالفينو

ترجمة : د. أماني فوزي حبشي



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠١٦

• الكتاب: البارون ساكن الأشجار.

II Barone Rampante

• تأليف: إيتالو كالفينو.

Italo Caivino

• ترجمة وتقديم: د. أماني فوزي حبشي.

• يصدر هذا الكتاب باللغة العربية بإذن خاص من المؤلف للهيئة المصرية العامة للكتاب..

• الطبعة الأولى 2016.

• طبع في مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب.

مقدمة

رواية البارون ساكن الأشجار هي الجزء الثاني من ثلاثية إيتالو كالفينو "أسلافنا"، وقد سبق وأصدرت سلسلة الجوائز الجزء الأول منها: "الفسكونت المشطور"، والتي شملت في مقدمتها مقدمة المؤلف والمراجع والمترجم للثلاثية.

قام بمراجعة وتقديم الجزء الأول من الثلاثية الأستاذ الدكتور محب سعد، رحمه الله، والذي راجع أيضًا الفصول العشرة الأولى من هذا الجزء، ومنعه المرض في الفترة الأخيرة من استكمال المراجعة.

في رواية "البارون ساكن الأشجار" يقدم كالفينو لنا خبرة التمرد إلى أقصى حدوده، عندما يصبح التمرد اختيارًا للحياة، عندما يصبح اختيارًا لا يمكن التراجع عنه حتى الموت، على الرغم من تعرضه للعديد من المآزق والإحباطات:

صعدت فوق السلم، وبدأت أقول له: كوزيمو، مضى من عمرك الآن خمسة وسبعون عامًا، كيف يمكنك الاستمرار هناك فوق الأشجار؟ الآن وقد قلت بالفعل ما أردتُ قوله، وقد فهمناه، لقد كانت قوتك النفسية

عظيمة جدًا واستطعت تنفيذ ما قلته، الآن يمكنك النزول. حتى من يقضي عمره كله في البحار يرسو على الأرض عند بلوغه سن معينة. ولكن هيهات. أشار بالرفض بيده.

ولكنه اختيار يعبر أيضًا عن رفض المجتمع بريائه الاجتماعي وما يترتب عليه من تصرفات وضرورات لا طائل لها. إنها رؤية الحياة من منظور مختلف جعلت كوزيمو، البعيد فوق الأشجار أقرب لأسرته - بطريقته - من فوق الأشجار، بل وأقرب أيضًا لمن حوله من أشخاص، والاقتراب من أنماط مختلفة من الشخصيات كان من المستحيل التعرف إليها في وجود التقاليد الأرستقراطية البالية والسور العالي الذي يفصل بينه وبينهم. وكان اقترابه منهم ومن احتياجاتهم هو الذي دفعه بالتالي لمحاولة توعيتهم، نقل ما تعلمه من الكتب التي قرأها، فأعد مجلات الحائط والمنشورات التي كانت تدعو للحرية وتعرفهم بحقوقهم، والتي كان يعلقها في كل مكان فوق الأشجار. وكأن كالفينو يحاول في شخصية كوزيمو أن ينقل صورته المتخيَّلة عن المبدع والمثقف، ذلك الذي يعيش مبتعدًا عن الأرض (ربما في عالمه الخيالي) ولكنه من هناك يستطيع أن يرى بصورة أفضل وأكثر شمولية العالم أسفله، ومن ثم يمكنه أن يساعد أيضًا في تطوير وتغيير هذا العالم.

واحتفاء المؤلف بالقراءة في هذه الرواية جلي، فالقراءة هي التي غيّرت أعتى المجرمين "جان داي بروجي"، فلقد حررته الروايات وأبطالها من شروره، وكأن روحه قد أصبحت أكثر نقاءً وسموًا بالقراءة، وأكثر ابتعادًا عن الماديات، ومنحت لكوزيمو القدرة على الاستمرار والبقاء بين فروع الأشجار، كانت رفيقه المخلص الذي لم يتخل عنه، بل وساعده على اكتشاف العالم اسفله:

أما جان داي بروجي فكان يجلس مستلقيًا على مرقده، وشعره المجعد الأحمر المليء بالأوراق الجافة يتدلى على جبهته المتجعدة. وكان يقرأ

بعينيه الخضراوين واللتين احمرتا بسبب إجهادهما في القراءة. ومن خلال قراءته لريتشاردسون أخذ شعور كامن في نفسه يجتاحه، تلك الرغبة في الحياة المعتادة والعائلية، في الشعور بالمشاعر الأسرية، والفضائل، وعداوة الشرور والرذائل، وفقد كل ما حوله أهميته بالنسبة إليه، بل أصبح يملؤه بالنفوَر.

ويقدم إيتالو كالفينو الرواية قائلاً:

إن الإنسان الكامل، الذي لم أقدمه بوضوح في **الفسكونت المشطور**، تماثل مع **البارون ساكن الأشجار**، مع ذلك الذي يحقق اكتماله بخضوعه بمحض إرادته لنظام شاق وصارم. وكان يحدث شيء غريب بالنسبة لي مع هذه الشخصية: كنت آخذه مأخذ الجد وأصدقه وأتوحد معه. فضلاً عن ذلك فإنني أثناء بحثي عن عصرٍ ماضٍ أجد فيه بلدًا ما مغطى بالأشجار وقع في سحر القرن الثامن عشر وتحديدًا في فترة التحول بين ذلك القرن والقرن التالي له. فها هو البطل البارون كوزيمو دي روندو يخرج من الإطار الساخر للحدث ويتجسد أمامي في لوحة أخلاقية بدلالات ثقافية محددة؛ وصارت أبحاث أصدقائي المؤرخين عن التنويريين واليعاقبة الإيطاليين دافعًا قيمًا للخيال. والشخصية النسائية أيضًا (فيولا) دخلت في لعبة الرؤى الأخلاقية والثقافية، وذلك بالتضاد مع الحسم التنويري ومع الدفعة الباروكية ثم الرومانسية تجاه كل شيء والتي تخاطر دائمًا بأن تكون دفعة مدمرة وجريًا تجاه العدم.

ولذلك كان "البارون ساكن الأشجار" مختلفًا تمام الاختلاف عن الفسكونت المشطور، فبدلاً من قصة خارج الزمن تلتزم بالسيناريو الذي ذكرته للتو وبالشخصيات الرمزية المركبة تركيبًا دقيقًا ومن الحبكة الروائية لقصص تُحكى للأطفال، كنت أجد نفسي منجذبًا باستمرار في كتابتي لأن أصنع "مزيجًا" تاريخياً وذخيرة من الصور المرتبطة بالقرن الثامن عشر، مدعمة بتواريخ و أحداث مرتبطة بشخصيات مهمة؛ بمناظر طبيعية،

وطبيعة نابعة من الخيال بالتأكيد، ولكنها موصوفة بدقة وحنين للماضي، لأصنع حدثًا يهتم بأن يجعل خيال البداية قابلاً للتبرير بل حقيقة؛ أي أن الأمر انتهى بأنني كنت "أستمتع بالرواية" بالمعنى التقليدي جدًا للكلمة.

ليس هناك الكثير يمكن أن نقوله عن الشخصيات الثانوية، والتي تمخض عنها جو الرواية، ولكن الصفة التي تجمعها هي؛ أنها جميعًا شخصيات منعزلة، فكل منهما منعزل بطريقة خاطئة مقارنة بالطريقة الوحيدة الصحيحة الخاصة بالبطل. انظر إلى شخصية الفارس المحامي، والتي نجد فيها تكرارًا لملامح الدكتور تريلاوني، فالقرن الثامن عشر- قرن غريب الأطوار - يبدو وكأنه وضع خصيصًا ليشكل هذا المعرض الذي يضم الأنماط الغريبة. ولكن هل يمكن إذن أن ننظر لكوزيمو على أنه شخص غريب الأطوار يحاول أن يبحث عن معنى كوني لغرابته؟ إذا كان الأمر كذلك فإن البارون لن يستطيع أن يعرض المشكلة التي طرحتها على نفسي.

فالواضح أننا اليوم نعيش في عالم يرفض الشخصيات الاستثنائية، عالم يحرم فيه المرء من أبسط خصوصيات الشخصية الفردية، حتى أصبح الجميع مجرد نسق من السلوكيات المحددة سلفًا. فالمشكلة اليوم لم تعد مجرد فقدان المرء لجزء من ذاته، ولكنها مشكلة الفقدان التام، مشكلة عدم كون الإنسان ذاته على الإطلاق.

المترجمة

ـ ١ ـ

كانت المرة الأخيرة التي جلس فيها أخي كوزيمو بيافا سكو دي راندو معنا هي يوم الخامس عشر من يونيه من عام ١٧٦٧. أتذكر هذا وكأنه حدث اليوم. كنا في حجرة الطعام في ?يلتنا في أومبروزا، وكانت النوافذ تؤطر الفروع الكثيفة لشجرة البلوط الضخمة الواقعة في حديقتنا. كان النهار في منتصفه. وكانت عائلتنا تجتمع على مائدة الطعام في تلك الساعة للمحافظة على تقاليد العائلة القديمة، على الرغم من شيوع الموضة القادمة من البلاط الفرنسي - حديثة العهد بين النبلاء - بتناول طعام الغداء في منتصف بعد الظهيرة. وأتذكر أن الرياح كانت تهب من جهة البحر، وتحرك الأوراق. قال كوزيمو: لقد قلت إنني لا أريده، يعني أنني لا أريده! وأزاح من أمامه طبق الحلزون. ولم يحدث قط أن شهدنا تمردًا أشد من هذا.

كان البارون أرمينيو بيافا سكو دى روندو، والدنا، يجلس على رأس المائدة مرتديًا باروكته الطويلة، والتي تغطي أذنيه على طراز لويس الرابع عشر، مثل أشياء أخرى كثيرة تخصه، وكان يجلس بيننا أنا وأخي الأب فوشيلافلور، القائم على توزيع صدقات عائلتنا، ومعلمنا نحن الصبية. وفي

المواجهة كانت تجلس الجنرالة كورادنيا دي روندو، والدتنا، وبجوارها أختنا باتيستا، راهبة المنزل. وعلى رأس المائدة من الطرف الآخر كان يجلس مرتديًا بذلته التركية في مواجهة أبي، الفارس المحامي إينيا سيلفيو كاريجا، مدير ومسئول الري في أراضينا، وهو أيضًا عمنا، حيث إنه أخ والدنا غير الشرعي.

منذ بضعة أشهر، سمحوا لنا نظرًا إلى أن كوزيمو قد أكمل أعوامه الاثنى عشر، وأكملت أنا ثمانية أعوام، بالجلوس على المائدة نفسها مع والدينا؛ أو يمكن القول إننى أفدت قبل الأوان من ترقية أخي، لأنهم لم يرغبوا في تركي هناك أتناول غدائي وحدي. وأقول أفدت، وهي مجرد كلمة؛ ففي الواقع، انتهت بهذا الوضع متعة الحياة بالنسبة إليّ وإلى كوزيمو، وكنا نتحسّر على أيام الغداء في حجرتنا الصغيرة، نحن الاثنان فقط، ومعنا الأب فوشيلافلور.

كان الأب فوشيلافلور مسنًا ونحيلاً ومليئًا بالتجاعيد، وكان مشهورًا بأنه من أتباع هرطقة جنتسن. وكان بالفعل قد هرب من ديلفيناتو، بلدته الأصلية، ليفر من إحدى محاكمات محاكم التفتيش، ولكن طبعه الصارم الذي كان موضع مدح الجميع، وصرامته الداخلية التي كان يفرضها على نفسه وعلى الآخرين كانا يؤولان باستمرار إلى دعوة أساسية لديه باللا مبالاة وعدم الاهتمام، وكأن تأملاته الطويلة بعينيه المحدقتين في الفراغ تصيبه بملل شديد، وعدم الرغبة في أي شيء، وأمام أية صعوبة، وإن كانت تافهة، كانت تتراءى له علامات القدر التي لا طائل من مواجهتها.

كانت واجباتنا مع الأب عادة ما تبدأ، بعد صلوات طويلة، بتحريك الملاعق، تحريكًا معتدلاً، في صمت وهدوء، وتبًا لمن كان يرفع منا عينيه عن الطبق، أو يتجرأ ويصدر أي صوت عند تناول الحساء، ولكن مع انتهاء الحساء كان الأب يشعر بالتعب والملل، فيحملق في الفراغ، ويقرقع بلسانه

مع كل رشفة نبيذ، وكأن أكثر الأحاسيس سطحية وفناءً هي فقط التي تتمكن من التأثير فيه. عندئذ نستطيع أن نأكل وجبتنا الرئيسية بيدينا، وعند انتهاء الوجبة كنا نتقاذف بقايا الكمثرى، في حين أن الأب لا يفعل شيئًا سوى إصدار إحدى إيماءاته الكسول. أوه ه وماذا بعد!. أوه ه. حسنًا!

أما الآن، فبجلوسنا إلى مائدة الأسرة أخذت تتجسد أمامنا كل الأحقاد العائلية، وبدأ فصل تعيس في طفولتنا. فأمامنا دائمًا والدنا وأمنا، ويجب استخدام أدوات المائدة عند تناول الدجاج؛ وسلسلة من الأوامر: اجلس معتدلاً، وابعد مرفقيك عن المائدة! وبالإضافة إلى ذلك أختنا السخيفة باتيستا، فلقد بدأت سلسلة من العقاب، والنكاية، الزجر والركل بالأرجل، حتى ذلك اليوم الذي رفض فيه كوزيمو طبق الحلزون، وقرر أن يفصل قدره عن قدرنا.

أدركت كل هذه التراكمات من الحقد العائلي فقط فيما بعد، فقد كان عمري آنذاك ثمانية أعوام فقط، وكان كل شيء يبدو لي كلعبة، تلك الحرب بيننا نحن الصبية الصغار ضد الكبار، فقد كانت لعبة كل الصبية، ولم أكن أفهم أن عناد أخي وإصراره كانا يضمران شيئًا أعمق بكثير.

بالتأكيد كان البارون والدنا رجلاً مثيرًا للملل ولكنه لم يكن شريرًا؛ مثيرًا، للملل لأن حياته كانت تسيطر عليها أفكار غير متناغمة كما يحدث في العصور الانتقالية، فتغيير الأزمنة يفرض على الكثيرين الحاجة إلى التغيير أيضًا، ولكن والدنا كان على العكس من ذلك تمامًا، كان بعيدًا عن هذا الاتجاه: فعليبالرغم من كل ما كان يحدث حوله في تلك الأثناء، كان هو يفتخر بزعم حصوله على لقب دوق أومبروزا، ولم يكن يفكر في شيء آخر سوى في أصول العائلة وفروعها وفي الخصومات والتحالفات مع القادرين، قريبين كانوا أم بعيدين.

ولذلك فقد كنا في منزلنا نعيش دائمًا وكأننا في التدريبات العامة على دعوة في بلاط، لا أعلم إذا كان بلاط إمبراطورة النمسا، أم، بلاط الملك

لويس، أو ربما بلاط رجال الجبال. فعندما كان يقدَّم ديك رومي على الغداء، كان والدنا يراقبنا هل سنقطعه ونستل لحمه طبقًا لكل القواعد الملكية أم لا، وكان الراهب يكاد لا يقترب منه حتى لا يفطن إليه أحد متلبسًا، وهو الذي كان عليه أن يساند والدنا في توبيخه لنا. أما عن الفارس المحامي كاريجا فقد اكتشفنا ضميره الزائف؛ فلقد كان يخفي أفخاذ الديك كاملة تحت ثنايا قنباره التركي، ليأكلها قضمًا كما يحلو له وهو مختبئ في الكروم. ولقد أقسمنا (مع أننا لم ننجح قط في ضبطه متلبسًا، نظرًا إلى خفة حركته) أنه يأتي إلى المائدة وجيبه مليء ببقايا عظام خالية من اللحم، ليتركها في طبقه بدلاً من أرباع الديك التي يخفيها كاملة.

لم تكن لأمي الجنرالة أهمية كبيرة؛ لأنها كانت تستخدم الأساليب الحربية الفظة حتى أثناء الطعام: إذن! هذا قليل! حسنًا! ولم يكن أحد يمكنه أن يخالفها القول، ولكنها كانت معنا تحرص، إن لم يكن على قواعد اللياقة فعلى النظام، وتعضد البارون بأوامرها المتأثرة بميدان المعركة، اجلس بهدوء! ونظِّف فمك! الوحيدة التي كانت تتصرف كما يحلو لها هي باتيستا، راهبة المنزل، والتي كانت تفصص الدجاج بنهم دقيق، نسيرة نسيرة، بنوع من السكاكين المدببة لم يكن لدى أحد سواها مثلها، سكاكين تشبه مشارط الجراح. ولم يكن البارون، الذي كان يرغب في جعلها مثلاً لنا، يجرؤ على النظر إليها؛ لأنها كانت تخيفه هو أيضًا بعينيها المحدقتين البارزتين أسفل جناحي غطاء رأسها المنشي، وأسنانها المتلاصقة في وجهها الأصفر الذي يشبه وجه الفأر. ويمكن إذن أن ندرك كيف كانت المائدة هي المكان الذي تتضح فيه كل المتناقضات، وعدم التناغم أو الانسجام بيننا، وأيضًا يتضح فيه جنوننا ونفاقنا، وكيف أنه في هذا المكان، وعلى هذه المائدة، قرر كوزيمو أن يبدأ ثورته. ولهذا السبب فإنني أطيل في شرحي، فعلى كل حال لن يصبح لهذه الموائد العامرة وجود في حياة أخي، هذا مؤكد.

كانت المائدة أيضًا هي المكان الوحيد الذي نلتقي فيه مع الكبار. في بقية النهار كانت أمنا تنسحب وتبقى في غرفتها وتنهمك في شغل الإبرة والتطريز، حيث لم تكن الجنرالة تعرف سوى تلك الأعمال النسوية التقليدية، وفيها فقط كانت تجد متنفسًا لعواطفها الحربية. كانت أشغال الإبرة والتطريز غالبًا ما تمثل خرائط جغرافية، وعندما كانت تبسطها على الوسائد أو ستائر من السجف، وكانت أمنا تحدد النقاط فيها بالدبابيس والأعلام الصغيرة، مشيرة بذلك إلى خطط معارك حروب الخلافة، والتي كانت تحفظها عن ظهر قلب، أو كانت تطرز أشكال مدافع ومسار القذائف النارية من فوهتها، وتطرز معها مساند المدفع وزوايا الإطلاق، لأنها كانت متمكنة جدًا في كل ما يتعلق بالقذائف، بل كانت لديها مكتبة أبيها الجنرال كلها، بما فيها من أبحاث عن الفنون العسكرية، وأشكال القصف، ومجموعات الخرائط. وكانت أمنا سليلة عائلة فون كورتفيتس، وكانت تدعى كوندرادين، ابنة الجنرال كونراد فون كورتفيتس، الذي احتل أرضنا قبل عشرين سنة وهو يقود جيوش ماريا تيريزا إمبراطورة النمسا. كانت يتيمة الأم فكان الجنرال يصحبها معه في ميدان المعركة، ولم يكن هذا شيئًا شاعريًا. كانا يسافران بكامل عتادهما، ويسكنان في أفضل القصور، ومعهما فريق من الخادمات، وكانت هي تقضي أيامها في شغل الإبرة، أما إنها كانت تذهب إلى المعركة هي أيضًا على ظهر الحصان، فإن هذه مجرد أساطير، كانت دائمًا امرأة ذات بشرة وردية، ومتغطرسة كما نتذكرها، ولكن بقى لها فقط ذلك الشغف الأبوي بالحرب، ربما اعتراضًا على زوجها.

وكان أبونا من بين النبلاء القلائل الذي انضموا إلى أنصار الإمبراطورية في الحرب في منطقتنا، قد استقبل بذراعين مفتوحتين الجنرال فون كورتفيتس في مقاطعته، ووضع رجاله تحت إمرته. وليظهر- بصورة أفضل - إخلاصه لقضية الإمبراطورية تزوج كونراندين، وكان كل

هذا أملاً في الحصول على لقب دوق وفي هذه المرة أيضًا خابت آماله كالمعتاد، فسرعان ما رحل رجال الإمبراطورية وأغرقه أهل جنوة بالضرائب، إلا أنه ربح زوجة ماهرة، الجنرالة، والتي أطلق عليها هذا اللقب بعد وفاة والدها في حملة بروفانس، وأرسلت إليها ماريا تيريزا عقدًا ذهبيًا على وسادة حريرية فاخرة. وهي زوجة لم يختلف معها قط، حتى وإن كان بسبب نشأتها وسط معسكرات الحرب. لم تكن تحلم إلا بالجيوش والمعارك، وكانت تلومه دائمًا على أنه ليس إلا شخص متسلق تعيس.

ولكن الحقيقة أنهما بقيا متعلقين بزمن حروب الخلافة، هي بكل المعدات الحربية في رأسها، وهو بكل أشجار العائلات؛ هي تحلم لنا برتبة في الجيش، أي جيش، وهو يحلم برؤيتنا متزوجين من دوقتين عظيمتين من دوقات الإمبراطورية... ومع هذا كله، كان أبوانا من أفضل الآباء، ولكنهما كانا شاردين إلى حد أننا نشأنا وحدنا. هل كان ذلك شيئًا سيئًا أم حسنًا؟ ومن يستطع الحكم على هذا؟ كانت حياة كوزيمو غير عادية بالمرة، في حين كانت حياتي منتظمة ومتواضعة، إلا أننا قضينا صبانا معًا، غير مبالين بتلك الأفكار المزعجة الخاصة بالكبار، باحثين عن طرق مختلفة عن تلك الطرق التي يسلكها الناس.

كنا نتسلق الأشجار (تبدو تلك الألعاب البريئة الأولى الآن في ذاكرتي وكأنها البدايات، والخبرات الأولى؛ ولكن في ذلك الوقت من كان يفكر في هذا؟)، كنا نقطع جدول المياه ونحن نقفز من صخرة إلى أخرى، وكنا نستكشف الكهوف في شواطئ البحر، وكنا نتزحلق على درابزين الفيللا الرخامي. وبسبب ذلك التزحلق نشأ أكبر صدام بينه وبين الدنيا، لأنه عوقب، بلا مبرر- كما يؤكد - ومنذ تلك اللحظة نشأ بين جوانحه حقد دفين تجاه العائلة (أو المجتمع؟ أو العالم على وجه العموم؟)، والذي عبر عنه فيما بعد في القرار الذي اتخذه في الخامس عشر من شهر يونيه.

وعن التزحلق على الدرابزين الرخامى للسلم كنا قد بدأنا نتوجس ريبة بالفعل، ليس خوفًا من أن تتكسر ساقنا أو ذراعنا، وهو الأمر الذي لم يكن مدعاة لقلق والدينا ألبتة، ولذلك - على ما أعتقد - لم نكسر شيئًا منها قط؛ ولكن بسبب أننا كبرنا وازداد وزننا، ومن ثم فإنه يمكن أن نتسبب في كسر تماثيل أجدادنا التي وضعها والدنا على العامودين الأخيرين للدرابزين عند كل مطلع للسلالم! وفي الواقع، أسقط كوزيمو بالفعل تمثالاً للجد الثالث، وكان أسقفًا، وعلى رأسه التاج وكل شيء، وعوقب لذلك، ومنذ تلك اللحظة تعلم أن يتوقف قبل أن يصل إلى نهاية الدرج بلحظة، وأن يقفز في اللحظة التي يكاد يصطدم فيها بالتمثال. وأنا أيضًا تعلمت - لأننى كنت أقلده في كل شيء - إلا أننى، نظرًا إلى كوني أكثر تواضعًا وحرصًا، كنت أقفز في منتصف المسافة، أو أقوم بالتزحلق المتقطع، من خلال الوقفات المستمرة. وفي أحد الأيام كان يهبط الدرابزين وكأنه السهم، ومن ذا الذي كان يصعد السلالم وقتها؟ إنه الراهب فوشيلافلور، الذي كان يهيم على وجهه وكتاب القداس مفتوحًا بين يديه، ولكن نظراته كانت مركزة في الفراغ مثل الدجاجة. ويا ليته كان نصف نائم كالعادة! لا، وإنما كان في إحدى لحظات اليقظة والانتباه التي كانت تجيئه أحيانًا. رأى كوزيمو وتذكر: درابزين، تمثال، والآن سيصطدم، وسينهرونني أنا أيضًا (لأنه مع كل تصرف خبيث نقوم به، كان والدانا ينهرانه هو أيضًا لإخفاقه في مراقبتنا) وألقى بنفسه على الدرابزين ليمسك بأخي. اصطدم كوزيمو بالراهب، ودفعه إلى أسفل الدرابزين (كان مسنًا ونحيفًا جدًا)، ولم يستطع التوقف، واندفع كالقذيفة ليصطدم بجدنا كاتشاجويرا بيوفاسكو المحارب الصليبي في أرض المقدس، وسقطوا جميعًا أسفل الدرج؛ تفتت المحارب الصليبي (فلقد كان من الجبس)، والراهب وهو. وانهالت صرخات التوبيخ بلا نهاية وضربات السياط، ولك أن تتخيل الحبس الانفرادي، وتناول الخبز والحساء البارد. ولكن كوزيمو، الذي كان يشعر بأنه بريء لأن

الخطأ خطأ الراهب وليس خطأه، تفوّه في ثورة الغضب: أنا لا أعبأ بكل أسلافك أيها السيد الوالد! وهو ما نم بالفعل عن ميله للتمرد.

وأختنا، في واقع الأمر، كانت هي أيضًا متمردة. كانت هي أيضًا على الرغم من العزلة التي كانت تعيش فيها، والتي فرضها عليها والدنا، بعد قصة الماركيز الصغير لعائلة لاميلا، ذات روح متمردة ومحبة للعزلة. ولكن لم يعرف أحد معرفة جيدة حقيقة ما حدث مع هذا الماركيز، فهو ابن عائلة تناصبنا العداء. كيف استطاع التسلل إلى منزلنا؟ ولماذا؟ قيل في المشاحنات الطويلة التي تلت الواقعة بين العائلتين، إنه قد فعل ذلك ليغوي، بل ليعتدي على أختنا. ولكننا في الحقيقة، لم ننجح قط في تخيل ذلك المغفل، المنمش، كشخص قادر على الغواية، وخاصة مع أختنا، وهي من المؤكد أقوى منه بكثير، والمشهورة بقبضتها الحديدية حتى مع عمّال الإسطبل. ثم لماذا كان هو الذي يستغيث؟ وكيف عثر عليه أبي مع الخدم الذين هرولوا مسرعين بسرواله ممزقًا، وكأنه نشبت به مخالب نمر؟ ولم تشأ عائلة لاميلا قط الاعتراف بأن ابنهم حاول الاعتداء على شرف باتيستا، والموافقة على الزواج. ولهذا انتهى الأمر بأن دفنت أختنا في المنزل، وهى ترتدي ملابس الراهبة، مع أنها لم تعلن عن أية نذور، ولا حتى نذور المرتبة الثالثة، نظرًا إلى دعوتها المشكوك فيها.

وكانت روحها البائسة تظهر بصفة خاصة في المطبخ؛ كانت بارعة جدًا في الطهو، لأنه لم تكن ينقصها لا الدقة ولا الخيال، الموهبتان الأساسيتان لأي طاه، ولكنها حيثما كانت تضع يديها لم يكن لأحد أن يتوقع المفاجآت ستصل إلينا على مائدة الطعام؛ فلقد أعدت في إحدى المرات نوعًا من الفطائر المقرمشة، وكانت رقيقة جدًا في الحقيقة، من كبد الفئران، ولم تقل لنا هذا إلا بعد أن أكلناها وأعجبنا مذاقها؛ فضلاً عن سيقان الجراد الخلفية الجامدة والمسننة، التي وضعتها على طريقة الفسيفساء فوق التورتة؛ أو أذيال الخنازير المشوية وكأنها كعك، وتلك المرة التي طهت فيها

حيوان الشيهم (ذا الأشواك) بتمامه، بكل أشواكه! من يدر لماذا؟ من المؤكد أنها أرادت فقط أن تذهلنا عند رفع غطاء الصينية، لأنها حتى هي، التي كانت تأكل دائمًا كل ما تعده، لم ترغب في تذوقه، مع أنه كان حيوان شيهم صغيرًا، وردي اللون، ومن المؤكد أنه كان طريًا. في الواقع، كثير من ذلك الطهو المرعب كان مقصودًا فقط استعراضًا لمنظره، أكثر من الرغبة في أن نتذوق معها أطعمة مقززة. كانت الأطباق التي تقدمها باتيستا أعمالاً فنية يدوية دقيقة جدًا من الحيوانات والخضراوات؛ فكانت تقدم رءوس القرنبيذ مع آذان الأرانب موضوعة فوق باقة من فراء الأرنب، أو رأس خنزير وكأنه يخرج لنا لسانه، وفوقه وضعت إستاكوزا حمراء، والإستاكوزا تمسك بملقاطها لسان الخنزير وكأنها تنزعه منه؛ ثم الحلزون، فقد استطاعت أن تنزع رءوس عدد كبير منها، تلك الرءوس الرخوة جدًا أدخلتها، على ما أعتقد، بواسطة عود خشبي رفيع، كل واحد منها بداخل فطيرة منتفخة، وعندما وضعتها فوق مائدة الطعام كانت تبدو وكأنها قطيع من البجع الصغير جدًا. كنا ندهش عند رؤية تلك الأطباق الشهية ونفكر في ذلك العمل الدقيق والدؤوب الذي بذلته باتيستا في إعدادها، ونتخيل يديها الرقيقتين وهما تفصلان أطراف تلك الأجسام الحيوانية الصغيرة.

ولكن الطريقة التي كانت حيوانات الحلزون تثير بها خيال أختنا المرعب كانت تدفعنا، أخي و أنا، إلى التمرد، والذي بالإضافة إلى كونه تضامنًا مع تلك الحيوانات المسكينة الممزقة كان نوعًا من الاشمئزاز من مذاق الحلزون المطهو، ونوعًا من الضجر من كل شيء ومن الجميع، ولذلك لا يجب أن نشعر بالدهشة أنه بدءًا من هنا نضجت لدى كوزيمو فكرة موقفه، بل مواقفه التالية.

كنا قد أعددنا بفن خطة. كان الفارس المحامي يحضر إلى المنزل سلة مليئة بالحلزون الصالح للأكل، وكانت توضع في المخزن في برميل، حتى تمتنع عن الطعام فتأكل فقط النخالة، وبذلك تتنقي. وبمجرد تحريك

غطاء البرميل كان يظهر شيء أشبه بالجحيم، فيه تتحرك الحلزونات عند أضلاع البرميل إلى أعلى ببطء، وهو ما ينم عن اجتيازها سكرة الموت، بين المتبقي من النخالة، وخيوط من الرغاوي الكثيفة المتخثرة وإفرازاتها الملونة ذكرى ذلك الزمن الجميل الذي كانت الحلزونات تقضي فيه وقتها في الهواء الطلق وبين الأعشاب. كان بعض منها خارجًا تمامًا من قوقعته ورءوسها مبسوطة إلى الأمام وقرونها المتفرعة مفرودة؛ وبعضها الآخر متقوقعًا في نفسه، مُظهرًا فقط قرونه المتوجسة، وأخريات منها متجمعات وكأنهن رفيقات؛ ومنها من كان نائمًا ومغلقًا، ومنها من كان ميتًا وقوقعته مقلوبة. ولإنقاذها جميعًا من أن تلتقي بتلك الطاهية المتوحشة، ولننقذ أنفسنا مما تعده لنا، قمنا بعمل فتحة في قاع البرميل، ومنها خططنا بواسطة الحشائش الرفيعة والعسل طريقًا، وأخفيناه بقدر استطاعتنا خلف براميل ومعدات المخزن، لنجذب الحلزونات تجاه طريق الهروب، وصولاً إلى نافذة صغيرة تطل على جزء من الحديقة غير مزروع ومليء بالحشائش.

وفي اليوم التالى، عندما نزلنا إلى المخزن لنراقب آثار خطتنا، وعلى ضوء شمعة أخذنا نفتش الحوائط والدهاليز، وجدنا واحدة هنا! وأخرى هناك! - انظر إلى أين وصلت هذه. وبالفعل وجدنا خطًا من الحلزونات ليست بينها مسافات طويلة تعبر من البرميل إلى النافذة الصغيرة من خلال الأرضية والحوائط مقتفية الآثار التي تركناها. وعندما رأينا تلك الحيوانات الصغيرة تتحرك ببطء شديد، وهي تجنح عن طريقها في دوائر مفرغة على حوائط المخزن الخشنة، تجذبها الأشياء المخزونة والعفن والأشياء النيئة، لم نستطع أن نمسك أنفسنا من الصراخ فيها: هيا أيتها الحلزونات الصغيرة! أسرعي! اهربي ولكن المخزن كان مظلمًا، مكدسًا، مزدحمًا، وكنا نتمنى ألا يتمكن أحد من اكتشافها، وأن يكون لديها جميعًا الوقت الكافي للفرار.

ولكن روح أختنا باتيستا التعسة كانت تقضي ليلتها وهي تتجول في المنزل بحثًا عن الفئران، ممسكة بشمعدان في يدها، وبندقية تحت ذراعها. وفي تلك الليلة دخلت المخزن، وأبان ضوء الشمعدان حلزونة انحرفت على السقف وخلفها رغوة فضية اللون. ودوت طلقة من بندقيتها. فقفز كل من في البيت من فوق فراشه، ولكن سرعان ما غطينا رءوسنا الكل بالوسادة، فقد اعتدنا على الحملات الليلية لراهبة المنزل. ولكن باتيستا بعد أن دمرت الحلزونة، وتسببت في سقوط جزء من بياض السقف بتلك الطلقة الطائشة بدأت تصرخ بصوتها الحاد: النجدة! جميعها تهرب! النجدة. هرع نحوها الخدم شبه عراة، ووالدنا وهو مسلح بخنجر، والراهب من دون باروكة، أما الفارس المحامي فإنه قبل أن يدرك أى شيء وخوفًا من المتاعب، هرب سريعًا إلى الحقول، وذهب لينام في مخزن التبن.

وعلى ضوء المشاعل أخذ الجميع يطاردون الحلزونات في المخزن، مع أنه لم يكن يهتم بها أحد أساسًا، ولكنهم كانوا قد استيقظوا بالفعل، ولم يرغبوا، بسبب غرورهم المعتاد، في الاعتراف بأنه قد تم إزعاجهم للا شيء. واكتشفوا ثقب البرميل، وأدركوا - على الفور - أنها كانت فعلتنا. وجاء والدنا ليهاجمنا في فراشنا بسوط الحوذي. وانتهى بنا الأمر ونحن مغطيان بخطوط بنفسجية على ظهرينا وأردافنا وأقدامنا، وحبسنا في الغرفة الرثة التي كانت أشبه بالسجن لنا. بقينا بداخلها ثلاثة أيام، وكانوا يقدمون لنا الخبز والماء والسلطة ودهن البقرة والحساء البارد (والذي لحسن الحظ كان يعجبنا). وفي أول وجبة مع العائلة بعد ذلك، وكأن شيئًا لم يكن، كنا جميعًا موجودين في الميعاد تمامًا في منتصف نهار الخامس عشر من شهر يونيه. وماذا أعدت أختنا باتيستا، المشرفة على المطبخ؟ حساء الحلزون، وأطباقًا متنوعة من الحلزون. لم يرغب كوزيمو في أن يلمس أية قشرة منها.

- تناولا طعامكما، وإلا سنحبسكما مرة أخرى في الغرفة الصغيرة.

أنا استسلمت، وبدأت في ابتلاع تلك الرخويات (وكان هذا نوعًا من الجبن من جانبي، وتسبب بالفعل في أن يشعر أخي بأنه وحيد أكثر من ذي قبل، ولذلك كان تركه لنا يتضمن نوعًا من الاعتراض ضدي أنا أيضًا؛ فلقد خذلته، ولكنني كنت أبلغ من العمر فقط ثمانية أعوام، ثم بماذا كانت تفيد مقارنة قوة إرادتي، بل تلك التي كان يمكن أن أتحلى بها وأنا طفل مع ذلك العناد الذي يفوق قدرة البشر، والذي كان يميز حياة أخي؟).

قال والدنا لكوزيمو: وماذا بعد؟

قال كوزيمو وهو يبعد الطبق: لا، ثم لا!

- إذن، ابتعد عن تلك المائدة.

ولكن كوزيمو كان قد أدار ظهره للجميع، وكان في طريقه إلى خارج الغرفة.

- أين ستذهب؟

ورأيناه من خلف الباب الزجاجي بينما كان يأخذ من الدهليز قبعته المثلثة القرون وسيفه الصغير.

- أنا أعرف إلى أين! وانطلق إلى الحديقة.

وبعد قليل، رأيناه من النافذة وهو يتسلق ليصعد على شجرة البلوط. كان مرتديًا كامل ملابسه، ومهندمًا بشدة، تمامًا كما كان يريد أبونا أن يراه على مائدة الطعام، على الرغم من سنواته الاثنتي عشرة، كان شعره مضمومًا بشريط في ضفيرته، وكان يرتدي قبعته المثلثة القرون، ورباط عنق من الدانتيل والفراك الأخضر ذا الذيل المشقوق، وبنطاله البنفسجي، وسيفه الصغير وغطاء الكاحل من الجلد الأبيض والذي يغطي نصف فخذه، وهو التنازل الوحيد لطريقة ارتداء الملابس الملائمة لحياتنا الريفية. (أما أنا فنظرًا إلى أن عمري كان فقط ثمانية أعوام؛ فقد أعفوني من تزيين الشعر، إلا في المناسبات الرسمية، ومن السيف الصغير، مع أنني

كنت سأحب حمله). وهكذا أخذ كوزيمو يتسلق الشجرة ذات الفروع المعقدة، محركًا ذراعيه وقدميه فوق فروعها بثقة وبسرعة اكتسبهما من الممارسة الطويلة لنا معًا. سبق أن قلت إننا كنا نقضي ساعات طوالاً فوق الأشجار، ليس لأسباب نفعية كما كان يفعل كثير من الصبية الذين كانوا يتسلقونها فقط بحثًا عن الفاكهة أو أعشاش العصافير؛ ولكن لمتعة تجاوز الأجزاء البارزة الصعبة في جذع الشجرة وفروعها، ولكي نصل دائمًا إلى أعلى نقطة نستطيعها، ونجد أماكن جميلة نتوقف فيها، لننظر إلى العالم تحتنا، ولنمرح وننادي بأصواتنا على من يعبر في أسفل. ولذلك وجدت من الطبيعي أن تكون أول فكرة تخطر ببال كوزيمو أمام ذلك الغضب الظالم ضده؛ هي أن يتسلق شجرة البلوط، الشجرة المألوفة لنا، والتي تمد فروعها في ارتفاع نوافذ القاعة، وبذلك فإنه كان يفرض سلوكه الساخط والمهين على مرأى من العائلة.

صرخت أمنا في قلق بالغ: لتحذر! احترس! والآن سيسقط المسكين! وهي التي كانت ستسر لرؤيتنا ونحن نقوم بشحن مدفع وإطلاقه، ولكن كان ينتابها القلق من طريقتنا في اللعب.

صعد كوزيمو حتى وصل إلى حيث يتفرع فرع ضخم، حيث كان يمكنه الجلوس مستريحًا، وجلس هناك وقدماه تتدليان، وذراعاه متقاطعتان ويداه أسفل إبطيه، ورأسه محشور بين كتفيه، وقبعته الثلاثية القرون تغطي جبهته.

أطل والدنا من النافذة، وصرخ فيه: عندما تتعب من جلوسك هناك ستغير رأيك.

قال أخي من فوق فرع الشجرة:

- لن أغير رأيي أبدًا.

- سأريك أنا ماذا سيحدث لك بمجرد نزولك.

ولكنني لن أنزل أبدًا! وتمسك كوزيمو بما قاله.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ ٢ ـ

كان كوزيمو فوق شجرة البلوط، وكانت الأغصان تتحرك كأنها جسور عالية فوق الأرض، وكانت هناك رياح خفيفة، والشمس ساطعة. كان ضوء الشمس يعبر بين الأوراق. ولكي نرى كوزيمو كان علينا أن نظلل على أعيننا بأيدينا. وكوزيمو هناك يراقب العالم من فوق الشجرة. كل شيء يراه من فوق كان يبدو مختلفًا، وكان ذلك في ذاته شيئًا مسليًا: فالطريق المهد منظره مختلف تمامًا، وكذلك كانت المروج الصغيرة، وأزهار الكوبية، وأزهار الكاميليا، والمائدة الصغيرة الحديدية التي نتناول عليها القهوة في الحديقة. وكلما ارتفع إلى أعلى كانت أوراق الأشجار تقل تدريجيًا، وكانت الخميلة تنحدر وتنقسم إلى حقول مدرجة تدعمها حوائط من الأحجار. وكان ظهرها قاتم اللون بسبب أشجار الزيتون؛ وفي الخلف مساكن أومبروزا، تظهر منها أسقفها المصنوعة من الطوب الشاحب اللون وحجر الأرديزيا، وتظهر أيضًا سواري السفن البعيدة حيث توجد الميناء، وفي النهاية كان البحر الممتد إلى ما وراء الأفق، وكان يبحر فيه ببطء زورق شراعي.

وها هما البارون والجنرالة يخرجان إلى الحديقة بعد تناول القهوة. كانا ينظران إلى شجرة ورد في محاولة للامتناع عن الاهتمام بكوزيمو.

كان كل منهما يتأبط ذراع الآخر، ثم سرعان ما انفصلا ليتناقشا ويتشاورا. أما أنا فلقد ذهبت إلى أسفل البلوطة، وكأنني ألعب وحدي، ولكنني في الحقيقة كنت أحاول أن ألفت انتباه كوزيمو؛ ولكنه كان لا يزال غاضبًا مني، وبقي فوق ينظر إلى بعيد. توقفت عن اللعب، واختبأت خلف أحد المقاعد لأتمكن من الاستمرار في مراقبته من دون أن يراني أحد.

كان أخي يقف كالديدبان، كان ينظر إلى كل شيء، وكل شيء كان كلا شيء. بين أشجار الليمون كانت تمر سيدة تحمل سلة. وكان هناك بغّال يصعد المهبط وهو ممسك بذيل البغل. لم ير أحدهما الآخر. استدارت المرأة عندما سمعت أصوات حدوات البغل، وخرجت تجاه الشارع، ولكن الوقت لم يسعفها. عندئذ بدأت في الصياح، ولكن البغّال كان يعبر المنعطف، فاسترق السمع، وأعمل السوط، وصاح في البغل: آه ه ه! وانتهى الأمر. كان كوزيمو يرى هذا وذاك.

وفي الطريق مر الأب فوشلافلير ومعه كتاب الصلوات مفتوحًا. أخذ كوزيمو شيئًا من الفرع وتركه يسقط على رأسه. لم أفهم ماذا كان، ربما كان عنكبوتًا، أو ربما شظية من لحاء الشجرة؛ لكنها لم تصبه. أخذ كوزيمو ينقب بسيفه في فتحة في الجذع، فخرج منه دبور غاضب، فأخذ هو يطرده بعيدًا بقبعته ذات القرون الثلاثة، وأخذ يتتبع طيرانه بنظره حتى وصل إلى نبات القرع، وهناك اختفى. وكعادته، خرج الفارس المحامي من المنزل بسرعة، عابرًا من خلال سلالم الحديقة، واختفى بين صفوف الكرم. وليرى كوزيمو إلى أين يتجه؛ تسلق على فرع آخر. وهناك، ومن بين الأوراق، سمع صوت رفرفة أجنحة، وارتفع طائر الشحرور إلى السماء. استاء كوزيمو كثيرًا لأنه كان هناك كل هذا الوقت ولم ينتبه لوجوده. وأخذ ينظر - على الرغم من أشعة الشمس- هل هناك طيور أخرى أو لا، ولكن لم يكن هناك شيء.

وكانت شجرة البلوط قريبة من شجرة دردار، وكانت قمتا الشجرتين متلامستين. كان فرع الدردارة يعبر فوق أحد فروع الشجرة الأخرى بنحو

نصف متر، وكان من السهل على أخي أن يعبر ليحتل أيضًا قمة الدردارة، التي لم نقم قط باكتشافها، نظرًا إلى أنها كانت فوق درج مرتفع، ولا يمكن تسلقها من الأرض. ومن فوق شجرة الدردار، وفي محاولته المستمرة للبحث عن فرع قريب من فروع شجرة أخرى، وصل فوق شجرة خروب، ثم إلى شجرة توت. وهكذا رأيت كوزيمو وهو يتقدم من فرع إلى آخر، وهو يسير معلقًا فوق الحديقة.

وكانت بعض فروع شجرة التوت الضخمة تصل وتعبر فوق السور المحيط بفيلتنا، وهناك كانت حديقة عائلة أونداريفا. ومع أنها كانت على حدود منزلنا، فإننا لم نكن نعرف شيئًا عن ماركيزات عائلة أونداريفا، ونبلاء أومبروزا؛ فقد كانوا، منذ أجيال عديدة، يتمتعون ببعض الحقوق الإقطاعية، التي كان يطالب بها أبي، ففصل نوع من الحقد المتبادل بين العائلتين، كما كان يفصل السور المرتفع الذي كان يبدو كأنه برج حصن بين فيلتينا، ولا أعرف هل بناه الماركيز أم والدنا. وبالإضافة إلى ذلك الحرص الشديد الذي كانت تحيط به عائلة أونداريفا بحديقتها، والتي -حسبما يقال- كانت زاخرة بأنواع من النباتات لم ترها عين. في الواقع، كان جد الماركيز الحاليين، تلميذ لينيو، قد استحث عائلته كثيرة العدد وأقاربه الذين كانوا يعيشون في بلاطي فرنسا وإنجلترا، ليرسلوا إليه بأثمن النباتات الموجودة في المستعمرات وأندرها، ولسنوات عديدة كانت السفن تُنزل ما على متنها من أجولة حبوب، وحزم من الشتلات، وشجيرات في أصص، بل كانت تنزل أشجارًا كاملة تحيطها طبقة من الطمي حول جذورها إلى أومبروزا حتى أصبحت تلك الحديقة -كما يقولون- خليطًا من غابات الهند والأمريكتين، بل من غابات هولندا الجديدة أيضًا. وكان كل ما نستطيع رؤيته هو ظهور بعض الأوراق قاتمة اللون على حافة السور، من أوراق إلى شجرة تم استيرادها حديثًا من المستعمرات الأمريكية، وهي شجرة المانوليا، ومن فروعها السوداء تبرز أزهار سميكة بيضاء اللون. ومن

فوق شجرة التوت وصل كوزيمو إلى حافة السور، وسار بضع خطوات محافظًا فيها على توازنه، ثم قفز إلى الناحية الأخرى حيث كانت توجد أوراق المانوليا وأزهارها. ومن هنا اختفى عن ناظري، وما سأقوله الآن، مثل كثير من الأشياء التي سأقصها عن حياته، رواه لي هو فيما بعد، أو استطعت أنا الوصول إليه من خلال شواهد متناثرة، ومن خلال استنتاجاتي الخاصة.

وقف كوزيمو على شجرة المانوليا. وعلى الرغم من كثافة فروع تلك الشجرة، فإنها كانت طريقًا ميسورًا بالنسبة إلى صبي خبير بكل أنواع الأشجار مثل أخي؛ وكانت الفروع تتحمل ثقله، مع أنها لم تكن كبيرة، وكان خشبها رقيقًا إلى درجة أن طرف حذاء كوزيمو كان يقشرها، ويفتح جروحًا بيضاء في جذعها الأسود؛ وكانت تحيط بالصبي رائحة الأوراق العطرة الطازجة، كلما حركتها الرياح، وغيرت من درجات لونها الأخضر من اللون القاتم تارة إلى اللون اللامع تارة أخرى.

ولكن الحديقة كانت كلها معبأة بالروائح، ومع أن كوزيمو لم يكن قد نجح بعد في أن يتجول فيها بناظريه - حيث كانت كثيفة بدرجة غير عادية- إلا أنه كان يكتشفها بحاسة الشم، وكان يحاول أن يميز بين الروائح المختلفة، مع أنها كانت معروفة له منذ أن كانت تحملها الرياح حتى تصل إلى حديقتنا، وكانت تبدو لنا شيئًا لا ينفصل عن سر تلك الفيلا. ثم كان ينظر إلى الأغصان ويرى أوراقًا جديدة، الأوراق الضخمة اللامعة، وكأنها تجري فوق سطح مائي، حيث كانت دقيقة الحجم ومدببة، والجذوع جميعًا ملساء أو مغطاة بالنتوءات.

كان الصمت يلف كل شيء، وسمع صوت رقيق يغني : آه لا لا. آه يا لها من أرجوحة. نظر كوزيمو إلى أسفل، وهناك، وفوق فرع شجرة قريبة كبيرة كانت هناك أرجوحة معلقة تجلس فوقها طفلة عمرها نحو عشر سنوات.

كانت طفلة شقراء، بتسريحة شعر مرتفعة، غريبة بعض الشيء بالنسبة إلى طفلة، وترتدي فستانًا سماوي اللون، وهذا أيضًا يجعلها تبدو أكبر من سنها، وتنورة مليئة بالدانتيلا. كانت الطفلة تنظر بعينين شبه مغلقتين وأنف مرتفع في الهواء، وكأنها تريد أن تظهر بمظهر المرأة النبيلة، وكانت تقضم تفاحة بفمها وهي تحني- في كل مرة - رأسها تجاه يدها التي كانت تمسك بحبل الأرجوحة والتفاحة في الوقت نفسه، وكانت تدفع نفسها إلى أعلى بأن تضغط بطرف حذائها على الأرض في كل مرة تصل الأرجوحة إلى أقرب نقطة من حركتها إلى الأرض، وكانت تتفل من فمها بقايا قشرة التفاحة التي قضمتها وتغني: آه لا لا لا.. آه من الأرجوحة. وكأنها فتاة لم يعد يهمها شيء، لا الأرجوحة، ولا الأغنية، ولا حتى التفاحة، وأن لديها أفكارًا أخرى في رأسها.

كان كوزيمو قد نزل من قمة المانوليا إلى أكثر المناطق قربًا إلى الأرض، وكان يقف بقدميه، واحدة هنا وواحدة هناك، على فرعين، ويسند مرفقيه إلى فرع قبالته وكأنه يقف أمام شباك. وكانت حركة الأرجوحة تأتي بالطفلة بالقرب من وجهه.

لم تكن هي منتبهة، ولم تدرك وجوده. وفجأة رأته يقف هناك مرتديًا قبعته ثلاثية القرون وغطاء الكاحل وقالت: آه.

وسقطت التفاحة من يدها، وتدحرجت أسفل الأرجوحة، فاستل كوزيمو سيفه الصغير، وانحنى إلى أسفل من الفرع الأخير، ووصل إلى التفاحة بطرف سيفه وغرسه فيها وأمسك بها وقدمها للطفلة التي كانت في ذلك الوقت قد دارت دورة كاملة بالأرجوحة وعادت بالقرب منه من جديد:

- خذيها. لم تتسخ، انسحقت قليلاً من أحد جوانبها.

كانت الطفلة الشقراء قد ندمت بالفعل، لأنها أظهرت كل هذه الدهشة

أمام ذلك الصبي المجهول الذي ظهر هناك فوق المانوليا، واستعادت على الفور شعورها بالاعتزاز ورفعت أنفها إلى أعلى وقالت: هل أنت لص؟

- لص شعر كوزيمو بالإهانة، ثم فكر قليلاً في الأمر، فأعجبته الفكرة. وقال وهو يسقط قبعته ثلاثية القرون على جبهته: نعم أنا كذلك. هل هناك اعتراض؟

- وماذا تريد أن تسرق؟

نظر كوزيمو إلى التفاحة التي غرسها بسيفه الصغير، وخطر بباله أنه يشعر بالجوع، وأن يديه لم تمتدا إلى الطعام على المائدة فقال: هذه التفاحة. وبدأ يقشرها بنصل السيف الصغير الحاد الذي كان يمسكه بغض النظر عن الممنوعات العائلية.

قالت الفتاة: أنت إذن لص فاكهة.

فكر أخي في شرذمة الصبية الفقراء في أومبروزا، الذين يتسلقون الأسوار والسياج ويسرقون حدائق الفاكهة، وهم نوع من الصبية تعلم أن يحتقرهم وأن يبتعد عنهم، ولأول مرة فكر كيف يمكن أن تكون حياتهم حياة حرة يُحسدون عليها. إذن: يمكنه هو أيضًا أن يكون مثلهم ويعيش بهذه الطريقة من الآن فصاعدًا، قال: نعم. وكان قد شطر التفاحة إلى أقسام وبدأ يلتهمها.

انفجرت الفتاة الشقراء في ضحك استمر دورة الأرجوحة الكاملة من أعلى إلى أسفل.

- لتلعب بعيدًا! فأنا أعرف الصبية الذين يسرقون الفاكهة معرفة جيدة، فهم جميعًا أصدقائي! وهم يسيرون حفاة، بقمصان بلا أكمام، شعثًا، ولا يرتدون مثلك غطاءً للكاحل وشعرًا مستعارًا!

تحول وجه أخي إلى اللون الأحمر مثل قشرة التفاحة، فقد سخرت منه ليس فقط بسبب الباروكة، والتي لم يكن يتمسك بها ألبتة؛ ولكن أيضًا

بسبب غطاء الكاحل الذي كان يعتز به جداً، وأيضًا لأنه تم الحكم عليه بأن مظهره أقل من أن يكون لص فاكهة، أي أنه لا ينتمي إلى تلك الزمرة التي كان يحتقرها قبل دقيقة واحدة، وبالأخص لأنه اكتشف أن هذه الآنسة الصغيرة التي كانت تتظاهر بأنها سيدة الحديقة، والتي تنتمي إلى عائلة أونداريفا، كانت صديقة لأولئك اللصوص وليست صديقته، كل هذه الأشياء مجتمعة ملأته بالضيق والخجل والغيرة.

وأخذت الصغيرة تغني من فوق الأرجوحة: آه لا لا لا بالكاحل والباروكة.

أما هو فقد انتابته رغبة في استعادة كبريائه فصرخ:

- أنا لست لصًا مثل أولئك الذين تعرفينهم! بل أنا لست لصًا ألبتة! قلت هذا فقط حتى لا أخيفك! لأنك لو عرفت من أنا بالفعل لمُتِّ من الفزع، فأنا قاطع طريق! قاطع طريق خطير!

استمرت الفتاة في الارتفاع بالأرجوحة قريبًا من وجهه، بل يمكن القول إنها أرادت أن تلمسه بطرفي قدميها.

فلتذهب بعيداً! وأين إذن بندقيتك! كل قطاع الطرق لديهم بنادق! أو مجانيق! لقد رأيتهم! فلقد أوقفوا عربتنا خمس مرات في رحلاتنا من القصر إلى هنا!

لكن زعيمهم لا! لأني زعيمهم! زعيم قطاع الطرق ليست لديه بندقية! لديه فقط السيف. وشهر سيفه.

هزت الفتاة كتفيها وشرحت: إن زعيم عصابة قطاع الطرق يدعى جان داي بروجي، وهو يأتي دائمًا ليقدم لنا الهدايا في عيد الميلاد وعيد الفصح.

- آه. صرخ متعجبًا كوزيمو دي روندو، وقد انتابته موجة تعالٍ عائلية: إذن أبي على حق عندما يقول إن ماركيز أونداريفا هو الذي يحمي قطاع الطرق واللصوص في المنطقة!

اقتربت الصغيرة من الأرض، وبدلاً من أن تدفع نفسها بقدميها أوقفت الأرجوحة بلمسة سريعة وقفزت من فوقها. وأخذت الأرجوحة تطير وهي تهتز في الهواء: قالت له وهي تشير بإصبعها إلى الصبي مستشيطة غضبًا.

انزل من فورك إلى هنا! كيف سمحت لنفسك بدخول أرضنا؟

قال كوزيمو بحمية الغضب نفسها: أنا لم أدخل، ولن أنزل. لم أضع قط قدمًا على أرضكم، ولا أنوي فعل ذلك ولو في مقابل ذهب العالم كله!

عندئذ، وبهدوء شديد، أخذت الفتاة مروحة كانت موضوعة على مقعد من الخيرزان، ومع أن الجو لم يكن شديد الحرارة، إلا أنها أخذت تحركها وهي تسير ذهابًا وإيابًا.

وقالت بكل هدوء: والآن سأستدعي الخدم، وسآمرهم بأن يمسكوك ويضربك بالعصيّ. وهكذا ستتعلم ألا تدس أنفك في أرضنا مرة أخرى! وكانت هذه الفتاة تغير من نبرتها سريعًا، وفي كل مرة كان أخي يتلعثم أمامها.

صرخ كوزيمو: حيث أوجد الآن ليست أرضكم، وليست من أملاككم! وراودته نفسه أن يضيف: ثم إنني دوق أومبروزا، وسيد هذه الأرض كلها!

ولكنه تراجع؛ لأنه لم يكن يحب تكرار الأشياء التي كان يرددها أبوه دائمًا، خاصة وقد هرب لتوه من المائدة بعد مشاجرة معه، ولم يكن يعجبه، بل لم يكن يبدو له شيئًا صحيحًا، لأن المطالبة بالدوقية تلك كانت بالنسبة إليه مجرد فكرة متسلطة؛ فكيف إذن يضع نفسه - كوزيمو - في موقف تفاخر من كونه دوقًا؟ ولكنه لم يرغب في أن يكذب نفسه، فاستمر في الحديث بما يخطر على باله، وكرر: هذا المكان ليس لكم، لأن ما تملكونه هو الأرض. وإذا وضعت عليها قدمي لكنت فعلاً شخصًا يندس فيها، ولكن هنا في أعلى فإن هذا غير وارد، فأنا أذهب حيث أريد.

- آه! إذن فهناك فوق ملك لك.

- بالتأكيد! إن هذه هى أرضي الخاصة، كل ما يوجد هنا بأعلى.

وأشار إلى الفروع والأوراق المتلألئة بضوء الشمس والسماء.

- على فروع الأشجار، كل شيء ملك لي، قولي لهم أن يأتوا ليمسكوا بي إن استطاعوا ذلك!

والآن، وبعد كل هذا الحديث المتفاخر، كان من المنتظر أن تسخر منه بطريقة ما، ولكنها - على العكس- أظهرت اهتمامًا غير متوقع:

ـ آه حقًا؟ و إلى أين تمتد أراضيك تلك؟

ـ كل ما يمكن الوصول إليه قفزًا فوق الأشجار، من هنا ومن هناك، ووراء الأسوار وفي مزارع الزيتون، وحتى فوق الهضبة، ومن الناحية الأخرى وفي الغابة، وفي أراضى الأسقف.

ـ وصولاً إلى فرنسا؟

ـ بل حتى بولندا وبلاد الساكسون، قال كوزيمو، والذي كان يعرف من الجغرافيا فقط الأسماء التي كان يسمع أمنا ترددها وهي تتحدث عن حروب الخلافة، ولكني لست أنانيًا مثلك، فيمكنني أن أدعوك إلى أرضي - والآن بدأ كل منهما يكلم الآخر من دون استخدام صيغة الاحترام، وكانت هي البادئة في هذا.

سألته وهي تجلس على الأرجوحة والمروحة مفتوحة في يدها: ولمن إذن تلك الأرجوحة؟

قال كوزيمو محددًا الموقف، الأرجوحة لك، ولكن نظرًا إلى أنها مربوطة بذلك الفرع فهي داخل نطاق مملكتي، إذن فإذا جلست عليها وقدماك تلمسان الأرض فأنت على أرضك، ولكن إذا رفعت نفسك في الهواء فأنت في أرضي.

عندئذ دفعت نفسها وطارت في الهواء، ويداها ممسكتان بالحبال، قفز كوزيمو من المانوليا إلى الفرع الكبير المعلقة به الأرجوحة، ومن هناك امسك بالحبال، وبدأ هو في تحريكها، وأخذت الأرجوحة تتحرك أعلى من ذي قبل.

ـ هل أنت خائفة؟

ـ أنا لا. ما اسمك؟

ـ أنا كوزيمو. وأنت؟

ـ فيولانت. ولكنهم يدعونني فيولا.

ـ أما أنا فيدعونني مينو، أيضًا لأن كوزيمو اسم قديم.

ـ لا يعجبني.

ـ كوزيمو؟

ـ لا، مينو.

ـ آه. يمكنك أن تدعونى كوزيمو.

ـ ولا حتى هذا! اسمع، يجب أن نعقد اتفاقات واضحة.

ـ ماذا تقولين؟ سألها كوزيمو، وهو لا يزال يشعر بالألم في كل مرة تتحدث فيها.

ـ أقول: إنني يمكنني أن أصعد إلى منطقتك، وأكون فيها ضيفة مقدسة، حسنًا؟ أدخل وأخرج كما أريد. أما أنت فإنك مقدس، ولا يمكن الاعتداء عليك ما دمت فوق أشجارك، في منطقتك، ولكن بمجرد أن تلمس أرض حديقتي تصبح عبدى، وسنقيدك بالأغلال.

ـ لا، لن أنزل إلى حديقتك، ولا حتى إلى حديقتي، فبالنسبة إليّ، فإن كلتيهما تعد منطقة أعداء على حد سواء، تعالي أنت إلى فوق معي، وليأت أيضًا أصدقاؤك لصوص الفاكهة، وربما يأتي أيضًا أخي بياجو، مع أنه

جبان إلى حد ما، ولنصنع جيشًا يعيش فوق الأشجار ونعيد الأرض وساكنيها إلى صوابهم.

• لا، لا، لا شيء من هذا كله. اتركني أشرح لك كيف تسير الأمور. لك أنت السلطة على الأشجار، حسنًا؟ ولكن إذا لمست- ولو مرة واحدة، الأرض بقدميك، تفقد كل مملكتك، وتصبح أحقر العبيد. هل فهمت؟ حتى وإن كسر فرع شجرة تحت قدميك وسقطت ستفقد كل شيء!

- لم أسقط قط من فوق شجرة في حياتي!

- بالتأكيد، ولكن، إذا سقطت ستصبح رمادًا وستذروك الرياح.

- كل هذا هراء. أنا لن أذهب إلى الأرض، لأنني لا أريد ذلك.

- آه! كم أنت مثير للملل.

- لا، لا، لنلعب. على سبيل المثال، هل يمكن أن أجلس على الأرجوحة؟

- إذا نجحت في الجلوس على الأرجوحة من دون أن تلمس الأرض فنعم.

وبجوار أرجوحة فيولا كانت هناك واحدة أخرى، معلقة على الغصن نفسه، ولكنها مرتفعة أكثر إلى أعلى بعقدة في حبالها حتى لا تصطدم إحداهما بالأخرى. ترك كوزيمو نفسه لينزل وهو ممسك بأحد الحبلين، وهو تدريب كان كوزيمو ماهرًا جدًا فيه؛ لأن أمنا كانت تجعلنا نقوم بتدريبات رياضية كثيرة. وعندما وصل إلى العقدة فكها ووقف بقدميه على الأرجوحة. ولكي يدفع نفسه نقل ثقل جسمه وهو يثني ركبتيه وينطلق إلى الأمام.

وهكذا كان يدفع بنفسه إلى أعلى. وكانت الأرجوحتان تتحركان، إحداهما في اتجاه والأخرى في اتجاه مختلف، وكانتا تصلان إلى الارتفاع نفسه، وتلتقيان في منتصف الدورة.

أخذت فيولا توعز إليه: ولكن إذا جربت الجلوس أعطيت نفسك دفعة بقدميك سترتفع أكثر إلى أعلى.

نظر إليها كوزيمو مستهزئًا.

قالت له برقة وهي تبتسم: انزل إلى الأرض لتدفعني. لتكن لطيفًا.

ـ لا، لقد قلنا إنني لن أنزل بأي ثمن. وبدأ كوزيمو يشعر بالارتباك.

ـ لتكن لطيفًا.

ـ لا.

ـ آه، آه، كنت على وشك السقوط في الفخ، فلو وضعت إحدى قدميك على الأرض لفقدت كل شيء!- ونزلت فيولا من فوق الأرجوحة، وبدأت تدفع أرجوحة كوزيمو دفعات خفيفة ـ أوه! وأمسكت فجأة بمقعد الأرجوحة التي كان أخي يسند إليها قدميه وقلبتها، ولكن لحسن الحظ كان أخي ممسكًا بالحبال جيدًا! وإلا سقط أرضًا كالسردينة.

صرخ: خائنة! وتسلق إلى أعلى، وهو ممسك بالحبلين، ولكن الصعود كان أصعب من النزول، وخاصة مع وجود تلك الفتاة الشقراء، والتي كانت في إحدى حالاتها الشريرة، وكانت تجذب الحبال من أسفل في كل الاتجاهات.

وفي النهاية وصل إلى الفرع الضخم، وجلس عليه وأحاطه بساقيه. وبرباط عنقه أخذ يمسح عرقه من على وجهه.

ـ آه، آه! لم تنجحي في ذلك!

ـ كنت على وشك!

ـ ولكنني كنت أعتقد أنك صديقتي!

ـ كنت تعتقد! واستأنفت في التأرجح.

ـ قاطعهما في تلك اللحظة صوت نسوي حاد: فيولانت! مع من تتحدثين؟

وعلى الدرجات البيضاء التي تؤدي إلى الفيلا ظهرت سيدة طويلة القامة ونحيلة، بتنورة واسعة فضفاضة؛ وكانت تنظر بنظارتها وحيدة العدسة. تراجع كوزيمو بين الأوراق خجلاً.

ـ مع شاب يا خالتي - قالت الصبية- وُلد على قمة الشجرة، وبسبب قوى سحرية لا يمكنه وضع قدميه على الأرض.

تساءل كوزيمو، وقد احمر وجهه، هل الصبية تتحدث بهذه الطريقة لتسخر منه أمام خالتها، أم لأنها تسخر من خالتها أمامه، أو فقط لتكمل اللعبة، أو لأنها لا يهمها شيء منه، أو من خالتها، أو من اللعبة، ورأى نظارة الخالة تتفحصه، وكانت تقترب من الشجرة، وكأنها تتطلع إلى ببغاء غريب النوع.

ـ أوه، لكنني أعتقد أن هذا الشاب من البيوفاسك، تعالي يا فيولانت.

شعر كوزيمو بالإهانة الشديدة؛ فالتعرف إليه بهذه الطريقة العادية، حتى من دون السؤال لماذا يقف هناك، ونداؤها الطفلة على الفور بحدة ولكن من دون قسوة، وتلبية فيولا بخنوع وعلى الفور لنداء خالتها من دون أن تلتفت إليه، كل هذا كان ينم على أنه شخص بلا أية أهمية، بل لا وجود له. ولذلك فإنه في تلك اللحظة غرق في سحابة من الخجل.

ولكن الصبية تشير إلى الخالة التي تحني رأسها، فتهمس لها الطفلة بشيء في أذنها. وعندئذ توجه الخالة نظراتها إلى كوزيمو وتقول له:

– إذن أيها السيد الصغير، هل تتفضل وتتناول فنجانًا من الشيكولاته؟ هكذا يمكننا أن نتعرف إليك نحن أيضًا – ونظرت بطرف عينيها لفيولا – نظرًا إلى أنك صرت صديقًا للعائلة.

مكث كوزيمو هناك ينظر إلى الخالة وابنة أختها محملقًا عينيه، وكان قلبه يدق بشدة. ها قد تمت دعوته من قبل عائلة أونداريفا أومبروزا، أهم عائلة في المنطقة، وتحولت الإهانة التي شعر بها في اللحظة السابقة إلى رغبة في الانتقام، وكأنه يثأر من أبيه، وذلك بأن يستضيفه أعداؤه الذين عادة ما كانوا ينظرون إليه باحتقار، وأن فيولا تدخلت لأجله، وأنه تم قبوله رسميًا صديقًا لفيولا، وأنه يمكنه أن يلعب معها في تلك الحديقة المختلفة عن كل الحدائق. شعر كوزيمو بكل هذا، ولكن شعر مع هذا بشعور مضاد؛ وإن كان مضطربًا، شعور مكون من الخجل، والكبرياء، الوحدة والعناد. ومع هذا التضارب في المشاعر، أمسك أخي بفرع الشجرة فوقه وتسلقه، وانتقل إلى الجزء الأكثر كثافة منها، ثم عبر إلى شجرة أخرى واختفى.

ـ ٣ ـ

وكان عصر ذلك اليوم بلا نهاية. من وقت لآخر كنا نستمع إلى صوت فرقعة، أو حفيف كما يحدث عادة في الحدائق، وكنا نجري إلى الخارج آملين أن يكون هو، وأنه قرر النزول. ولكن هيهات، فلقد رأيت قمة المانوليا بزهرها الأبيض تتحرك، وكوزيمو يظهر هناك من وراء السور يتخطاه.

ذهبت للقائه على شجرة التوت. وبمجرد رؤيتي أظهر امتعاضه. كان ما زال غاضباً مني. جلس على أحد فروع الشجرة أعلى مني، وبدأ يخدش الشجرة بسيفه وكأنه لا يريد أن يتوجه إليّ بكلمة.

قلت، في محاولة لبدء الحديث: إن تسلق شجرة التوت سهل، لم نتسلقها أبداً.

أما هو فاستمر في خدش الفرع بنصل سيفه، ثم قال في حدة:

- إذن، هل أعجبتك وجبة الحلزونات؟

- مددت يدي بسلّة: لقد أحضرت لك تيناً مجففاً يا مينو، وقطعة تورتة.

- هل أرسلوك هم؟ قالها لي، وهو ما زال غاضباً، ولكنه كان ينظر إلى السلة ولعابه يسيل.

قلت بسرعة: لا، أتعرف؟ لقد اضطررت إلى الهرب خلسة من الأب! لقد أراد أن يحتجزني للدرس المساء كله حتى لا أتصل بك، ولكنه استسلم للنوم! أمنا تشعر بالقلق وتخشى أن تسقط، وتريد أن يبحثوا عنك، ولكنّ والدنا منذ أن اختفيت من فوق شجرة البلوط يقول إنك نزلت بالفعل واختفيت في زاوية ما تحاول أن تتأمل في فعلتك السيئة، وإنه لا شيء يدعو إلى الخوف.

قال أخي: أنا لم أنزل قط!

- هل ذهبت إلى حديقة عائلة أونداريفا؟

- نعم، ولكنني كنت أنتقل من شجرة إلى أخرى. لم ألمس الأرض قط!

سألته: لماذا؟ فلقد كانت المرة الأولى التي أستمع إليه فيها وهو يعلن هذه القاعدة، ولكنه تحدث عن هذا الأمر وكأنه شيء متفق عليه بيننا، وكأنه كان يريد أن يطمئنني أنه لم يخرق المعاهدة، إلى حد أنني لم أجرؤ على الإصرار على طلب التفسير.

قال بدلاً من أن يجيبني: أتعلم أن حديقة الأونداريفا هي مكان يحتاج إلى عدة أيام لاكتشافه مع كل تلك الأشجار الواردة من غابات أمريكا، آه لو رأيتها! ثم تذكر أنه على خلاف معي، ولذلك لا يجب أن يستمتع بأن يقول لي اكتشافاته، فقطع كلامه فجأة: على كلٍ، لن آخذك معي إلى هناك. يمكنك أن تذهب لتتجول مع باتيستا من الآن فصاعداً، أو مع الفارس المحامي!

قلت له: لا يا مينو خذني إلى هناك! لا يجب أن تغضب مني لأنني أكلت الحلزون. لقد كانت بشعة، ولكنني لم أحتمل سماع صراخهم!

كان كوزيمو يلتهم التورتة وقال:

- سأختبرك، يجب أن تثبت لي أنك في جانبي، وليس في جانبهم.

- قل لي عن كل ما تريد أن أفعله.

- يجب أن تحضر لي حبالاً، طويلة ومتينة، لأنني لكي أقوم بتنقلات معينة يجب أن أربط نفسي، وأريد أيضًا بكرة، ودعامات ومسامير من النوع الكبير.

- ولكن ماذا تريد أن تصنع؟ رافعة؟

- يجب أن ننقل أشياء كثيرة إلى أعلى، وسنرى ذلك فيما بعد، ألواح خشبية، وقصبات.

- تريد أن تبني كوخًا فوق شجرة! ولكن أين؟

- إذا لزم الأمر. سنختار المكان، على كل سيكون مكاني، ولكن يمكنك العثورعليّ هناك عند شجرة البلوط تلك، سأنزل لك السلة بالحبال، وتستطيع أن تضع فيها كل ما سأحتاج إليه.

- ولكن لماذا؟ تتحدث وكأنك ستمكث هنا مختبئًا لا أحد يعرف إلى متى، أتظن أنهم لن يسامحوك؟

تحول وجهه إلى اللون الأحمر وقال:

- وماذا يهمني من أن يسامحوني، ثم إنني غير مختبئ؛ أنا لا أخاف من أحد! وأنت، هل تخاف من مساعدتي؟

لم يكن الأمر أنني لم أفهم أن أخي يرفض النزول حاليًا، ولكنني كنت أتظاهر أنني لا أفهم حتى أجبره على أن يعلن وأن يقول "نعم، أريد أن أبقى هنا حتى ساعة العصر، أو حتى الغروب، أو ميعاد العشاء، أو حتى الظلام"، شيئًا ما يضع حدًا زمنيًا، شيئًا ما يعطي حجمًا لعمله الاعتراضي، إلا أنه لم يقل أي شيء، وشعرت أنا بقليل من الخوف.

أخذوا ينادون من أسفل؛ كان والدنا يصيح: كوزيمو! كوزيمو! ثم بعد أن اقتنع أن كوزيمو لن يجيبه، بدأ ينادي عليّ : بياجو، بياجو.

قلت بسرعة: سأذهب لأرى ما يريدون، ثم أعود سريعًا لأحكي لك. وأعترف أن عجلتي تلك في أن أعلم أخي بما يحدث كانت مختلطة برغبتي في أن أسرع وأفلت بفعلتي خوفًا من أن يمسكوا بي وأنا أتسامر معه على قمة التوتة، وأن أجد نفسي مجبرًا على أن أتقاسم معه العقاب الذي كان ينتظره بالتأكيد. ولكن يبدو أن كوزيمو لم يستطع قراءة بوادر النذالة تلك على وجهي فتركني أذهب، ولكن ليس من دون أن يعبر بتحريك كتفيه عن عدم مبالاته بما سيقوله له والدنا.

وعندما عدت كان لا يزال هناك، كان قد وجد مكانًا جيدًا ليجلس فوقه، فوق جذع تم تشذيبه، كان يضع ذقنه على ركبتيه، ويعقد ذراعيه حول ساقيه.

قلت وأنا أتسلق وألهث بشدة: مينو! مينو! لقد عفوا عنك! وينتظروننا! أعدوا وجبة خفيفة على المائدة، ووالدنا وأمنا جلسا بالفعل في انتظارنا، وسيضعون لكل منا جزءًا من التورتة في طبقه! توجد تورتة كريمة وشيكولاته لم تعدها باتيستا، هل تصدق؟ لا بد أن باتيستا أوصدت على نفسها باب حجرتها، لا بد أنها الآن محتقنة البشرة من الغضب! لقد ربتوا على رأسي وقالوا لي "اذهب إلى مينو المسكين، وقل له لنتصالح، وألا نتحدث عن هذا الموضوع بعد ذلك" بسرعة! هيا بنا!

كان كوزيمو يعض بأسنانه على ورقة شجر، ولم يتحرك ولكنه قال:

- دييجو! حاول أن تحصل لي على غطاء من دون أن يراك أحد وأحضره لي. لا بد ان الجو شديد البرودة هنا ليلاً.

- ولكنك لا تريد قضاء الليل فوق الأشجار!

لم يرد، كان يسند ذقنه إلى ركبتيه، ويمضغ ورقة الشجر وينظر قبالته. أخذت أتتبع نظراته، والتي انتهت مباشرة لتنظر إلى سور حديقة عائلة الأونداريفا، هناك حيث تظهر زهرة البيضاء للمانوليا، وهناك في أعلى كانت ترفرف طائرة من الورق.

وهكذا حل المساء، كان الخدم يروحون ويجيئون يجهزون مائدة الطعام؛ وفي الصالة كانت الشمعدانات مضاءة. ولعل كوزيمو كان يرى كل شيء، من فوق الشجرة، وهناك وقف البارون أرمينيو ينظر إلى الظلال خارج النافذة صائحًا.

ـ إذا أردت أن تمكث هناك أعلى الشجرة، ستموت جوعًا!

وفي ذلك المساء، ولأول مرة جلسنا على العشاء من دون كوزيمو؛ فقد كان يمتطي فرعًا عاليًا من فروع شجرة السنديان، في أحد الأركان، وهكذا كنا نرى فقط ساقية المتدليتين. وأقول كنا نرى، إذا نظرنا من النافذة ودققنا في الظلام، لأن الحجرة كانت مضيئة، وفي الخارج كان الظلام حالكًا. بل ان الفارس المحامي شعر بواجب أن يطل من النافذة ويقول شيئًا، ولكن -كما هي عادته - نجح في ألا يصدر أحكامًا حول هذا الموضوع فقال:

- أووه ه... الخشب قوي ومتين. عمرها نحو مائة عام. ثم قال بعض الكلمات بالتركية، ربما اسم الشجرة، وكأنه كان يتحدث عن الشجرة وليس عن أخي.

ولكن خان أختنا باتيستا شعورها تجاه أخينا كوزيمو، فلقد كانت تشعر بنوع من الغيرة، فهي التي اعتادت دائمًا أن تثير قلق العائلة بغرابتها، أما الآن فقد وجدت أن شخصًا آخر قد تجاوزها في هذا، وأخذت تقضم أظافرها (كانت تأكلها ولكن ليس بأن ترفع إصبعها تجاه فمها، بل وهي تخفضه، ويدها مقلوبة وكوعها مرفوع).

أما الجنرالة فقد تذكرت بعض جنود الاستطلاع الذين يقفون على الأشجار في أحد المعسكرات، لا أدري هل كان معسكر سلوفانيا أو بدميرانيا، وكيف استطاعوا بمراقبتهم الأعداء تجنب أي كمين. وفجأة أخذتها هذه الذكرى من حالتها الشاردة نتيجة قلق الأم إلى الجو العسكري

المفضل لديها، وصارت أكثر هدوءًا، بل فخورة، إذا أمكن القول، وكأنها نجحت أخيرًا في أن تبرر سلوك ابنها. لم يصغ إليها أحد، فقط الأب فوشيلافلور، والذي أخذ يقر بجدية القصة الحربية، والمقارنة التي تستنتجها أمي منها، وإذ إنه أراد أن يتشبث بأي موضوع حتى يجد أن ما يحدث حوله شيء طبيعي، ويزيل من رأسه ما به من شعور بالمسئولية وبالقلق.

كنا عادة نذهب للنوم مبكرًا بعد العشاء، ولم نغير ميعاد النوم حتى في هذه الليلة. فقد قرر والدانا ألا يهتما بكوزيمو حتى لا يمنحانه شعورًا بالرضا أكثر من ذلك، منتظرين أن يثني التعب وقلة الراحة، وبرد الليل من عزمه. وصعد كل منا إلى مقره. وفي واجهة المنزل كانت الشموع المنيرة تفتح أعينها الذهبية أمام التيارات الهوائية. يا للشعور بالحنين! يا للذكريات الدافئة التي يمكن أن تمنحها رؤية ذلك المنزل القريب لأخي كان يقضي ليلته في الخلاء! وقفت أطل من نافذة حجرتنا، واستطعت تمييز ظله المنكمش على نفسه في إحدى فجوات شجرة البلوط بين الفرع والجذع، والملفوف في الغطاء، والمربوط - على ما أعتقد - بأكثر من لفة بالحبل حتى لا يسقط أرضًا.

ظهر القمر متأخرًا، وتلألأ فوق الفروع. كانت طيور القرقف منكمشة هي أيضًا مثله في أعشاشها. وفي الليل، في الخلاء، كان يتخلل صمت الحديقة الكبيرة حفيف مئات الأصوات والضوضاء البعيدة، وكانت الرياح تهب. وكانت تصل إلى الأسماع أصوات أمواج البحر آتية من بعيد. أما أنا فمن النافذة كنت أصغي إلى هذا التنفس المتقطع، وكنت أحاول أن أتخيل أن من يقبع هناك على بُعد أمتار قليلة كان يسمع ذلك الصوت، بعيدًا عن الطنين العائلي للمنزل الواقع خلفه، ذلك التنفس، ولكنه كان مستسلمًا له والليل يلفه، والشيء الوحيد القريب الذي يحتضنه هو جذع شجرة لحاؤها خشن، تتخلله أنفاق دقيقة لا حصر لها تنام فيها اليرقات.

أويت إلى فراشي، ولكني لم أرغب في إطفاء الشمعة، ربما استطاع ضوء تلك الشمعة الخارج من نافذة حجرته أن يؤنسه في وحدته. كانت حجرتنا، بها سريران صغيران لصبية في مثل عمرنا. كنت أنظر إلى فراشه الذي لم يمسسه أحد، وإلى الظلام الحالك الذي يلفه في الخارج، وأخذت أتدثر بالأغطية شاعرًا - وربما للمرة الأولى - بسعادة من يجد نفسه عاريًا حافي القدمين بداخل فراش دافئ وأبيض، وكأنني كنت أشعر في الوقت نفسه ببؤسه وهو مربوط هناك في الغطاء الخشن، وساقاه ملفوفتان بغطاء الكاحل من دون أن يتمكن من أن يدور بجسمه، وعظامه متيبسة. لم يتركني هذا الشعور قط منذ تلك الليلة؛ الشعور بحسن حظ من لديه فراش وملاءات نظيفة، ووسادة ناعمة! بهذا الشعور توجهت كل أفكاري لمدة ساعات إلى الشخص الذي كان موضوع قلقنا، وعادت الأفكار لتنصبّ كلها عليّ، وهكذا غلبني النوم.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ ٤ ـ

لا أعرف هل ما ورد في الكتب من أنه في الأزمنة القديمة رحل قرد من روما قافزًا من شجرة إلي أخرى، واستطاع الوصول إلى إسبانيا من دون أن يلمس الأرض حقيقي أم لا. ولكن في زمني كانت المقاطعة الكثيفة الأشجار هي خليج أومبروزا بطوله، وواديها حتى قمم جبالها؛ ولذلك كانت منطقتنا مشهورة.

والآن، لم تعد تلك المناطق كما كانت، وبدأ ذلك حينما أتى الفرنسيون وبدءوا يقطعون الغابات وكأنها مراع يحصدونها كل عام ثم تنمو من جديد. ولكنها لم تنمُ مرة ثانية، وبدت شأنًا من شئون حرب نابليون في ذلك الزمان، ولكنه لم يتوقف؛ فلقد أصبحت ظهورها عارية، حتى إننا نحن الذين عرفناها من قبل، عندما كنا ننظر إليها كنا نتأثر كثيرًا.

آنذاك، حيثما كنا نذهب كنا نجد دائمًا حولنا فروعًا وأغصانًا بيننا وبين السماء. المنطقة الوحيدة ذات الأشجار الأقل ارتفاعًا كانت هي منطقة أشجار الليمون، ولكن حتى هناك في المنتصف كانت ترتفع أشجار التين الملتوية، والتي كانت تغطي سماء البساتين كلما اقترب الجبل بأوراقها الثقيلة، وإذا لم تكن أوراق التين كانت تظهر أوراق أشجار الكرز بفروعها

البنية، أو أشجار السفرجل الناعمة، أو الخوخ، أو اللوز، وأشجار الكمثرى الشابة، وأشجار البرقوق السخية، وأشجار الخروب، ذلك إن لم تكن هناك أشجار توت، أو شجرة جوز عتيقة. وبانتهاء البساتين تبدأ أشجار الزيتون بلونها الرمادي كالفضة، وكأنها سحابة نابعة من وسط الجبل. وعلى المدى كانت البلدة مكدسة بين الميناء في أسفل والصخرة في أعلى، وهناك أيضًا بين الأسطح كانت تبزغ فروع النباتات، وأشجار السنديان، والبلوط الأخضر، والدلب، وأيضًا البلوط الزهري. وكانت هناك نباتات أخرى بلا فائدة، تتغير ثم تتخذ لها مكانًا في المنطقة حيث بنى النبلاء الفيلات وأحاطوا حدائقها بالأسوار والأبواب الحديدية.

وفوق حقول الزيتون تبدأ الغابة. لا بد أن أشجار الصنوبر كانت تهيمن على القُطر كله؛ لأنه ما زالت آثارها من جذوع الأشجار، وبقاياها من آثار الغابة تصل إلى أسفل المنحدر وصولاً إلى شاطئ البحر نفسه، وهكذا أيضًا أشجار اللاركس. وكانت أشجار البلوط أكثر انتشارًا وكثافة مما تبدو عليه اليوم؛ لأنها كانت أولى وأقيم ضحايا الفئوس. وكلما اتجهنا إلى أعلى تركت أشجار البلوط مكانها لأشجار الكستناء، وكانت الغابة تصعد الجبل، ولم يكن لها حدود. كان هذا هو عالم الأشجار الذي نعيش نحن بداخله، دون أن ندرك ذلك.

ولكن أول من توقف بفكره أمام ذلك العالم كان كوزيمو. أدرك كوزيمو أنه نظرًا إلى كثافة النباتات، يمكنه أن يعبر من فرع إلى آخر، وينتقل بهذه الطريقة أميالاً عديدة، من دون الحاجة إلى أن يهبط أرضًا. أحيانًا كان جزء من الأرض العارية يجبره على أن يسلك دروبًا طويلة جدًا، ولكنه سرعان ما تدرب على كل البدائل الضرورية، وكان يقيس المسافات ليس بمقاييسنا؛ ولكنه كان يضع في حسبانه الطريق الملتوي الذي يجب أن يسلكه فوق الفروع، وأخذ يستخدم لذلك كل الوسائل المطلوبة لكي يتمكن بقفزة واحدة أن يصل إلى أقرب فرع، ولكنني سأشرح هذا فيما بعد. الآن

نحن ما زلنا في الفجر الذي استيقظ فيه فوجد نفسه على قمة شجرة بلوط، وبين صياح طيور الزرزور وبَلَل الندى البارد، وهو يشعر بالتجمد وعظامه متيبسة، ويشعر بالتنميل في قدميه وذراعيه، أخذ كوزيمو يكتشف - بسعادة- العالم الجديد.

وصل إلى آخر شجرة من أشجار البستاتين، وكانت شجرة دلب. وهناك كان الوادي يتدرج تحت سماء ملبدة بالضباب والدخان الذي يتصاعد من أسقف أردوازية لبيوت ريفية منعزلة مختبئة خلف السواحل الصخرية وكأنها أكوام من الحجر؛ سماء من الأوراق المرتفعة في الهواء، أوراق أشجار التين والكرز. وتحتها كانت أشجار البرقوق والخوخ تتفرع بفروعها الغليظة. كان كل شيء واضحًا، حتى العشب كان يمكن رؤيته ورقة ورقة، إلا لون الأرض؛ حيث كانت مغطاة بأوراق الفناء المتدلية، أو فسائل الخس، أو القرنبيط، وهكذا كانت الحال في طرفي الوادي الذي كان يتسع على شكل V وصولاً إلى البحر.

وكان يجرى في هذه الطبيعة وكأنه الأمواج. ولم يكن مرئيًا، أو مسموعًا -إلا من حين لآخر- ولكن ما كان يسمع كان يكفي ليسبب القلق: دوى صراخ حاد مفاجئ، ثم صوت سقوط، أو ربما أيضًا صوت كسر فرع، ثم صراخ مرة أخرى، ولكنها صرخات غاضبة هذه المرة، وكانت تتلاقى في المكان الذي جاءت منه الصرخات الحادة من قبل. ثم لا شيء، كنا نشعر باقتراب شيء ما يجب علينا انتظاره، ليس في هذه الناحية وإنما في جهة أخرى من الوادي. بالفعل تتكرر الضوضاء والأصوات نفسها، وكان من المحتمل أن تكون مصدر تلك الأصوات، القادمة من هنا وهناك، يأتي دومًا من حيث تحرك الرياح أوراق أشجار الكرز الصغيرة المسننة. ولذلك فلقد كوّن كوزيمو بالجزء الشارد من ذهنه ـ بينما كان يفهم ويدرك كل شيء مقدمًا بالجزء الآخر-تلك الفكرة: أن أشجار الكرز تتكلم.

وكان كوزيمو يتجه إلى أقرب شجرة إليه، بل إلى صف من أشجار الكرز العالية المورقة بلونها الأخضر المليئة بالكرز الأسود. ولم تكن عينا أخي

معتادتين بعد على أن تميز بين الموجود من الفروع وبين غير الموجود. بقي هنالك. في البداية كان يسمع ضوضاء، أما الآن فلا شيء. كان يجلس على أكثر الفروع انخفاضًا، وكان يشعر وكأن كل فروع الكرز التي فوقه تجثم فوقه، ولم يكن يعرف أي تفسير لذلك، بدت جميعها وكأنها تتلاقى عنده، وكان يبدو كشجرة بها عيون بدلاً من الكرز. رفع كوزيمو وجهه، وعندئذ سقطت ثمرة كريز ناضجة جدًا فوق جبهته. حدق بعينيه لينظر إلى أعلى تجاه السماء (وكانت الشمس تبدأ في الصعود)، فرأى أن هذه الشجرة والأشجار المجاورة تمتلئ بالأولاد المختبئين بين فروعها.

ما إن أدركوا رؤيته لهم حتى تخلوا عن صمتهم، وبأصوات حادة، مع أنها مكتومة، كانوا يقولون عبارات مثل: انظروا إليه هناك. كم هو جميل. وأبعدوا الأوراق التي كانت أمامهم، ونزل كل منهم من الفرع الأعلى إلى الفرع الأسفل تجاه الصبي ذي القبعة الثلاثية القرون. كانوا عراة الرءوس وكان بعضهم يرتدي قبعات قش مهترئة، وبعضهم الآخر يغطي رأسه بأكياس. كانوا يرتدون سراويل وقمصانًا ممزقة. أما عن أقدامهم فمن لم يكن عاري القدمين كان يرتدي قماطًا من القماش، وبعضهم كان يحمل قبقابه حول رقبته، إذ خلعوها ليتمكنوا من التسلق. لقد كانوا عصابة الصبية الكبيرة الذين يسرقون الفاكهة، والذين كنت أنا وكوزيمو نبتعد عنهم دائمًا، إطاعة لأوامر العائلة. ولكن في ذلك الصباح لم يكن يبدو أن أخي يبحث عن غيرهم مع أنه هو شخصياً لم يكن يعرف ماذا يريد.

مكث في مكانه ساكنًا ينتظرهم، بينما كانوا يهبطون ويشيرون إليه، ويطلقون عليه عبارات ينطقونها بأصوات فجة مثل: ما الذي يوجد هنا ويبحث عنه هذا الشخص؟ وأخذوا يبصقون على وجهه بنواة الكرز، أو يقذفونه بالفاسد منها، أو الذي تعرض لنقر طائر الشحرور، وذلك بعد أن يجعلوها تدور في الهواء على فروعها بحركة تشبه حركة ضارب المقلاع.

وبمجرد أن رأوا سيفه المعلق وراء ظهره صرخوا جميعًا يا ه ه ه.. هل رأيتم ماذا لديه؟ إنه خنجر! ثم تعالت الضحكات.

فجأة التزموا الصمت وكتموا الضحكات، لأنه كان هناك شيء ما على وشك الحدوث سيسليهم بشدة، فلقد صعد اثنان من أولئك الأوغاد الصغار، وتسللا في صمت إلى الفرع الموجود مباشرة أعلى كوزيمو، ودليا منه جوالاً مفتوحًا فوق رأسه مباشرة (تلك الأجولة القذرة التي كانوا يستخدمونها بالتأكيد ليضعوا فيها غنائمهم، وعندما تكون فارغة يضعونها فوق رءوسهم وكأنها طراطير تتدلى على أكتافهم). كان أخي سيجد نفسه بعد برهة وقد غطى الجوال وجهه دون أن يدرك كيف. وكان يمكنهم أن يربطوه بعد ذلك كشيء لا حيلة له، ويوسعوه ضربًا.

أدرك كوزيمو الخطر، أو ربما لم يدرك أي شيء، ربما شعر أنهم يسخرون منه بسبب سيفه الصغير فأراد أن يستله ردًا لكرامته، ورفعه إلى أعلى، فلمس نصله الجوال فرآه، وبحركة بارعة انتزعه من يد اللصين الصغيرين وقذفه بعيدًا.

كانت حركة بارعة، صاح بعدها الآخرون: " آه ه!"، صيحة إحباط وإعجاب في آن واحد. ونظروا إلى رفيقيهما اللذين فقدا الجوال من بين أيديهما وأغرقوهما بوابل من السباب بلهجاتهم الخاصة.

ولم يكن لدى كوزيمو متسع من الوقت ليحتفي بنجاحه. ففي هذه اللحظة انطلق غضب مضاد من الأرض، انطلقت أصوات النباح، وأخذت الحجارة تنهال عليهم، وانطلق الصراخ: هذه المرة لن تهربوا منا أيها اللصوص الأنذال!، وارتفعت أطراف الخطافات في الهواء. قبع اللصوص الصغار على فروع الشجرة، وأخذوا يرفعون أقدامهم ومرافقهم. نبهت الضوضاء التي كانت حول كوزيمو المزارعين الذين كانوا يقفون في حالة من التأهب والاستعداد.

كان الهجوم معدًا بكل القوى، فلقد اتحد كثير من الملاك الصغار ومستأجري الأراضي الزراعية في الوادي بعد أن أنهكتهم سرقة فاكهتهم بمجرد نضجها، فقد كانت إستراتيجية سارقي الفاكهة هي أن ينقضوا معا على الحديقة نفسها، فينهبوها، ثم يهربوا جميعًا من الجهة الأخرى، ليبدءوا من جديد. ولم تكن هناك وسيلة للوقوف أمام هذا الأسلوب سوى أن يجتمعوا جميعًا في بستان متوقع أن يقتحمه اللصوص في وقت قريب، وأن يقبضوا عليهم في وسطه. بعد أن تحررت الكلاب من كماماتها، وأخذت تنبح وهي تقفز عند جذوع أشجار الكرز بأفواهها المليئة بالأسنان الحادة، وخطافات التبن ترتفع إلى الهواء. وبمجرد أن قفز ثلاثة أو أربعة من اللصوص الصغار إلى الأرض أخذت أسنان خطافات التبن الثلاثية تنخز ظهورهم، وطالت أسنان الكلاب سراويلهم، فأخذوا يجرون بعيدًا وهم يصرخون ويقتحمون برءوسهم حقول الكرم هاربين. وهكذا لم يجرؤ أحد على النزول، مكثوا في أماكنهم على فروع الأشجار ومعهم كوزيمو، وبدأ المزارعون يضعون السلالم بالفعل على الأشجار، ويصعدون شاهرين خطافاتهم بأسنانها الحادة.

استغرق الأمر دقائق قبل أن يدرك كوزيمو أنه لا معنى لأن يصاب هو بالفزع بسبب إصابة أفراد عصابة المتشردين بالخوف، كما أن فكرة أن هؤلاء الصبية أمهر منه هي أيضًا فكرة لا معنى لها، والدليل على ذلك أنهم مكثوا في أماكنهم مبهوتين. ماذا ينتظرون لكي يهربوا إلى الأشجار المجاورة؟ لقد وصل أخي إلى حيث هو بهذه الطريقة، ويمكنه أن يرحل بالطريقة نفسها؛ وضع قبعته الثلاثية على رأسه، وبحث عن الفرع الذي استخدمه كجسر، وعبر من شجرة الكرز إلى شجرة خروب، وتعلق بأحد فروع شجرة الخروب، ونزل إلى شجرة برقوق، وهكذا. أما هم، فبمجرد أن رأوه يسير فوق تلك الفروع وكأنه يسير في أحد الميادين أدركوا أن عليهم أن يتبعوه فورًا وإلا فمن يدر كم سيتألمون قبل أن يعثروا على طريق للنجاة؛

فتبعوه في صمت، زحفًا في ذلك الطريق المتعرج. أما هو، فأخذ يتسلق شجرة تين وعبر سياج الحقل، وقفز فوق شجرة خوخ، وكانت فروعها لينة طرية فلا يستطيع أن يعبر فوقها إلا واحد فقط في المرة. كانت شجرة الخوخ تستخدم فقط ليتعلق على جذع شجرة زيتون المعوج، والذي يظهر من أحد الأسوار. وبقفزة واحدة من فوق شجرة الزيتون كان فوق شجرة بلوط، والتي كانت تمد أحد فروعها القوية لتعبر مجرى مائيًا، ومن هناك كان يمكن العبور إلى أشجار الناحية الأخرى.

أما الرجال الممسكون بالخطافات، والذين كانوا يعتقدون أنهم قد أوقعوا بلصوص الفاكهة بين أيديهم، فرأوهم يهربون في الهواء كالطيور. أخذوا يطاردونهم وهم يجرون مع الكلاب التي تنبح، ولكن كان عليهم أن يدوروا حول السياج، ثم حول السور، ثم إنه عند تلك النقطة من مجرى المياه لم تكن هناك جسور، ولكي يجدوا معبرًا أضاعوا الوقت، وكان المتشردون قد هربوا بعيدًا بالفعل.

كانوا يجرون وأقدامهم على الأرض، وبقي أخي على فروع الأشجار وحده، وأخذوا يتساءلون، عندما لم يروه أمامهم: أين ذلك الطائر ذو الجراميق. رفعوا أنظارهم إلى أعلى، فكان هناك يتنقل بين أشجار الزيتون. قالوا له : هيه، اهبط إلى هنا، لن يستطيعوا الإمساك بنا الآن! لكنه لم يهبط، كان يقفز من فرع إلى آخر، ومن شجرة زيتون إلى أخرى، واختفى عن الأنظار بين الأوراق الفضية الكثيفة.

كان فريق الصغار المتشردين بأجولتهم التي يلبسونها كالطرطور وفي أيديهم العصي يسرقون بعض أشجار الكرز في نهاية الوادي. كانوا يعملون تبعًا لمنهج معين، فقد كانوا يجردون فرعًا فرعًا، وعندئذ، وعلى قمة أعلى الأشجار رأوا الصبي ذا الجراميق جاثمًا بساقيه المعقودتين يفرّق بإصبعيه ثمار الكرز، ثم يضعها في قبعته الثلاثية المستندة إلى ركبتيه، فسألوه بغطرسة:

- من أين أتيت؟

ولكنهم اغتاظوا لأنه كان يبدو وكأنه وصل إلى هناك طائرًا.

كان أخي يأخذ الكرز واحدة تلو الأخرى من قبعته الثلاثية، وكان يضعها في فمه وكأنها حلوى، ثم كان يبصق بعيدًا نواة الكرز بنفخة من بين شفتيه، منتبهًا ألا تلطخ صداره.

قال أحدهم: آكل الآيس كريم هذا، ماذا يريد منا؟ لماذا يلاحقنا؟ لماذا لا يأكل الكرز الموجود في حديقته؟ ولكنهم كانوا يشعرون ببعض الخجل، لأنهم كانوا قد أدركوا أنه أمهر منهم فوق الأشجار.

قال آخر: إن من بين آكلي الآيس كريم، يولد خطأ من حين إلى آخر واحد أبرع من غيره. فلتتذكروا سينفوروزا.

أنصت كوزيمو باهتمام إلى هذا الاسم الغامض، ولم يعرف لماذا احمر وجهه.

قال آخر: لقد خانتنا سينفوروزا.

- ولكنها كانت غاية في المهارة، مع أنها آكلة آيس كريم مثله. لو أنها كانت موجودة لتنفخ في البوق هذا الصباح لما أمسكوا بنا.

- يمكن أن يبقى معنا أحد آكلي الآيس كريم، وهذا مفهوم، إذا أراد أن يصبح واحدًا منا!

أدرك كوزيمو أن آكلي الآيس كريم هم ساكنو الفيلات، أو النبلاء، أو إنسان في مرتبة عالية.

قال له أحدهم: اسمع أنت، الشروط واضحة؛ إذا أردت أن تكون معنا، ستشاركنا في ضرباتنا، وتعلمنا كل الطرق التي تعرفها.

وقال آخر: وتتركنا ندخل حديقة فواكه أبيك! لقد قذفوني بالملح في إحدى المرات!

كان كوزيمو يستمع إليهم، ولكنه كان غارقًا في فكرة أخرى، ثم قال: ولكن قولوا لي، من هي سينفوروزا؟

عندئذ انفجر كل أولئك المتشردين المتفرقين بين الفروع في الضحك، وأخذوا يضحكون حتى كاد أن يسقط بعض منهم من فوق شجرة الكرز، وبعضهم كان يلقي بنفسه إلى الخلف ممسكًا بفرع الشجرة بقدميه، ومنهم من بقي معلقًا وهو ممسك به بيديه، وهو يقهقه ويصرخ. وبالطبع فإنه بسبب تلك الضوضاء وجدوا مطارديهم في أعقابهم من جديد. بل لا بد أنهم كانوا قد وصلوا بالفعل: فريق المطاردين ومعهم الكلاب، لأن أصوات النباح ارتفعت مرة أخرى، وها هم جميعًا كل بمذراته. إلا أنهم في هذه المرة، بعد أن اختبروا تحركاتهم السابقة، كان أول شيء قاموا به هو احتلال كل الأشجار حولهم، وذلك بأن صعدوا إليها بالسلالم، ومن هناك ومعهم مذراتهم وكلاليبهم، أحاطوا بهم، أما على الأرض فلم تعرف الكلاب توًا، لانتشار الرجال بين الأشجار إلى أين تتجه، فمكثت مشتتة، بعض الوقت، تنبح وأنوفها في الهواء. وهكذا استطاع اللصوص الصغار أن يلقوا بأنفسهم سريعًا على الأرض، وأخذ كل منهم يجري في اتجاه وسط الكلاب المرتبكة. وإذا كان بعضهم قد أصيب بعضة في مؤخرته، أو بضربة عصا، أو بحجر، إلا أن أكثرهم استطاعوا إخلاء الساحة سالمين.

ومكث كوزيمو فوق الشجرة، وأخذ الآخرون يصرخون فيه وهم يفرون طلبًا للنجاة: انزل! ماذا تفعل؟ هل تنام؟ اقفز على الأرض ما دام الطريق خاليًا! أما هو، وقد ضم بركبتيه فرع الشجرة، فقد استل سيفه. وبدأ المزارعون على الأشجار المجاورة يتقدمون بمذراتهم المربوطة في قمم العصي ليصلوا إليه، وكوزيمو يبعدها عنه بضربات سيفه، حتى سددوا واحدة منها إلى صدره وثبتوه في جذع الشجرة.

صرخ صوت: توقف! إنه بارون بيوفاسكو الصغير! ماذا تفعل يا سيدي الصغير، هنا في أعلى؟ وكيف تختلط بأولئك المتشردين؟

تعرّف كوزيمو إلى جوديللا فارسكا، أحد عمال والدنا.

ابتعدت مذرات المزارعين على الفور، رفع كثيرون من الفريق قبعاتهم الجلدية، وأخي نفسه رفع قبعته الثلاثية القرون عن رأسه وانحنى لهم.

وصاح أولئك: هيه! أنتم في أسفل، قيدوا الكلاب! أنزلوه! يمكنك أن تنزل يا سيدي الصغير، ولكن احترس، فالشجرة عالية! انتظر، سنضع لك سلمًا! ثم سأصحب سيادتك بنفسي إلى المنزل!

قال أخي: لا، شكرًا شكرًا، لا تزعجوا أنفسكم، أنا أعرف طريقي! أعرف طريقي وحدي!

اختفى خلف الجذع، وظهر فوق على فرع آخر، ثم دار مرة أخرى خلف الجذع، وظهر فوق فرع أعلى، ثم اختفى وراء الجذع وظهرت فقط قدماه على فرع أعلى، فقد كانت الأغصان كثيفة هناك، اختفت القدمان، ولم يروا شيئًا بعد ذلك.

تساءل الرجال: أين ذهب؟ ولم يعرفوا أين ينظروا: إلى أعلى أم إلى أسفل.

- ها هو! كان على قمة شجرة أخرى بعيدة، ثم اختفى من جديد.

- ها هو! كان على قمة شجرة أخرى أيضًا، ويتأرجح وكأن الرياح تحمله، ثم قفز.

- لقد وقع، لا، إنه هناك! وكانت تظهر مع تمايل أوراق قمة الشجرة الخضراء قبعته الثلاثية وضفيرته.

سأل الآخرون جواديللا فاسكا: ولكن من سيدك هذا؟ أهو أنسان أم حيوان بري؟ أم أنه الشيطان نفسه؟

مكث جواديللا فاسكا صامتًا، ورسم علامة الصليب.

وسمعوا غناء كوزيمو، ولكنه كان كنوع من الصياح الملحن.

- آوه......! سينفوروزا!

ـ ٥ ـ

سينفوروزا: رويدًا رويدًا، عرف كوزيمو من أحاديث اللصوص الصغار، كثيرًا عن هذه الشخصية. فهذا الاسم كانوا يطلقونه على فتاة من قاطني الفيلات، تتجول وهى تمتطي حصانًا صغيرًا أبيض اللون، وكانت قد عقدت صداقة مع هؤلاء المتشردين، ولفترة من الوقت كانت تحميهم، وبسبب قوة شخصيتها استطاعت أيضًا قيادتهم. كانت تجري على حصانها الأبيض في الطرق والدروب، وعندما كانت ترى فاكهة ناضجة في حدائق لا يحرسها أحد كانت تبلغهم، وتصحبهم في هجماتهم من فوق صهوة جوادها وكأنها ضابط. وكانت تحمل حول رقبتها بوق الصيد. وبينما كانوا ينهبون ثمار اللوز أو الكمثرى، كانت تجري بحصانها هنا وهناك على حدود المنطقة، وبمجرد أن تشعر بأية حركة مريبة من أصحاب الأرض أو الفلاحين قد يكشفون من خلالها اللصوص وينقضون عليهم؛ تبدأ في النفخ في البوق. وعند سماعهم هذا الصوت كان المتشردون يقفزون من فوق الأشجار ويفرون بعيدًا؛ وهكذا لم يستطع أحد مفاجأتهم قط، ما دامت تلك الفتاة معهم.

ما حدث بعد ذلك كان أصعب على الفهم: تلك "الخيانة" التي ارتكبتها سينفوروزا ضدهم، إذ يبدو أنها اجتذبتهم إلى فيلتها ليأكلوا الفاكهة، ثم

جعلت الخدم يوسعونهم ضربًا؛ وربما لأنها على ما يبدو - كانت قد اختارت من بينهم صبيًا يدعى بيل لوري، ولهذا السبب ما زالوا يسخرون منه، وفي الوقت نفسه توددت إلى صبي آخر يدعى أوجاسو، ثم دبرت للوقيعة بينهما، وأن الضرب الذي ذاقوه من خدمها لم يكن بسبب سرقة الفاكهة، ولكنها كانت حملة قام بها الغيورون، وذلك بعد أن تحالفا ضدها. وكانوا يتحدثون أيضًا عن فطائر وعدتهم بها أكثر من مرة، ثم أحضرتها لهم، ولكنها تّبلتها بزيت الخروع، ولذلك أخذوا يتلوون من آلام بطونهم لمدة أسبوع. وبعض هذه الأحداث، أو أحداث شبيهة، أو ربما هذه الأحداث مجتمعة، قد أدت إلى تلك القطيعة بين سينفوروزا والعصابة، وهم الآن يتحدثون عنها بغضب، ولكن - في الوقت نفسه - بنوع من الحسرة.

كان كوزيمو ينصت إلى كل هذه الأشياء مصدقًا، وكأن كل تفاصيل يقولونها تكوّن صورة معروفة لديه، وفي النهاية قرر أن يسأل: ولكن في أى فيللا تسكن تلك سينفوروزا هذه؟

ـ كيف هذا، هل تريد أن تقول إنك لا تعرفها؟ إنكما جاران! إن سينفوروزا تسكن في فيلا أونداريفا؟!

بالتأكيد لم يكن كوزيمو بحاجة إلى هذا التأكيد ليوقن أن صديقة المتشردين هي فيولا، فتاة الأرجوحة. واعتقد أن سبب بحثه عن العصابة هو لأنها قالت له إنها تعرف كل لصوص الفاكهة الموجودين في الجوار. إلا أنه منذ تلك اللحظة أصبحت تلك هي الحمى التي تحركه، ومع أنها غير محددة، أصبحت أكثر حدة. فحينًا كان يرغب في أن يقود العصابة لتسرق الفاكهة من أشجار فيلا أونداريفا، وفي حين آخر يرغب في أن يضع نفسه في خدمتها ضدهم، بعد أن يحثهم في البداية على مضايقتها ليذهب بعد هذا للدفاع عنها، وفي حين آخر في أن يقوم بأعمال بطولية لتصل أخبارها بصورة غير مباشرة إلى أسماعها. ووسط كل هذه الأهداف كان يتبع العصابة بالتصاق أكثر، وعندما كانوا ينزلون من الأشجار كان يمكث

هو وحيدًا، وتغطي وجهه مسحة من الحزن، كالسحاب الذي يمر ويغطي وجه الشمس.

ثم كان ينهض فجأة وبسرعة وكأنه القط يتسلق الفروع، ويعبر على أشجار الفاكهة والحدائق، وهو يغمغم ويتغنى، بماذا، لا أدري. كان غناؤه غناءً عصبيًا، صامتًا تقريبًا، وعيناه مركزتان إلى الأمام وكأنهما لا تريان شيئًا وكان هو يحافظ على توازنه بالغريزة تمامًا كالقطط.

في هذه الحالة من الثورة رأيناه مرات عدة، يعبر على فروع أشجار حديقتنا فكنا ننفجر صارخين: إنه هناك، هناك! لأننا مع كل محاولاتنا لأن نفعل شيئًا كان لا يزال هو مركز تفكيرنا، وكنا نحصي الساعات والأيام التي مكث فيها فوق الأشجار، وكان أبي يقول:

- إنه مجنون! لا بد أن به روحًا شريرة! ثم يصب غضبه على الأب فوشيلافلور: لم يبق سوى إخراج الأرواح الشريرة! ماذا تنتظر أنت إذن، إنني أتحدث إليك أنت أيها الأب الكاهن، لماذا تقف مكتوف الأيدي؟ لقد لبس الشيطان جسد ابني، هل تفهم؟ ليكن اسم الله مقدسًا!

وكان الأب الكاهن ينتفض فجأة، فقد كانت كلمة "الشيطان" توقظ في ذهنه، على ما يبدو، سلسلة معينة من الأفكار، وعندئذ يبدأ خطابًا لاهوتيًا معقدًا جدًا حول المفهوم السليم لوجود الشيطان، ولم يكن من الواضح إذا كان يريد معارضة أبي، أو أنه يتحدث فقط حديثًا عامًا. وعلى كل حال، لم يبد رأيًا حول إمكان وجود علاقة بين الشيطان وأخي، أم أنها أمر مستبعد نهائيًا.

كان البارون يفقد صبره، والأب الكاهن يفقد خيط أفكاره، وكنت أنا أشعر بالملل. أما حالة القلق لدى أمنا فقد تحولت من شعور متدفق يهدد كل شيء إلى قرارات عملية وإلى البحث عن أدوات مناسبة، وهو ما كان يحدث لها بعد برهة من الوقت مع كل شعور من مشاعرها، تمامًا مثلما

يحدث مع هموم القائد العسكري. أخرجت منظارًا طويلاً له قاعدة ثلاثية القوائم؛ وكانت تضع عليه عينيها، وهكذا كانت تقضي الساعات في شرفة الفيلا، وهي تضبط بانتظام وضع العدسات لترصد حركة الفتى وسط أوراق الأشجار، حتى وإن كنا نقسم لها أحيانًا أنه خارج مجال الرؤية.

كان والدنا يسألها وهو يذهب ويجيء تحت الأشجار، ولا ينجح في أن يلمح كوزيمو، إلا إذا كان يقف فوق رأسه تمامًا.

- هل ما زلت ترينه؟

كانت الجنرالة تشير إليه بنعم، ثم تشير في الوقت نفسه بالتزام الصمت وألا نزعجها، وكأنها تتابع تحركات قوات عسكرية فوق أحد المرتفعات. وكان واضحًا أنها لا تراه أحيانًا، ولكنها كانت قد أقنعت نفسها، من يدرِ لماذا، بأنه يجب أن يظهر في مكان بعينه، وليس في مكان آخر، ونحوه كانت توجه منظارها المكبر. ولكنها من حين إلى آخر، بينها وبين نفسها، كانت تعترف بأنها أخطأت، عندئذ كانت ترفع عينيها عن العدسة، وتبدأ في فحص خريطة خاصة بمساحة الأراضي تضعها مفتوحة على ركبتيها، وإحدى يديها فوق فمها منهمكة في التفكير، والأخرى تتبع رموز الخريطة الغريبة. بمجرد أن تحدد المكان الذي يجب أن يكون ابنها قد وصل إليه، وبمجرد أن تحسب الزوايا، كانت تسدد المنظار المكبر تجاه أية قمة شجرة في وسط هذا البحر من الأوراق، ثم تبدأ في ضبط العدسات، وبمجرد أن تظهر على شفتيها تلك الابتسامة المرتعشة ندرك على الفور أنها قد رأته، وأنه هناك بالفعل!

عندئذ كانت تمسك في يدها ببعض الأعلام الملونة التي كانت تضعها بجوار الكرسي الخشبي، ثم تبدأ في التلويح بأحدها ثم بالآخر بحركات حاسمة، إيقاعية، وكأنها ترسل رسائل بلغة متفق عليها. (وشعرت أنا بغصة لأنني لم أكن أعرف أن أمنا تملك تلك الأعلام الصغيرة وتعرف كيفية استخدامها، فمن المؤكد لو علمتنا اللعب معها بتلك الأعلام لكان

ذلك شيئًا جميلاً وخاصة قبل ما حدث - عندما كنا نحن الاثنين أصغر سنًا؛ ولكن أمنا لم تكن تفعل أي شيء بغرض اللعب، والآن لم يعد هناك أمل في ذلك قط).

يجب أن أقول إنه على الرغم من كل معدات الحرب التي لديها، فإنها كانت أمًا يعتصر الألم قلبها، تكور المنديل في يدها، ولكن قد يمكن القول إن دور الجنرالة كان يريحها، وإن اختيارها أن تعيش هذا الموقف المخيف وهي ترتدي شخصية الجنرالة بدلاً من أن تستمر كأم عادية كان يجنبها الشعور بالتمزق، وذلك لأنها كانت امرأة غاية في الرقة، وكان الأسلوب العسكري الذي ورثته عن أسرة فون كورتيفيتز هو وسيلة الدفاع الوحيدة لديها.

كانت هناك تحرك أحد تلك الأعلام الملونة وهي تنظر بمنظارها المكبر، وإذ بوجهها يضيء وتضحك، وفهمنا أن كوزيمو قد أجابها. كيف؟ لا أعرف، ربما لوّح لها بقبعته، أو هزّ فرع شجرة. من المؤكد أن أمنا قد تغيرت منذ تلك اللحظة، ولم تعد تشعر بالفزع الذي كانت تشعر به في البداية، وإذا كان قدرها كأم كان مختلفًا عن قدر أي أم أخرى بسبب غرابة ابنها، وبسبب فقدانه للعواطف المعتادة إلا أنها استطاعت أن تكون أول من يقبل غرابة كوزيمو، وكأنها كانت قانعة بتلك التحيات غير المتوقعة التي من الآن فصاعدًا، ومن حين إلى آخر، سيرسلها إليها، وتلك الرسائل الصامتة التي سيتبادلانها.

والشيء الغريب أن أمنا لم تتوهم قط أن كوزيمو بإرساله التحية له يعد نفسه لأن يضع حدًا لهروبه، وليعود مرة أخرى بيننا. ولكن والدنا كان يعيش دائمًا في ذلك الوهم، وأي خبر جديد يتعلق بكوزيمو كان يجعله يعلن: آه. نعم؟ هل رأيتم؟ سيعود ولكن أمنا، ربما لأنها مختلفة عنه تمامًا، كانت تبدو الوحيدة المستعدة لقبول كوزيمو على ما هو عليه، ربما لأنها لم تحاول أن تجد تفسيرًا لهذا الموقف.

لنعد إلى ذلك اليوم. خلف أمنا كانت تقف للحظة أيضًا باتيستا، التي لم تكن تطل قط، وبطريقة لطيفة كانت تمد طبقًا به نوع من الحساء وترفع ملعقة: كوزيمو. أتريد؟ فنالت على ذلك صفعة من والدها وعادت إلى المنزل. من يدرِ أي نوع من القاذورات كانت قد أعدت. وكان أخونا قد اختفى.

وكنت أشعر برغبة جنونية لأن أتبعه، وخاصة الآن وقد عرفت أنه يشارك في مغامرات تلك العصابة من اللصوص الصغار، وكان يبدو لي وكأنه قد فتح أمامي أبواب مملكة جديدة، ولكني أنظر إليها، لا بالخوف المتشكك كذي قبل، ولكن بحماس تضامني. كنت أتخذ مسارًا مكوكيًا بين سطح المنزل ومبنى عالٍ فوقه، ومنه كنت أستطيع أن أجول بناظري فوق أغصان الأشجار، ومن هناك كنت أستعين بحاسة السمع أكثر من النظر، وأتابع صخب العصابة وسط البساتين، وأرى قمم أشجار الكرز وهي تتحرك. ومن حين إلى آخر كانت تظهر يد تتحسس وتقطف الثمار، أو رأس أشعث الشعر أو يغطيه جوال. وبين تلك الأصوات كنت أسمع أيضًا صوت كوزيمو، فأتساءل: "ولكن كيف يستطيع أن يكون هناك؟ لقد كان هنا في الحديقة منذ فترة وجيزة! هل أصبح يتحرك فوق الأشجار أسرع من السنجاب؟".

وأتذكر أنهم كانوا فوق أشجار البرقوق الأحمر فوق الحوض الكبير عندما سمعوا صوت البوق. وسمعته أنا أيضًا، ولكنني لم أنتبه له، فلم أكن أعرف كنهه. وأما رد فعلهم هم! فقد قص عليّ أخي أن الدهشة قد عقدت ألسنتهم، ومن فرط مفاجأة استماعهم لصوت البوق يبدو وكأنهم لم يتذكروا أنه كان إشارة إنذار، ولكنهم أخذوا يتساءلون فقط فيما بينهم هل سمعوا ذلك جيدًا، وهل هي سينفوروزا من جديد تتجول في المدقات بحصانها القزم لتحذرهم من الخطر. وفي لحظة واحدة هربوا من بستان الفاكهة، ولكنهم لم يهربوا ليبتعدوا خوفًا؛ ولكن بحثًا عنها، ووصولاً إليها.

لم يبق سوى كوزيمو هناك ووجهه أحمر كشعلة النار، ولكن بمجرد أن رأى المتشردين يجرون وأدرك أنهم ذهبوا ليبحثوا عنها؛ أخذ يقفز فوق الأغصان مخاطرًا بأن يدق عنقه مع كل خطوة.

كانت فيولا تقف عند منعطف أحد الطرق الصاعدة، ممسكة في إحدى يديها باللجام مستندة إلى شعر الحصان، والأخرى كانت ترفع بها السوط الصغير إلى أعلى. كانت تنظر من أسفل إلى أعلى إلى هؤلاء الصبية، وتضع طرف السوط في فمها وتعضه. كان ثوبها أزرق اللون، وكان البوق الذهبي اللون معلقًا في رقبتها بسلسلة. توقف الصبية جميعًا أخذوا هم أيضًا يقضمون إما البرقوق وإما أصابعهم، وإما إصابات كانت بأيديهم أو بأذرعهم، أو يقضمون أطراف الأجولة. ورويدًا رويدًا، ومن أفواههم القاضمة تلك، وكأنهم مجبرون على فعل شيء ليتغلبوا على استياء ما، وليس بدافع شعور حقيقي منهم، وكأنهم يتمنون أن يعارضهم أحد، بدءوا في النطق بصوت خافت؛ وكانت العبارات تبدو وكأنها ملحنة، وكأنهم يحاولون غناءها: ماذا أتيت. لتفعلي. يا سينفوروزا. أتعودين الآن. لم تعودي صديقتنا. ها ها ها. أيتها الجبانة.

أخذت الفروع تتحرك، ثم ها هو رأس كوزيمو يظهر من فوق شجرة تين عالية، بين ورقة وأخرى وهو يلهث. أما هي، فقد أخذت تنظر إليه وإليهم من أسفل إلى أعلى وذلك السوط في فمها، وهي تغطي الجميع بالنظرات نفسها. لم يتحمل كوزيمو، وانفجر قائلاً وهو ما زال لسانه خارجًا من فمه:

- أتعرفين أنني لم أنزل من فوق الأشجار من وقتها؟!

إن المغامرات القائمة على قوة داخلية يجب أن تظل غامضة وفي طي الكتمان؛ وبمجرد أن يعلن عنها أحد، أو أن يتباهى بها، يبدو كل شيء تافهًا، لا معنى له، بل ويفقد قيمته. هكذا، بمجرد أن تلفظ أخي تلك الكلمات، شعر أنه لم يكن يرغب في قول ذلك ألبتة، وأنه لم يعد يهمه شيء من أي شيء، بل شعر أيضًا بالرغبة في أن يهبط من فوق الأشجار

وينهي الأمر برمته، وبالأخص عندما نزعت فيولا السوط ببطء من فمها وقالت بنبرة رقيقة:

- آه. أهو كذلك؟ يا لك من مكار شاطر!

وهكذا بدأت الضحكات تتصاعد من أفواه الصبية القذرين، وذلك ليفتحوا بعد ذلك أفواههم أكثر، وينفجروا في صرخات تقطع الأنفاس، ومن هناك فوق شجرة التين قفز كوزيمو قفزة قوية غاضبة إلى درجة أن غصن التين ـ لأنه خشب خائن ـ لم يصمد، وانكسر الفرع تحت قدميه، وسقط كوزيمو كحجر. سقط مفتوح الذراعين، ولم يتماسك، كانت هذه ـ في الحقيقة - المرة الوحيدة أثناء إقامته بين أشجار تلك الأراضي التي لم تكن لديه الرغبة ولا الفطرة ليمسك بشيء. إلا أن طرف ذيل بذلته تعلق في فرع منخفض؛ فوجد كوزيمو نفسه معلقًا ورأسه إلى أسفل على بعد أربعة أشبار من الأرض.

كان يبدو له أن الدم في رأسه تدفعه حمرة الخجل نفسها، وكانت أول فكرة واتته وهو يفتح عينيه في وضعهما المعكوس ويرى الصبية الصارخين في وضع مقلوب، وقد اجتاحتهم ثورة القفز والدوران في الهواء، حيث كانوا يظهرون واحدًا واحدًا بشكله المعتدل وكأنهم معلقون على أرض مقلوبة فوق الهاوية، والصبية الشقراء تطير على حصانها الصغير المنطلق، كانت الفكرة الوحيدة التي واتته هي أنها المرة الأولى التي تحدث فيها عن بقائه فوق الأشجار، وأنها ستكون أيضًا المرة الأخيرة.

وبإحدى وثباته تعلق بالفرع وصعد عليه وجلس مدليًا ساقيه. أما فيولا، فبعد أن أعادت الحصان إلى هدوئه، كانت تبدو وكأنها لم تكن تعير اهتمامًا لأي شيء مما حدث. نسيَ كوزيمو للحظة خجله، وضعت الفتاة البوق بين شفتيها وأطلقت نغمة التحذير الكئيبة. وعند سماعهم هذا الصوت قام المتشردون (والذين قال عنهم كوزيمو بعد ذلك، بأن وجود فيولا كان يثير أجسادهم كما يحدث للأرانب البرية في ضوء القمر) بإطلاق

أقدامهم هربًا وتركوا أنفسهم لينطلقوا، وكأنه شيء غريزي مع أنهم كانوا يعرفون أنها كانت تمزح، وهم أيضًا أكملوا معها اللعب، وأخذوا يجرون هابطين وهم يقلدون صوت البوق خلفها، وهي تركض فوق حصانها الصغير ذي السيقان القصيرة.

كانوا يجرون بسرعة وهم يكادون يدقون أعناقهم، فكانت تختفي أحيانًا من أمامهم. تجنبتهم فخرجت عن الطريق، تاركة إياهم هناك. ولكن إلى أين ذهبت؟ كانت تقفز هناك بين مزارع الزيتون التي تنزل الوادي في تدريج لطيف للمراعي، وكانت تبحث عن شجرة الزيتون التي كان كوزيمو يسير فوقها بصعوبة، وأخذت تدور حولها وهي تقفز، ثم فرت بعيدًا، ثم ظهرت من جديد أسفل شجرة زيتون أخرى، في حين يظهر أخي بين أغصانها. وهكذا أخذا يهبطان الوادي وهم يسلكان معاً طريقًا معوجًا بين فروع أشجار الزيتون.

وعندما أدرك اللصوص الصغار، ورأوا تحركات الاثنين فوق الأغصان وعلى السرج، بدءوا جميعًا يصفرون، كان نوعًا من الصفير الخبيث والساخر، وأخذوا يرفعون أصوات صفيرهم وهم يبتعدون إلى أسفل تجاه بورتاكابيري.

ومكث أخي والفتاة الصغيرة يلاحق كل منهما الآخر في حديقة الزيتون، ولكن كوزيمو لاحظ بإحباط أن بمجرد اختفاء فريق المتشردين اخذت فرحة فيولا بتلك اللعبة تنطفئ وكأنها تقع فريسة للملل. وارتاب في أنها كانت تفعل كل هذا فقط لتغضب الآخرين، ولكن على أمل أن تغضبه هو أيضًا معهم؛ ولكن الشيء المؤكد أنها كانت دائمًا بحاجة إلى أن تغضب أحدًا لتزداد قيمتها (كل هذه المشاعر لم يدركها كوزيمو وهو ما زال صبيًا؛ فلقد كان يصعد كالغبي بين قشور تلك الأشجار الخشنة وهو لا يفهم شيئًا، هذا ما أتخيله).

وعند دوران أحد المرتفعات بدأ هجوم شرس وجيز من الرمي بالحجارة. خبأت الفتاة رأسها خلف عنق الحصان الصغير وهربت. أما أخي فكان فوق جذع شجرة ظاهرًا للعيان، بقي هدفًا سهلاً؛ ولكن الأحجار الصغيرة كانت تصل إلى أعلى ضعيفة جدًا فلا تسبب أي ألم، فيما عدا بعض الحجارة التي أصابته في جبهته أو في أذنيه. أخذ هؤلاء المجانين يضحكون ويصرخون: سينفوروزا مقززة ثم هربوا مبتعدين.

ووصل المتشردون إلى بورتا كابيري المحاطة بمساقط خضراء من نباتات القبار التي غطت الأسوار. ومن المنازل الخربة المحيطة كانت تتصاعد صرخات الأمهات. ولم يكن هؤلاء أطفالاً تصرخ فيهم أمهاتهم في المساء كي يعودوا؛ وإنما كان أمهاتهن ينهرنهم لأنهم عادوا، لأنهم عادوا ليأكلوا في المنزل بدلاً من أن يبحثوا عن طعامهم في مكان آخر.

حول منطقة بورتا كابيري. في منازل صغيرة وأكواخ من الخشب، وعربات عرجاء وخيام، كان أفقر سكان أومبروزا يتجمعون. كانوا فقراء إلى حد أنهم أقاموا خارج أسوار المدينة بعيدًا عن الحقول، كانوا أناسًا هاجروا من أراض وبلاد بعيدة، طردتهم منها المجاعة، أو البؤس الذي كان ينتشر في كل بلد. كان الوقت وقت الغروب، وكانت هناك سيدات مشعثات الشعر يحملن أطفالاً على صدورهن ويهوين مواقد يتصاعد منها الدخان، وكان المتسولون يتمددون وهم يفكون أربطة جروحهم، وآخرون يلعبون بالنرد ويصيحون صيحات متقطعة.

انغمس أفراد عصابة الفاكهة الآن في ذلك الدخان المتصاعد من القلي ومع أولئك المتشاجرين، فيتلقون الصفعات من أمهاتهن، وتشابكوا فيما بينهم بالأيدي وهم يتدحرجون في التراب. وكانت ملابسهم الممزقة قد أخذت لون كل الأثمال الأخرى، وتحولت بهجتهم التي تشبه بهجة الطيور، بعد أن سقطت في ذلك الفخ من الانحطاط الإنساني، إلى إحباط كثيف. حتى إنهم بمجرد ظهور الفتاة الشقراء راكضة وكوزيمو فوق الأشجار التي

حولهم رفعوا بصعوبة عيونهم التي يملؤها الخجل، وانسحبوا إلى الداخل، محاولين الاختباء بين الأتربة ودخان المواقد، وكأن جدارًا قد ارتفع فجأة بينهم.

كل هذا كان بالنسبة إليهما مجرد لحظة، طرفة عين. والآن وقد تركت فيولا خلف ظهرها دخان الأكواخ الذي يختلط مع ظلال المساء وصرخات النساء والأطفال، أخذت تجري بعيدًا بين أشجار الصنوبر الممتدة على الشاطئ.

هناك كان البحر. وكان يشعر بأنه يتدحرج بين الحصى. كان الجو مظلمًا، وكانت الدحرجة تحدث صريرًا عاليًا: كان هذا صوت المهر الذي كان يجري وهو يطلق شرارًا باحتكاكه بالحصى.

ومن فوق شجرة صنوبر منخفضة معوجّة كان أخي ينظر إلى الظل الواضح للفتاة الشقراء وهي تمر عبر الشاطئ. وتصاعدت من البحر الأسود قمة موجة ثم انقلبت منعكسة، وها هي تتقدم إلى الأمام بلونها الأبيض، ثم تكسرت ولمستها بالكاد ظلال الفتاة الراكضة فوق الحصان بسرعة شديدة، وفوق شجرة الصنوبر بلل الرذاذ الأبيض المملح وجه كوزيمو.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ ٦ ـ

كانت الأيام الأولى لكوزيمو فوق الأشجار بلا أهداف أو خطط محددة، ولكن كانت تسيطر عليها فقط رغبة المعرفة وامتلاك مملكته هذه. كان يريد أن يكتشفها على الفور حتى أقصى حدودها، وأن يدرس كل الإمكانات التي تقدمها له، وأن يكتشف كل شجرة فيها وكل فرع من فروعها. وأقول كان يريد لأننا في الواقع كنا نراه باستمرار يظهر فوق رءوسنا، بتلك الهيئة اللا مبالية والسريعة جدًا للحيوانات البرية، والتي ربما نراها نحن هادئة وساكنة، ولكنها كانت دائمًا وكأنها على وشك أن تقفز مبتعدة.

لماذا كان يعود إلى حديقتنا؟ عند رؤيته يدور من فوق شجرة دلب إلى شجرة بلوط في مجال رؤية منظار أمنا المكبر، كان يمكن القول إن القوة التي تدفعه إلى ذلك والهوس المسيطر عليه هو جداله معنا، وأن يجعلنا نشعر دائمًا بالألم أو الغضب. (أقول معنا، لأنني لم أكن قد نجحت بعد في أن أفهم كيف يفكر، فعندما كان يحتاج إلى شيء كان يبدو أنه لا يوجد مجال للشك في تحالفه معي. وفي مرات أخرى كان يمر فوق رأسي وكأنه لا يراني).

ولكن الحقيقة أنه كان يمر بشكل عابر فقط من فوق الحديقة، لقد كان ما يجذبه هو سور شجرة المانوليا، وكنا نراه يختفي هناك في أوقات مختلفة، وإن لم تكن الفتاة الشقراء قد استيقظت بعد، أو في الوقتِ الذي لا بد فيه أن يكون فريق المربيات أو الخالات قد جذبنها إلى داخل المنزل. في حديقة أونداريفا كانت الفروع تمتد وكأنها خراطيم حيوانات عجيبة، ومن الأرض كانت تتفتح نجوم أوراق مسننة لها جلد الزواحف الأخضر، وكانت تتمايل فروع بامبو صفراء وخفيفة، وتصدر أصوات الأوراق. ومن فوق أكثر شجرة ارتفاعًا، كان كوزيمو، لرغبته الجنونية في الاستمتاع إلى النهاية بذلك اللون الأخضر المتنوع، والضوء المختلف الذي كان يشف منها، بل والصمت المتميز، يترك رأسه لأسفل فتتحول الحديقة المقلوبة إلى غابة، ليست غابة أرضية، ولكن غابة في عالم جديد.

عندئذ كانت تظهر فيولا. وكان كوزيمو يراها فجأة على الأرجوحة وهي تدفع نفسها، أو على سرج المهر القزم، أو كان يسمع ارتفاع نغمة بوق الصيد الكئيبة من آخر الحديقة. ولم يكن ماركيزات أونداريفا قد أثارت اهتمامهم غارات الطفلة، فما دامت تسير على قدميها كانت خالاتها خلفها دائمًا، ولكن بمجرد أن تصعد على السرج تكون حرة كالهواء؛ لأن الخالات لم يكن يمتطين الخيول، ولم يكن بإمكانهن أن يرين أين تذهب. ثم إن صداقتها مع هؤلاء المتشردين كانت فكرة بعيدة جدًا عن تفكيرهن. ولكنهن أدركن على الفور وجود ذلك البارون الصغير الذي كان يندس بين الفروع، وكن لذلك في حالة تأهب مستمرة بل مضاف إليها شيء من الاحتقار والتعالي.

أما والدنا فكان يجعل من مرارة عصيان كوزيمو وعداوته لعائلة أونداريفا أمرًا واحدًا، وكأنه أراد أن يحملهم هذا الخطأ، وكأنهم هم الذين يجذبون ابنه إلى حديقتهم، ويستضيفونه، ويشجعونه على لعبة التمرد تلك. وفجأة اتخذ قراره بأن يضع خطة للقبض على كوزيمو، وليس في أثناء

وجوده في أملاكنا، ولكن في أثناء وجوده في حديقة أونداريفا. وحتى يؤكد تلك النية العدوانية تجاه جيراننا، لم يرد أن يقود الضربة بنفسه، أو أن يتقدم بنفسه إلى عائلة أونداريفا طالبًا منهم أن يعيدوا إليه ابنه - وهو رغم عدم وجود ما يبرره، سيجعل العلاقة تبدو على مستوى رفيع بين نبلاء - ولكنه أرسل إليهم فرقة من الخدم تحت قيادة الفارس المحامي إينيا سيلفيو كاريجا.

وصل هؤلاء الخدم مسلحين بالسلالم والحبال أمام بوابات عائلة أونداريفا. أخذ الفارس المحامي، وهو يرتدي القنبار والطربوش، يغمغم مطالبًا بأن يدخلوهم، مختلقًا أعذارًا كثيرة. وبعد برهة صدق خدم عائلة أونداريفا أنهم قد أتوا لقص فروع بعض النباتات لدينا والتي دخلت إلى حديقتهم. وعندما نطق الفارس بأنصاف كلماته:

ـ أمسكوه. أمسكوه. وهو ينظر إلى فروع الأشجار وأنفه مرتفع، ويقفز قفزات متعثرة، سألوه: ما الذي هرب منكم؟ ببغاء؟

ـ لا. إنه الابن، الابن البكر، سليل العائلة.

قال الفارس المحامي هذا بسرعة شديدة، وجعلهم يسندون سلمًا إلى شجرة كستناء هندية، وأخذ يصعدها بنفسه. وبين أغصان الشجرة كان يمكن رؤية كوزيمو يؤرجح قدميه وكأن لا شيء يحدث. وفيولا أيضًا كانت تدور في الحديقة تلعب بالطوق وكأن لا شيء يحدث. طرح الخدم بعض الحبال إلى الفارس المحامي، ولم يكن أحد يعرف ما المناورات التي كان يجب عليهم استخدامها للإمساك بأخي. ولكن كوزيمو، وقبل أن يصل الفارس إلى وسط السلم، كان قد صعد بالفعل إلى قمة شجرة أخرى. جعلهم الفارس ينقلون السلم، وهكذا أربع أو خمس مرات، وفي كل مرة كان يخرب حوضًا من أحواض الحديقة، وكان كوزيمو بقفزتين يعبر إلى الشجرة المجاورة. رأت فيولا نفسها فجأة وقد أحاطت بها خالاتها ونائبات خالاتها واللاتي قمن بإدخالها إلى المنزل وإغلاقه عليها حتى لا تشهد ذلك

..

الشغب. قطع كوزيمو فرع شجرة وأشهره بيديه وأطلقه بقوة أحدثت صفيرًا في الهواء.

قال الماركيز أونداريفا عندما ظهر بهيبة على سلالم فيلته وهو يرتدي ملابس المنزل وغطاء الرأس، مما جعله يشبه، بغرابة، الفارس المحامي:

- ألا تستطيعون الذهاب إلى حديقتكم الواسعة وتستكملون المطاردة هناك أيها السادة الأعزاء؟ إنني أوجه كلامي إليكم يا عائلة بيافسكو دي روندو!

وقام بحركة دائرية شملت كلاً من البارون الصغير فوق الشجرة، وعمه، والخدم، وأشار إلى ما وراء السور وكأنه يشير إلى كل ما نمتلك على الأرض.

عندئذ غير إنيا سيلفيو كاريجا نبرته، وهرول وهو يرطن ليجاور الماركيز، وكأن شيئًا لم يحدث. وأخذ يحدثه عن ألعاب المياه في الحوض هناك الموجود أمامه، وكيف واتته فكرة عمل نافورة مياه أعلى وأكبر أثرًا، والتي يمكن أيضًا أن تستخدم، إذا تم تغيير إحدى صواميلها، في سقي المرعى. وكان ذلك دليلاً جديدًا على كم كان طبع عمنا غامضًا لا يمكن توقعه ولا الثقة به؛ لقد أرسله البارون إلى هناك في مهمة محددة، وبنية إشكال ثابت تجاه جيرانه. فلماذا إذن يتحدث بهذه النبرة الحميمة مع الماركيز، وكأنه يريد أن يستميله نحوه؟ بل الأدهى أن قدراته تلك كمتحدث لبق كان الفارس المحامي يظهرها فقط عندما يفيده ذلك، وكان ذلك، في تلك المرات التي يتم فيها اللجوء إليه لطبعه المنطوي. والجميل في الأمر أن الماركيز أصغى إليه، وطرح عليه بعض الأسئلة، وأخذه معه ليفحصا معًا كل الأحواض والنافورات، وهما يرتديان ملابس متشابهة، كل منهما بذلك الرداء الطويل، وهما بالطول نفسه، حتى يمكن الخلط بينهما، وخلفهما تسير الحاشية الكبيرة من خدم عائلتنا وعائلتهم، بعضهم بالسلالم على أكتافهم، حيث لم يعرفوا ماذا يفعلون.

وفي ذلك الوقت كان كوزيمو يقفز بلا انزعاج على الأشجار القريبة من نوافذ الفيلا، محاولاً أن يكتشف من وراء ستائر الغرفة التي أدخلوا إليها فيولا. وأخيراً اكتشف المكان، وألقى بثمرة على الشباك المغلق.

انفتحت النافذة، وظهر وجه الفتاة الشقراء، وقالت: بسببك أنا هنا مسجونة. وأغلقتها مرة أخرى، وأسدلت الستائر، وفجأة شعر كوزيمو باليأس.

وعندما كان يتملك أخي الغضب كان هناك بالفعل ما نقلق لأجله. كنا نراه يجري (إذا كانت كلمة يجري لها معنى إذا نقلنا استخدامها من على سطح الأرض، وأشرنا بها إلى دعائم غير مستوية على ارتفاعات مختلفة، وتتخللها فراغات) ومن لحظة إلى أخرى كان يبدو وكأن رجله ستتعثر وسيسقط، وهو الشيء الذي لم يحدث قط. كان يقفز ويتحرك في خطوات سريعة جداً على فرع مائل، كان يتعلق ويرتفع فجأة على فرع أعلى، وفي أربع أو خمس التفافات سريعة اختفى.

أين ذهب؟ تلك المرة أخذ يجري ويجري من البلوط إلى شجر الزيتون وإلى أشجار الزان، ووصل إلى الغابة. توقف هناك وهو يلتقط أنفاسه، وكان المرعى يمتد أسفله، وكانت الرياح المنخفضة تحرك موجة منها هناك، فوق أطراف الحشائش الكثيفة فيتقلب لونها الأخضر بتنويعات مختلفة، وكان هناك ريش من تيجان تلك الزهور المسماة بالمنفاخ يطير بلا صوت. وفي المنتصف كانت هناك شجرة صنوبر منعزلة، يصعب الوصول إليها، بها ثمار الصنوبر المستطيلة، وكانت طيور المتوقل - وهي طيور سريعة جداً بنية اللون ومبرقشه - واقفة على الأغصان الكثيفة بأوراقها الإبرية، في وضع منحنٍ، بعضها مقلوب وذيله إلى أعلى ومنقاره إلى أسفل، تنقر الشرنقات وثمار الصنوبر.

كان ذلك الاحتياج إلى دخول عنصر يصعب امتلاكه هو الذي دفع أخي ليجعل من الأشجار طرقًا له، وفي تلك اللحظة كان ذلك الاحتياج ما زال يتحرك بداخله، وهو يشعر بالاستياء، وينقل له الرغبة في التغلغل إلى

المنتهى وفي إقامة علاقة تربطه بكل ورقة شجر وبكل لحاء، وبكل ريشة وكل رفرفة. كان مثل ذلك الحب الذي يشعر به الإنسان الصياد لكل ما هو حي حوله، ولا يستطيع التعبير عنه سوى بتصويب الزناد نحوه. لم يكن كوزيمو قد تعرف بعد على هذا الشعور، ولكنه كان يحاول التنفيس عنه بإصراره على القيام باكتشافاته.

كانت الغابة كثيفة، شاقًا عبورها، وكان على كوزيمو أن يفتح لنفسه طريقًا بضربات سيفه الصغير. ورويدًا رويدًا أخذ ينسى اضطراباته كلها، مأخوذًا كلية بالمشكلات التي كان يجدها أمامه أثناء تقدمه وبالخوف (الذي لم يرغب في الاعتراف به، ولكنه كان موجودًا) من أن يبتعد كثيرًا عن الأماكن المألوفة لديه. وهكذا وصل وهو يفسح لنفسه طريقًا وسط الأوراق الكثيفة إلى حيث وجد عينين صفراوين تحملقان فيه وسط الأوراق، تمامًا في مواجهته. مدّ كوزيمو سيفه الصغير إلي الأمام وأبعد فرع الشجرة، ثم تركه ليعود ببطء إلى مكانه. تنفس الصعداء، وضحك من الخوف الذي شعر به؛ فلقد رأى أن تلكما العينين الصفراوين هما عينا قط.

كانت صورة القط، التي رآها بمجرد أن أبعد فرع الشجرة، راسخة في ذهنه. وبعد لحظة عاد كوزيمو من جديد ليرتعد خوفًا؛ لأن ذلك القط، مع أنه يشبه القط في كل شيء، كان قطًا بشعًا، مرعبًا، رؤيته فقط تبعث على الصراخ خوفًا. ما كان لأحد أن يجزم ما الذي كان يجعله مخيفًا هكذا. كان قطًا سوريًا أليفًا، ولكنه كان أكبرحجمًا من القطط السورية كلها، ولكن لم يكن هذا يعني شيئًا، فقد كان مرعبًا بتلك الشوارب المستقيمة وكأنها أشواك قنفذ، وذلك الزفير الذي يكاد يكون مسموعًا أكثر بالنظر منه بالسمع وهو يخرج من بين صفي أسنانه الحادة كالخطافات؛ وبتلكما الأذنين اللتين لم تكونا مجرد شيئين مدببين؛ وإنما كانتا شعلتين مضغوطتين تكسوهما شعيرات رقيقة خادعة؛ وبشعره المنتصب المستقيم

الذي كان ينفخ حول عنقه المتصلب طوقًا من الفراء أصفر اللون، ومن هناك كانت تبدأ الخطوط الرفيعة التي كانت ترتعد على جانبيه وكأنه يربت ظهره بنفسه. وكان الرعب يكمن أيضًا في ذلك الذيل الثابت في وضع غير طبيعي، لا يُصدق. ويضاف إلى كل ما رآه كوزيمو في لحظة واحدة وراء الغصن الذي تركه ليعود على الفور إلى مكانه ما لم يتح له الوقت لرؤيته لكنه كان يتخيله؛ خصلات كثيفة من الشعر تحيط بأقدامه لتغطي قوة مخالبه الرهيبة المتأهبة للانقضاض عليه، وذلك الذي ما زال يراه؛ تلك الومضات الصفراء التي كانت تحدق فيه من بين الأوراق وهي تدور بداخل الحدقة السوداء؛ وذلك الذي كان يسمعه من زمجرة قوية عميقة؛ كل ذلك جعله يدرك أنه أمام أشرس قط بري في الغابة.

توقفت زقزقة العصافير كلها ورفرفتها. وقفز القط البري، ولكن ليس لمهاجمة الفتى، كانت قفزة رأسية لم تخف كوزيمو بقدر ما أدهشته. ولكن سرعان ما شعر بالخوف وهو يرى السنور على فرع شجرة فوق رأسه تمامًا. كان هناك، متجمدًا، وكان يرى بطنه المغطاة بالشعر الطويل الأبيض، وأقدامه ممدودة ومخالبه مثبتة في الخشب، في حين يقوس ظهره ويزمجر، فقد كان يستعد بالتأكيد للانقضاض عليه. قام كوزيمو بحركة رائعة، ربما لم يفكر فيها، بالقفز على فرع في أسفل. استمر القط البري في الزئير، وكان يصدر هذا الصوت مع كل قفزة، واحدة هنا والأخرى هناك، ووصل مرة أخرى إلى فرع فوق كوزيمو. كرر أخي حركته، ولكنه وجد نفسه فوق آخر فرع من فروع شجرة الزان. وفي أسفل كانت القفزة التي تصل به إلى الأرض مرتفعة إلى حد ما، ولكن لم تكن يالارتفاع الذي يجعله يرفض أن يقفز إلى أسفل بدلاً من أن ينتظر ما سيفعله ذلك الحيوان بمجرد أن ينتهي من إصدار ذلك الصوت المرعب بين الزفير والمواء.

رفع كوزيمو إحدى ساقيه وكأنه يستعد للقفز إلى أسفل، ولكن لأن بداخله كانت تتنازعه الغريزتان ـ غريزة حب الحياة الطبيعية، وغريزة العناد التي تمنعه عن النزول حتى لو كلفه ذلك حياته ـ ألصق في الوقت

نفسه فخذيه وركبتيه بالفرع ؛ وبدا للقط أنها اللحظة المناسبة ليلقي بنفسه عليه، والفتى هناك يتأرجح، فقفز فوقه وشعره يتطاير، ومخالبه مشدودة وأنفاسه مرتفعة. لم يعرف كوزيمو أن يفعل ما هو أفضل من أن يغلق عينيه ويرفع سيفه، فكانت حركة غبية، تجنبها القط بسهولة، وأصبح فوق رأسه متأكداً أن يجذبه معه إلى أسفل بمخالبه. أصابت مخالبه كوزيمو في إحدى وجنتيه، ولكن بدلاً من أن يسقط، تمدد بجسده بطول الغصن وهو ممسك به بركبتيه. وكان ذلك عكس ما توقعه القط تماماً، والذي وجد نفسه يميل على أحد جانبيه ويسقط. أراد أن يمسك بمخالبه بالفرع ليمنع نفسه من السقوط، ودار بنفسه في الهواء. كانت لحظة، ولكنها كانت كافية لأن يقوم كوزيمو، في صحوة انتصاره، بمفاجأته بضربة عميقة في بطنه، وأن يغمد فيه سيفه الصغير وهو يعوي.

لقد نجا، تغطيه الدماء، والحيوان البري معلق على سيفه وكأنه فوق سيخ الشواء، وإحدى وجنيته ممزقة من أسفل عينيه إلى ذقنه بثلاثة خدوش. كان يصرخ من الألم ومن الانتصار، ولم يكن يفهم شيئاً، كان ملتصقاً بالفرع، وبسيفه وبجسد القط، في لحظة يأس من فاز لأول مرة، والآن عرف كم يكلف الانتصار، وعرف أنه ملتزم الآن ليكمل الطريق الذي اختاره، وأن أحداً لن يعطيه عذره إذا فشل.

هكذا رأيته يقترب بين الأشجار، تغطيه الدماء حتى فوق صدريته، وشعره مهوّش أسفل قبعته الثلاثية التي فقدت شكلها، ويمسك ذلك القط البرى الميت من ذيله، والذي كان يبدو الآن مجرد قط عادي ليس غير.

هرعت نحو الجنرالة في التراس وصرخت: أمي، لقد أصيب!

ـ ما معنى أصيب؟ وبالفعل بدأت تحملق بالمنظار المكبرة.

قلت: أصيب، أي به إصابات وجروح. وبدا أن الجنرالة قد وجدت تعريفي كافياً، لأنها أخذت تتبعه بالنظارة المكبرة، وبينما كان يقفز بسرعة أكثر من المعتادة قالت بالألمانية: هذا حقيقي!

وعلى الفور أخذت في إعداد ضمادات وبلاسم، وكأن عليها إمداد فرقة عسكرية بالإسعافات، وأعطتني كل شيء، حتى آخذه إليه، حتى من دون أن يراودها الأمل في أن يقرر العودة لكي تجري له الإسعافات اللازمة. أخذت أجرى في الحديقة ممسكًا بلفافة الضمادات، ثم انتظرته عند شجرة التوت بقرب سور عائلة أونداريفا، لأنه كان قد اختفى بالفعل داخل شجرة المانوليا.

وظهر هو منتصرًا، والحيوان المقتول في يده في حديقة أونداريفا. ولكن ماذا رأى في الفناء المقابل للفيلا؟ رأى عربة معدة للرحيل، والخدم يضعون الحقائب في أعلى العربة، ووسط مجموعة من المربيات والخالات المتجهمات كانت فيولا ترتدي ملابس السفر تحتضن الماركيز والماركيزة.

صرخ وهو يرفع القط من ذيله : فيولا! إلى أين أنت ذاهبة؟

رفع كل الواقفين حول العربة أنظارهم إلى فروع الأشجار، وبمجرد أن رأوه ممزق الثياب، تغطيه الدماء، وبتصرفات المجانين تلك، والحيوان الميت في يده، أصابهم جميعًا الفزع: هل عاد من جديد! وبهذا المنظر أيضًا! وكأن مسًا من الجنون أصابهن؛ أخذت الخالات جميعًا يدفعن الفتاة إلى العربة. التفتت فيولا وأنفها إلى أعلى، وبغيظ متضجر وبكل تعالٍ على عائلتها، ولكن يمكن أن يكون أيضًا تعاليًا على كوزيمو، صرخت وهي تؤكد الكلمات:

- إنهم يرسلوننى إلى المدرسة الداخلية!

ثم استدارت لتصعد إلى العربة، ولم تمنحه حتى نظرة؛ لا هو، ولا فريسته.

كان باب العربة قد أغلق، وكان الحوذي قد اتخذ مكانه، ولكن كوزيمو لم يكن قادرًا على قبول ذلك الرحيل، فحاول أن يجذب انتباهها إليه، وأن يجعلها تدرك أنه يهدي إليها هذا الانتصار الباهر، ولكنه لم يستطع أن يشرح ذلك إلا بأن يصرخ:

ـ لقد انتصرت على قط بري!

أصدرت ضربة السوط فرقعة، ورحلت العربة تلوح منها مناديل الخالات المودعة، ومن خلف الشباك سمع عبارة :

ـ يالك من ماهر!

قالتها فيولا ولكنه لم يفهم هل كان ذلك تحمسًا منها أم استخفافًا.

كان هذا وداعهما. وكان كوزيمو يشعر بالتوتر، وبآلام الخدوش، والإحباط لأنه لم يحصل على المجد لما فعل، والإحباط من ذلك الانفصال المفاجئ. اجتمع كل هذا، وظهر في بكاء عنيف، مليء بالصرخات والعويل وتكسير الأغصان.

أخذت الخالات يصرخن وهرع خدام عائلة أونداريفا كلهم بعصيّ طويلة، أو وهم يقذفونه بالحجارة ليطردوه: اخرج من هنا! اخرج من هنا! أيها الهمجي المتوحش! اخرج من حديقتنا!

رمى كوزيمو بالقط الميت في وجه من اقترب منه، وهو ينتحب ويصرخ. أمسك الخدم الحيوان من ذيله وألقوا به في المزبلة.

عندما عرفت أن جارتنا قد رحلت، لوهلة تمنيت أن ينزل كوزيمو. ولا أعرف لماذا كنت أربط بها، أو بوجودها، قرار أخي بأن يمكث فوق الأشجار.

إلا أننا لم نتطرق إلى هذا. صعدت فوق الشجرة لأعطيه الضمادات والأربطة، وأخذ يعالج بنفسه الخدوش الموجودة في وجهه وذراعيه. ثم طلب مني صنارة وخطافًا، واستخدمهما ليصطاد بهما من أعلى شجرة زيتون تطل على مقلب قمامة الأونداريفا، القط الميت. وبعد أن اصطاده سلخه ودبغ جلده وصنع منه قلنسوة، كانت أول قلنسوة من الفراء ورأيناه يرتديها طول حياته.

- ٧ -

كانت آخر محاولة للقبض على كوزيمو قد قامت بها أختنا باتيستا. كان ذلك بمبادرة شخصية منها، فعلت ذلك من دون أن تسأل أحدًا، في السر كما كانت تفعل كل شيء. خرجت في وقت متأخر من الليل، ومعها وعاء مليء بالغراء وسلم متنقل، ودهنت بالغراء شجرة خروب من القمة إلى الساق، وكانت شجرة اعتاد كوزيمو أن يجلس عليها كل صباح.

وفي الصباح وجدنا فوق شجرة الخروب طيور الحسون ملتصقة وهي ترفرف بأجنحتها، وطيور النمنمة ملفوفة في السائل اللزج، وفراشات ليلية، وأوراقًا جلبتها الرياح، وذيل سنجاب، ووجدنا أيضًا طرفًا مقطوعًا من حلة كوزيمو. ومن يدرِ هل جلس على أحد الأغصان ثم نجح في أن يحرر نفسه، أو - وهو الشيء الأوقع لأنني منذ فترة كنت أراه من دون بذلته - أنه هو الذي وضع ذلك الجزء متعمدًا ليسخر منا. على كل حال، ظلت الشجرة ملطخة بالغراء، ثم جفت بعد ذلك.

وبدأنا نقتنع أن كوزيمو لن يعود أبدًا، ووالدنا أيضًا، فمنذ أن بدأ أخي يقفز فوق الأشجار في كل أراضي أومبروزًا لم يجرؤ البارون على الظهور في الجوار، لأنه كان يخشى المساس بكرامة الدوقية. وأخذ وجهه يزداد

شحوبًا ونحافة، ولم أكن أعرف إلى أي مدى كان قلقه قلقًا أبويًا، وإلى أي مدى كان يقلق على تأثير ذلك على استمرار اللقب في سلالته، ولكن أصبح الشيئان بالفعل همًا واحدًا؛ لأن كوزيمو كان ابنه البكر، وارث اللقب، وإذا كان ما يفعله البارون لنفسه شيئًا سيئًا بأن يقفز بين فروع الأشجار، وكأنه طائر الحجل، فالأسوأ بكثير أن يفعل ذلك دوق، وإن كان صبيًا، وخاصة أن هناك خلافًا حل اللقب ولن يدعمه سلوك الوريث هذا.

كانت كلها همومًا بلا أهمية، لأن أهل أومبروزا كانوا يسخرون من طموحات والدنا ورغباته. أما النبلاء الذين كانوا يمتلكون الفيلات هناك من حولنا، فكانوا يعدونه مخبولاً. فلقد كانت عادة السكنى في فيلات في المناطق الساحرة قد انتشرت بين النبلاء، أكثر من تلك المتعلقة بالسكنى في قلاع الإقطاعيات، وكانوا يفعلون ذلك رغبة في الحياة كمواطنين مستقلين تجنبًا للمضايقات. من ذا الذي كان يفكر في دوقية أمبروزا العتيقة؟

فسحر أومبروزا كان يكمن في أنها دار الجميع، وأنها ليست دارًا لأحد: فلقد كانت مرتبطة ببعض الحقوق تجاه ماركيزات أونداريفا، وهم سادة كل الأراضي تقريبًا، ولكنها بلدية حرة منذ فترة تنتمي إلى جمهورية جنوة؛ وكان يمكننا أن نعيش مطمئنين بين تلك الأراضي التي ورثناها، والأخرى التي اشتريناها بأبخس الأثمان من البلدية في وقت كانت تعاني فيه ثقل الديون. ماذا كان يمكن للمرء أن يطلب أكثر من ذلك؟ كان يعيش حولنا مجتمع من النبلاء بفيلاتهم وحدائقهم وبساتينهم وصبولاً إلى البحر، والجميع يعيشون في سعادة، ويتزاورون ويذهبون إلى الصيد، وكانت الحياة هناك تكلف القليل، وكان الجميع يتمتعن بمزايا من يعيش في البلاط، دون الاضطرابات والالتزامات والمصروفات التي يتكبدها من لديه أسرة ملكية وعاصمة وسياسة يهتم بها. ولكن لم تكن هذه الأشياء تروق والدنا، كان يشعر بأنه ملك مخلوع عن عرشه، وكان قد أنهى كل علاقاته بالنبلاء

القاطنين في الجوار (أما أمنا، الأجنبية، يمكن أن نقول إنه لم تكن لديها علاقات قط)، وهو أمر له ميزاته، فنظرًا لأننا لم نكن نتردد على أحد، فلقد وفرنا مصروفات كثيرة، وأخفينا ضآلة مواردنا المالية.

ولا يمكن القول أيضًا إن علاقتنا بسكان أومبروزا كانت أحسن حالاً، فأنتم تعرفون كيف هم سكان أومبروزا؛ فهم أناس بخلاء يهتمون بشئون تجارتهم، وفي تلك الأزمنة كانت بداية بيعهم لليمون بكثرة، وذلك بعد أن ظهرت وانتشرت عادة الليمونادة المثلجة المسكرة بين الطبقات الغنية؛ ولذلك أخذوا يزرعون بساتين الليمون في كل مكان، بل وأعادوا تشغيل الميناء التي حطمتها غزوات القراصنة منذ زمن بعيد، وكانوا يتاجرون مع الجميع بفضل موقعهم المتوسط بين جمهورية جنوة وممتلكات ملك سردينيا ومملكة فرنسا وأراضي الأسقفية، وكانوا لذلك أيضًا لا يعبئون بأحد، لولا تلك الضرائب التي كان يجب دفعها إلى جنوة، والتي كانت تنهكهم في كل تاريخ استحقاق، حيث كانت دافعًا في كل عام لحركات الشغب التي يقومون بها ضد جباة ضرائب الجمهورية.

وكان بارون روندو عندما تبدأ تلك الاضطرابات بسبب الضرائب، يعتقد أنهم على وشك أن يحضروا ليقدموا له تاج الدوقية. عندئذ كان يذهب إلى الميدان، ويقدم نفسه إلى سكان أومبروزا حاميًا لهم، ولكنه في كل مرة كان يجد نفسه وقد أطلق ساقيه هربًا تحت وابل من الليمون الفاسد. عندئذ كان يقول إنها مؤامرة دبرت ضده من الآباء اليسوعيين، كالعادة. فقد رسخ في ذهنه أن حربًا شعواء تدور بينه وبين الآباء اليسوعيين، وأن تلك الجماعة لا تفكر في شيء سوى الإضرار به. في الواقع كانت هناك نزاعات بينهما، ذلك بسبب بستان ملكيته محل نزاع بين عائلاتنا وجماعة الآباء اليسوعيين، ونشأ عن هذا نزاع، واستطاع البارون، بما لديه عندئذ من علاقات جيدة بالأسقف، أن يبعد الرئيس الإقليمي عن أراضي الإبراشية. ومنذ ذلك الحين ووالدنا على يقين من أن جماعتهم

ترسل عملاءها للنيل من حياته ومن حقوقه، ومن جهته كان يحاول أن يجمع ميليشيات من المؤمنين ليعملوا على تحرير الأسقف الذي- في رأيه - سقط أسيرًا لدى الآباء اليسوعيين؛ وكان يمنح حق اللجوء والحماية لمن يعلن أنه مضطهد من جانب الآباء اليسوعيين، وهكذا اختار لنا كأب روحي ذلك الأب التابع، تقريبًا، ليانسن، والذي يعيش شارد الذهن.

وكان والدنا يثق بشخص واحد فقط، وهو الفارس المحامي. كان لدى أبي نقطة ضعف تجاه أخيه هذا، وكأنه ابن وحيد بائس؛ والآن لا أستطيع أن أجزم أننا كنا ندرك هذا بالفعل، ولكن من المؤكد أنه كان بداخلنا، وفي طريقتنا للنظر إلى كاريجا، بعض من الشعور بالغيرة، حيث كنا نشعر أن والدنا يحب أخاه هذا الذي يبلغ من العمر خمسين عامًا أكثر منا نحن الصبية. ثم إننا لم نكن وحدنا في النظر إليه بهذه الطريقة؛ كانت الجنرالة وباتيستا يتظاهران هما أيضًا باحترامه، إلا أنهما لم تكونا تحتملانه. وكان هو خلف قناع الخنوع ذاك مستهينًا بكل شيء وبالجميع، وربما كان يكرهنا جميعًا، حتى البارون نفسه الذي كان يدين له بالكثير. وكان الفارس المحامى قليل الحديث، بل أحيانًا يعتقد البعض أنه أبكم وأصم، أو أنه لا يفهم اللغة التي نتحدث بها: من يدرِ كيف نجح في ممارسة مهنة المحاماة قبل ذلك، وهل كان بهذه الغرابة أيضًا آنذاك، قبل لقائه مع الأتراك؟ ولعله كان شخصًا مثقفًا في الماضي، إذا كان قد استطاع أن يتعلم من الأتراك كل تلك الحسابات الخاصة بالري وتوزيع المياه، وهى الشيء الوحيد الذي مازالت لديه القدرة على القيام به وتطبيقه الآن، والذي لأجله يمدحه والدنا إلى حد المبالغة. لم أكن أعلم جيدًا ما حدث له في الماضي، ولا مَن كانت أمه، ولا كيف كانت علاقته في الشباب بجدّنا (من المؤكد أنه هو بدوره كان يحبه كثيرًا، إذ جعله يدرس الحقوق ويحصل على لقب فارس) ولم أعرف أيضًا كيف انتهى الأمر به في تركيا. بل لم يكن واضحًا هل مكث مدة طويلة في تركيا نفسها أم في دولة بربرية أخرى، مثل تونس أو

الجزائر، أو أي في دولة إسلامية، ويقال إنه هو أيضًا قد اعتنق الإسلام، كانوا يقولون عنه أشياء كثيرة: إنه قد تولى مناصب مهمة، مثل صاحب المقام الرفيع لدى السلطان، أو خبير الري في الديوان، وأشياء من هذا القبيل، ثم أوقعت به إحدى مؤامرات القصر، أو غيرة نساء، أو دين في اللعب، وتم بيعه كعبد. ولكننا نعلم أنه تم العثور عليه مقيدًا يجدف بين العبيد في سفينة عثمانية استولى عليها أهل فينسيا، الذين قاموا بعتقه.

وفي فينسيا عاش حياة المتسولين أو كاد أن يحياها، حتى فعل شيئًا آخر لا أعرف حقيقته، يقولون شجارًا، (ولكن مع من يمكنه الشجار، فهو رجل واهن، وتشهد بذلك السماء) إلا أن الأمر انتهى به من جديد بين الأغلال. افتداه والدنا - بواسطة مساعي جمهورية جنوة الحميدة - وأحضره بيننا، رجلاً صغير الحجم، أصلع، بلحية سوداء، مذهولاً، وأبكم تقريبًا (كنت طفلاً آنذاك، ولكن طبع في ذهني مشهد ذلك المساء)، وكان يرتدي ملابس فضفاضة ليست له. فرضه والدنا على الجميع، وكأنه شخص ذو مكانة وسلطة، وعينه مديرًا، وخصص له حجرة مكتب تكدست مع الأيام بأوراق غير منظمة. وكان الفارس المحامي يرتدي قنبارًا طويلاً، وغطاء رأس على شكل طربوش، كما كانت الحال في ذلك الوقت في مكاتب النبلاء والبرجوازيين؛ إلا أنه ـ في الحقيقة - لم يكن يجلس قط في المكتب. وبدأنا نراه يتجول في الخارج أيضًا بالزي نفسه، في الريف. بل انتهى الأمر به أن يحضر إلى مائدة الطعام بهذا الزى التركي، ولكن الشيء الأكثر غرابة هو أن والدنا ـ مع حرصه الشديد على القواعد - أبدى تسامحًا معه في ذلك.

وعلى الرغم من واجباته كإداري، فإن الفارس المحامي لم يكن يتبادل كلمة مع وكلاء الزراعة أو المستأجرين أو حتى العمال، نظرًا إلى خجله الشديد، ومشكلته في التحدث، فقد كانت كل الممارسات العملية، وتوجيه الأوامر، ومتابعة العاملين هي في الواقع أشياء يقوم بها والدنا. كان إينيا

سيلفيوكاريجا يمسك بدفاتر الحسابات، ولا أعلم هل تدهورت أعمالنا بهذه الطريقة لأنه كان مسئولا عن الحسابات، أم أن حساباته كانت بهذا السوء بسبب تدهور أعمالنا. ثم إنه كان يقوم بإعداد حسابات وتصميمات لشبكات ري، ويملأ سبورة كبيرة بالخطوط والأرقام، وبكلمات مكتوبة بالتركية. ومن حين إلى آخر كان والدنا يجتمع معه في المكتب لساعات طويلة، (وكانت هذه أطول الأوقات التي يقضيها الفارس المحامي جالسًا). وبعد قليل كنا نستمع إلى صوت البارون الغاضب يصل إلينا من خلف الباب المغلق، ولكن لم يكن يصل إلينا قط صوت الفارس، ثم كان الباب يفتح، ويخرج منه الفارس المحامي بخطواته السريعة أسفل ذيل القنبار، والطربوش معتدلاً على رأسه، متجهًا إلى البستان والحقل. وكان والدنا يناديه وهو يجري خلفه. إينيا سيلفيو! إينيا سيلفيو! ولكن أخاه يكون قد وصل بين خطوط الكرم، أو بين أشجار الليمون، وكنا نرى فقط الطربوش الأحمر وهو يستكمل طريقه في عناد بين الأوراق.

كان والدنا يتبعه وهو يدعوه. وبعد ذلك بقليل كنا نراهما عائدين، البارون يتناقش كالعادة وهو يشيح بذراعيه، والفارس الضئيل الحجم بجواره منحنيًا وقبضتيه مغلقتين في جيبي قنباره التركي.

- ٨ -

في تلك الأيام كان كوزيمو يتحدى كل مَن على الأرض، تحديات في إصابة الهدف، تحديات في الخفة، ليختبر إمكاناته هو، وكل ما يمكنه عمله هناك فوق قمم الأشجار. كان يتحدى اللصوص الصغار في لعبة البلي. وكانوا في أحد تلك الأماكن القريبة من بوابة كابيري بين أكواخ الفقراء والمتشردين وبينما كان كوزيمو يلعب من فوق شجرة بلوط جافة وخالية من الأوراق لعبة البلي رأى رجلاً طويل القامة، منحنيًا قليلاً، يمتطي حصانًا، ويلتفح بعباءة سوداء يقترب من المكان. وتعرف كوزيمو إلى والده. تفرقت مجموعة الأولاد، ومن فوق أعتاب الأكواخ ظلت النساء ينظرن.

امتطى البارون أرمينيو جواده حتى وصل أسفل الشجرة، وكان وقت الغروب، والسماء تميل إلى الحمرة. كان كوزيمو يقف بين الأغصان العارية، حدق كل منهما في الآخر. كانت هي المرة الأولى - بعد غداء الحلزون - التي يرى كل منهما الآخر في هذا الوضع، وجهًا لوجه. وكانت قد مضت أيام عديدة، وتغيرت أشياء كثيرة، وكل منهما كان يعرف معرفة يقينية أن موضوع الحلزون لم تعد له أية أهمية، ولا حتى طاعة الأبناء

لآبائهم، وكل ما يتعلق بالسلطة الأبوية، وأن كل الأشياء المنطقية والعاقلة التي يمكنهم قولها لن يكون لها مكان، إلا أنه كان عليهما قول شيء ما.

بدأ الأب بنبرة تشوبها المرارة: إذن فسيادتك تقدم عرضًا رائعًا، جديرًا حقًا بشخص نبيل! (ووجه حديثه إليه مستخدمًا "سيادتك"، كما كان معتادًا أن يفعل في حالات اللوم الشديدة، ولكنه كان يستخدمه الآن ليعبر عن الشعور بالبعد والانفصال).

أجابه كوزيمو: إن الشخص النبيل، يا سيدي الوالد، يظل دائمًا نبيلاً، سواء على الأرض، أو فوق قمة الأشجار. وأضاف على الفور: ذلك إذا كان يسلك مسلكًا مستقيمًا.

اعترف البارون بجدية شديدة: يا لها من عبارة جيدة! إلا أن سيادتك لا تتمتع بهذا الآن، فسيادتك تسرق البرقوق من مستأجري الأراضي.

كان حقيقيًا ما يقول، فقد ضبط أخي متلبسًا. فبماذا كان يمكنه أن يجيب؟ عندئذ ابتسم، لكنها لم تكن ابتسامة تعالٍ أو سخرية؛ كانت ابتسامة خجل، ثم احمر وجهه.

ابتسم الوالد أيضًا، ابتسامة حزينة، ولكن من يدرِ لماذا احمر وجهه هو الآخر. ثم قال: الآن تعاشر أسوأ المتشردين والمتسولين.

وقال كوزيمو بثبات: لا يا سيدي، فأنا أعيش وحدي، ولكل شخص حياته.

قال البارون بصوت هادئ، يكاد يكون هامدًا: أدعوك إلى أن تنزل إلى الأرض، وأن تستعيد واجبات وضعك الاجتماعي.

قال كوزيمو: لا أنوي طاعتك أيها السيد الوالد، يؤسفني ذلك.

كان كل منهما يشعر بالاستياء والملل، فلقد كان كل منهما يعرف حق المعرفة ما سيقوله الآخر. قال أبي : ولكن ماذا عن دراساتك؟ وعبادتك المسيحية؟ هل تنوي أن تكبر وتنمو كأحد الهمجيين في أمريكا؟

سكت كوزيمو، كانت أفكارًا وتساؤلات لم يطرحها بعد على نفسه، ولم يكن حتى يرغب في طرحها. ثم قال: أتعتقد أنه بعيد عن الأرض ببضعة أمتار لن يصلني تعليم جيد؟

وكانت هذه أيضًا إجابة ماهرة، ولكن كانت كذلك تضعف من قدر فعلته، فقد كانت علامة على الضعف.

أدرك والدي هذا وبدأ يضغط قائلاً: إن التمرد لا يقاس بالأمتار، حتى وإن بدت المسافة قريبة، يمكن أن تكون الرحلة بلا عودة.

والآن، كان يمكن لأخي أن يجيب إجابة نبيلة أخرى، ربما بحكمة من الحكم اللاتينية أيضًا، التي لا أذكر منها شيئًا الآن، ولكننا آنذاك كنا نحفظ منها الكثير. ولكنه شعر بالملل من وقوفه هكذا وأدائه لدور العظيم؛ فأخرج لسانه وصاح:

- ولكنني من فوق الأشجار أستطيع التبول لمسافة أبعد!

عبارة لم يكن لها أي معنى، ولكنها أنهت المسألة برمتها.

ارتفعت صيحات المتشردين الواقفين حول بوابة كابيري، وكأنهم سمعوا تلك العبارة.

انحرف حصان بارون روندو فجأة، وشد البارون اللجام وتغطَّى بمعطفه وكأنه يستعد للرحيل. ولكنه استدار وأخرج إحدى ذراعيه من معطفه، وصاح وهو يشير إلى السماء التي سرعان ما امتلأت بالسحب السوداء:

- انتبه يا بني! فهناك من يمكنه أن يغرقنا جميعًا بالمياه، ثم ابتعد.

وبدأت الأمطار التي كانت تنتظرها الحقول منذ فترة طويلة تهطل بقوة في رذاذ قوي، وانتشر بين الأكواخ هروب المتشردين وهم يغطون رءوسهم بالأجولة ويغنون للأمطار.

واختفى كوزيمو وهو يحتمي بالأوراق المليئة بالمياه التي كانت وبمجرد لمسها تقلب رذاذ الماء فوق الرؤوس.

أما أنا فبمجرد أن أدركت هطول الأمطار تألمت كثيرًا لأجله؛ فقد تخيلته مبتلاً وهو يمسك بقوة بأحد جذوع الأشجار دون أن ينجح في أن ينجو من المياه المنهمرة. وكنت أعرف بالفعل أنه لن يكفي إعصار ليثنيه عن عزمه. هرعت إلى أمنا: إنها تمطر! ماذا عسى كوزيمو أن يفعل يا أمي؟

حركت الجنرالة الستارة، ونظرت إلى السماء الممطرة. كانت هادئة.

- إن أخطر مصاعب الأمطار هي الأراضي الموحلة، وما دام هناك في أعلى فهو في أمان.

- ولكن هل تكفي النباتات لحمايته؟

- سيلجأ إلى مخيمه.

- أي مخيم يا والدتي؟

- لا بد وأنه قد أعده في وقته.

- ولكن ألا تعتقدين أنه سيكون من الأفضل أن أبحث عنه لأعطيه مظلة؟

وكأن كلمة "مظلة" انتزعتها فجأة من مكان المراقبة الميدانية، وألقت بها في وسط قلقها كأم، وأخذت الجنرالة تقول: بلى، بلى، بالطبع؛ وزجاجة شراب تفاح ساخن ملفوفة في جورب من الصوف! وقطعة قماش مشمع ليفردها فوق الخشب حتى تقيه من الرطوبة. ولكن أين سيكون الآن هذا المسكين. أتمنى أن تنجح في العثور عليه.

خرجت تحت الأمطار حاملاً لفائف محتميًا بمظلة ضخمة خضراء اللون، وكنت أحمل واحدة أخرى مغلقة تحت ذراعي لأعطيها لكوزيمو.

كنت أطلق صفيرنا، فكان يجيبني فقط خرير الأمطار المستمرة بلا انقطاع فوق الأشجار. كان الجو مظلمًا، وخارج الحديقة لم أكن أعرف أين أذهب. كنت أخطو بلا انتباه لأجد قدمي فوق أحجار منزلقة وأعشاب

مبللة وأوحال، وكنت مستمراً في الصفير. ولأرسل صفيري إلى أعلى كنت أطرح المظلة إلى الخلف، وكانت المياه تجلد وجهي، وتغسل الصفير تماماً من فوق شفتي. كنت أريد أن أذهب تجاه بعض الأراضي العامة المليئة بالأشجار المرتفعة، حيث اعتقدت أنه ربما يكون قد أقام فيها ملجأه، ولكنني ضللت الطريق في ذلك الظلام، وظللت هناك أمسك بين ذراعي بالمظلة واللفائف، وكانت زجاجة الشراب الملفوفة بالجورب الصوفي هي الشيء الوحيد الذي يمنحني بعضاً من الدفء.

وفجأة في الظلام رأيت ضوءاً وسط الأشجار، لم يكن ضوء قمر أو نجوم. وبدا لي أنني أسمع صوت صفيره يرد على صفيري.

- كوزيمو.

- بياجوو! صوت من بين الأمطار قادم من فوق، من القمة.

- أين أنت؟

هنا.! سآتِ إليك، ولكن أسرع وإلا أغرقني المطر!

وتقابلنا! هو، ملتحفاً بغطاء، هبط إلى جذع شجرة صفصاف منخفض ليطلعني على كيفية الصعود، وذلك من خلال مسار معقد على فروع الأشجار وصولاً إلى جذع من شجرة الزان الطويل، والذي كان منه يأتي ذلك الضوء. أعطيته من فوري المظلة، وبعضاً من اللفائف، وحاولنا التسلق والمظلات مفتوحة، ولكن الأمر كان مستحيلاً، فابتللنا تماماً. وأخيراً وصلت حيث قادني، ولم أر شيئاً، فقط ضوءاً خافتاً مثل الذي يظهر من أطراف خيمة.

رفع كوزيمو أحد تلك الأطراف وجعلني أمرّ. وفي ضوء مصباح وجدت نفسي فيما يشبه الحجرة الصغيرة، مغطاة ومغلقة من كل جانب بستائر وسجاجيد، ويمر بداخلها جذع الشجرة، وبدعامات من كل جانب، تستند على الفروع الضخمة. ولأول وهلة بدا لي مقراً فخماً، ولكنني سرعان ما

أدركت كم كان متزعزعًا. فبوجودنا نحن الاثنين بالداخل تعرض توازنها للخطر، واهتم كوزيمو على الفور بإصلاح الثغرات والأجزاء التي هبطت ووضع أيضًا المظلتين اللتين أحضرتهما في الخارج مفتوحتين، وذلك لتغطيا ثقبين في السقف؛ ولكن المياه كانت تتساقط من نقاط أخرى عديدة، وغمرتنا المياه نحن الاثنين، وأما من ناحية الجو فكان وكأننا نقف في الخارج. ولكننا كدسنا فوقنا كمية كبيرة من الأغطية غطتنا تمامًا وتركنا رأسنا فقط في خارجها. كان المصباح يبعث ضوءًا خافتًا مهتزًا، وفوق سقف ذلك المبنى الغريب وجدرانه كانت الأغصان والأوراق ترسل ظلالاً متشابكة. أخذ كوزيمو يرتشف عصير التفاح بجرعات كبيرة وهو يصدر أصواتًا غريبة.

قلت له: إنه منزل جميل.

سارع كوزيمو بالرد قائلاً: آه، إنه منزل مؤقت، يجب أن أدرسه بشكل أفضل.

- هل بنيته بمفردك؟

- ومع مَن إذن؟ إنه مكان سري.

- ولكن يمكنني المجيء؟

- لا، وإلا سترشد الآخرين إلى الطريق.

- قال أبي إنه لن يرسل أحدًا للبحث عنك بعد الآن.

- ومع هذا يجب أن يظل مكانًا سريًا.

- بسبب هؤلاء الصبية اللصوص؟ ولكن أليسوا أصدقاء؟

- أحيانًا نعم، وأحيانًا لا.

- والفتاة التي تمتطي المُهر؟

- وماذا يهمك في ذلك؟

– أريد أن أقول إن كانت صديقتك، وإن كنت تلعب معها.

– أحيانا يحدث، وأحيانًا لا.

– لماذا أحيانًا لا؟

– أحيانًا لا أرغب أنا في ذلك، وأحيانًا ترفض هي.

– وهنا، هنا في هذا المكان، هل ستحضرها إلى هنا؟

كان كوزيمو ـ ووجهه قاتم اللون ـ يحاول أن يفرد حصيرة فوق أحد الفروع. قال بجدية... إذا أتت هنا سأتركها تصعد.

ـ ألا تريد هي ذلك؟

ارتمى كوزيمو راقدًا.

ـ لقد رحلت.

ـ قلت له بصوت منخفض: قل لي، هل أنتما خطيبان.

ـ لا. أجابني أخي ثم انسحب في صمت طويل.

ـ في اليوم التالي كان الجو صحوًا، وكان قد تقرر أن يستأنف كوزيمو دروس الأب فلوشيلافلور، ولكن لم يقل أحد كيف. فبكل بساطة، وفي حركة مفاجئة، دعا البارون الأب (بدلاً من أن يجلس هنا ويحملق في الذباب) أن يذهب ويبحث عن أخي حيث يوجد، ويجعله يترجم جزءًا من أعمال فيرجيليو. ثم خشي أن يكون قد وضع الأب في حرج شديد. فحاول تخفيف هذا العبء عنه وقال لي:

اذهب وقل لأخيك أن يكون في الحديقة خلال نصف ساعة للبدء في درس اللغة اللاتينية. وقال هذا بنبرة حاول أن تكون طبيعية بقدر الإمكان، وهي النبرة التي أراد أن يتعامل بها من الآن فصاعدًا: فمع وجود كوزيمو فوق الأشجار كل شيء يجب أن يستمر كما كان.

وهكذا بدأ الدرس. جلس أخي ممتطيًا أحد فروع شجرة الدردار وساقاه تتدليان، والأب جالس في أسفل على العشب فوق مقعد صغير وهو يردد بصوت جهوري أبياتًا شعرية كنت أنا ألعب بالقرب منهما، واختفيا عن بصري لفترة. وعندما عدت كان الأب هو أيضًا فوق الشجرة، وكان يحاول بساقيه النحيفتين الطويلتين بداخل جوربيه الأسودين أن يصعد فوق أحد الفروع، وكان كوزيمو يساعده جاذبًا إياه من أحد مرفقيه. وأخيرًا عثرا على وضع مريح للأب المسن، وأخذا معًا ينجزان فقرة صعبة وهما منحنيان فوق الكتاب. ويبدو أن أخي أثبت مهارة شديدة.

ثم لا أعرف ماذا حدث، وكيف هرب الطالب بعيدًا، ربما لأن الأب هناك في أعلى قد شرد وهو يحملق في الفضاء كعادته، وواقع الأمر هو أن بين الأغصان كان يقبع الراهب الأسود اللون وحيدًا، والكتاب على ركبتيه، وكان ينظر إلى فراشة بيضاء ترفرف، وكان يتبعها مندهشًا فاتحًا فمه.

وبمجرد أن اختفت الفراشة أدرك الأب أنه هناك فوق قمة الشجرة، وانتابه الخوف. احتضن جذع الشجرة، وبدأ يصرخ: النجدة! النجدة! حتى هرع إليه بعض الخدم ومعهم سلم، ورويدًا رويدًا هدأ وهبط من فوق.

- ٩ -

على كل حال، وبكل ما لهروبه من شهرة، كان يعيش بجوارنا تقريبًا كسابق عهده. كان وحيدًا لا يهرب من الناس، بل لعلنا نقول إنه لم يكن يهتم سوى بالناس. كان يذهب فوق الأماكن التي يوجد الفلاحون فيها يعزقون الأرض، أو ينثرون السماد، أو يحشون الحشائش، وكان يلقي عليهم بكلمات التحية الرقيقة. كانوا هم يرفعون رءوسهم دهشين، وكان هو يحاول أن يفصح لهم على الفور عن مكانه، حيث إنه كان قد فقد العادة السيئة التي كثيرًا ما مارسناها ونحن نتسلق معًا الأشجار قبل ذلك؛ بأن نطلق أصواتًا، وأن نسخر من الناس الذين كانوا يسيرون على الأرض.

في الفترات الأولى، عندما كان الفلاحون يرونه، وهو يعبر كل هذه المسافات فوق فروع الأشجار، كانوا لا يدركون ولا يعرفون كيف يردون تحيته؛ هل بأن يرفعوا قبعاتهم كما يفعلون مع السادة، أم بأن ينهرونه وكأنه أحد المتشردين. ثم اعتادوا الأمر، وكانوا يتبادلون معه الحوار حول العمل، والطقس، بل كانوا يبدون أيضًا تقديرهم للعبته وبقائه فوق الأشجار، فهي ليست لعبة أجمل أو أسوأ من ألعاب أخرى كثيرة يرون السادة يمارسونها.

وكان هو يمكث ساكنًا لأنصاف ساعات فوق الشجرة يراقب أعمالهم، وكان يطرح الأسئلة حول عمليات التسمين والبذر، وهو ما لم يكن يتاح له ألبتة وهو يسير فوق الأرض، حيث كان يعوقه ذلك الانطواء عن أن يتوجه بالحديث إلى القرويين والخدم. وأحيانًا كان يخبرهم إذا كان الخط الذي يعزقونه معتدلاً أم معوجًا، أو إذا كانت ثمار الطماطم قد نضجت بالفعل في حقل جارهم. وأحيانًا أخرى كان يتطوع بأن يقدم لهم خدمات توصيل صغيرة، مثل أن يذهب ليقول لزوجة أحد الحصادين بأن ترسل له مشحذًا، أو أن يبلغ بأن يحوِّلوا المياه إلى أحد البساتين. وعندما كان يتحرك في مهام تستدعي الثقة، مثل هذه المهام، من أجل المزارعين، و كان عندما يرى العصافير تحط على أحد حقول القمح، يحدث ضجيجًا، ويحرك قلنسوته لكي يبعدها عنه.

وفي خلال جولاته وحيدًا في الغابات كانت اللقاءات الإنسانية - على ندرتها- تترك آثارها في نفسه، تلك اللقاءات مع أشخاص لم نكن لنقابلهم قط. ففي تلك الأزمنة كان هناك كثير من الجوّالين يأتون ليخيموا في الغابات، كالفحامين، وعمال التدفئة، وصناع الزجاج، كانوا عائلات دفعها الجوع بعيدًا عن قراها، وذلك لتحصل على طعامها من مهن غير ثابتة. كانوا يقيمون ورشهم في الهواء الطلق، يقيمون أكواخًا من فروع الأشجار ليناموا فيها. في البداية، كان الشاب المغطى بالفراء الذي يسير فوق الأشجار يخيفهم، وخاصة النساء اللاتي كن يعتقدن أنه روح شخص مجنون. ولكنه بعد ذلك كوّن معهم صداقات، وكان يمكث بالساعات يراقبهم وهم يعملون؛ وفي المساء عندما كانوا يجلسون حول النار، كان هو يجلس على فرع شجرة قريب ليستمع إلى القصص التي يقصونها.

كان الفحامون المقيمون في الساحة الممهدة بتراب رمادي اللون، أكثرهم عددًا، وكانوا يصيحون"هورا اهوتا ا" لأنهم كانوا من بيرجامو، ولم يكن حديثهم مفهومًا بالنسبة إلينا. كانوا أقوى التجمعات، وكانوا منغلقين

مرتبطين فيما بينهم: كانوا طائفة تنتشر في الغابات كلها، تربطهم علاقات عائلية، وعلاقات، ومشاحنات. وكان كوزيمو أحيانًا يقوم بدور الوسيط بين جماعة وأخرى، وينقل إليهم الأخبار، ويكلفونه ببعض المهام.

- قال لي الساكنون أسفل شجرة البلوط الحمراء أن أخبركم إن "هانفًا لا هابًّا هوتا الهوك"!

- لتجبهم أن : هيجن هوبت هو دي هوت!

كان هو يحفظ في ذهنه كل تلك الأصوات الهائية الغامضة، ويحاول أن يكررها، كما كان يحاول أن يردد تغريد الطيور التي توقظه في الصباح.

وإذا كان بالفعل قد انتشر خبر أن ابن بارون روندو لم ينزل من فوق الأشجار منذ أشهر، كان والدنا ما زال يحاول إخفاء الخبر عن من يأتون من الخارج.

جاء لزيارتنا الكونت دي إيستوماك وعائلته، في طريقهم إلى فرنسا، فلهم في خليج طولون بعض الأملاك، وفي أثناء رحلتهم أرادوا التوقف عندنا.

ولا أعرف ما وراء هذه الزيارة من مصالح؛ ربما للمطالبة ببعض الأملاك، أو تأكيد منح الإبراشية لأحد أبنائهم وهو أسقف، كانوا بحاجة إلى موافقة بارون روندو، وبالطبع كان والدنا يتوهم على هذا التحالف قصورًا من المشروعات خاصة بمطالبته بالسيادة على أومبروزا.

أقيمت لهم مأدبة غداء، غاية في الملل من كثرة ما قاموا به من المبالغة في التحية، وكان مع الضيوف ابن متأنق وحريص، يرتدي الباروكة. قدم البارون الأبناء، أي أنا فقط، وأضاف قائلاً :

- مسكينة ابنتي باتيستا، تعيش منعزلة. وهي تقية جدًا، لا أدرى هل سيمكنكم رؤيتها أم لا، وإذا بتلك الغبية تحضر وهي ترتدى غطاء رأس راهبة إلا أنه موشًّى ومحلى بالشرائط الملونة، وتضع المساحيق على وجهها،

وترتدي القفازات القصيرة. كان ينبغي أن نتفهم تصرفها، فهي منذ أن رأت ذات مرة ماركيز ميلا الشاب لم تر شابًا آخر إلا بعض الصبية والفلاحين. انحنى أمامها الكونت الشاب انحناءات عديدة، وأخذت هي تضحك ضحكات هيستيرية. أما البارون الذي كان قد فقد كل أمل في ابنته، فقد بدأت تدور في ذهنه مشروعات جديدة محتملة.

ولكن الكونت حاول أن يتظاهر باللامبالاة، وسأل:

ـ ولكن أليس لديكم ابن آخر أيها السيد أرمينيو؟!

ـ قال والدنا: نعم، ولكنه، للأسف، خرج اليوم للصيد.

ولم يكن يكذب في ذلك؛ لأنه في تلك الفترة كان كوزيمو في الغابة دائمًا يحمل بندقيته يراقب الأرانب والعصافير. وكنت قد أعطيته تلك البندقية الخفيفة التي كانت باتيستا تستخدمها ضد الفئران، والتي ـ بعد أن أهملت عمليات الصيد ـ تركتها معلقة منذ فترة على أحد المسامير.

أخذ الكونت يسأل عن حيوانات الصيد الموجودة في المنطقة، والبارون يجيبه إجابات عامة؛ لأنه نظرًا لقلة صبره وعدم انتباهه للعالم من حوله، لم يكن يعرف الصيد. وتدخلت أنا في الحديث، مع أنه كان ممنوعًا أن أتفوّه بكلمة وأتدخل في أحاديث الكبار.

ـ قال الكونت ـ وأنت كيف تعرف هذا أيها الصغير؟

ـ لأنني أذهب لأخذ الحيوانات التي يصطادها أخي وأضعها له فوق.

وكنت على وشك أن أكمل، ولكن أبي قاطعني:

ـ من الذي دعاك إلى الحديث؟ اذهب لتلعب!

كنا في الحديقة، وكان المساء، وكانت السماء مضيئة فقد كنا في فصل الصيف. وإذا بكوزيمو يأتي من بين أشجار الدلب والدردار، ويتقدم نحونا بكل هدوء مرتديًا قلنسوته التي صنعها من فراء القط البري فوق رأسه، و

حاملاً البندقية حول رقبته، ومن الناحية الأخرى يحمل سفودًا، وساقاه في طماقهما.

نهض الكونت، وأخذ يحرك رأسه ليرى بشكل أفضل وهو يصيح مستمتعًا:

ـ من هناك؟ من الذي هناك فوق الأشجار؟

لم ينظر والدنا في الاتجاه الذي يشير إليه الكونت، إنما أخذ ينظر إلى عيني الكونت ليتأكد أنه يرى جيدًا وقال:

ـ ماذا هناك؟ لا أعرف.ربما ظهر لك.

وفي ذلك الوقت كان كوزيمو قد وصل فوقهما تمامًا، ثابتًا وساقاه منفرجتان فوق أحد الفروع.

ـ آه، إنه ابني، أجل، كوزيمو، أفعال صبية! ليفاجئنا، تسلق إلى قمة الشجرة ليفاجئنا.

ـ أهو ابنك الأكبر؟

ـ نعم، إنه الأكبر بين الولدين، ولكن ليس بكثير، أتعرف أنهما ما زالا طفلين. يلهوان.

ـ ولكنه ماهر جدًا في السير فوق الفروع، وبكل تلك المعدات على كتفيه.

ـ آه، يلعبون.

وبمجهود بشع بسبب عدم الثقة التي جعلت وجهه يضرج بالحمرة قال:

ـ ماذا تفعل هناك؟ هيا؟ انزل؟! تعال لتصافح السيد الكونت!

خلع كوزيمو قلنسوته المصنوعة من فراء القط، وانحنى قائلاً:

ـ تشرفنا يا سيدي الكونت.

ـ ضحك الكونت: ها ها ها! رائع، بارع. اتركه يمكث في أعلى، اتركه يمكث في أعلى يا سيد أرمينيو! إنه شاب بارع، يسير فوق الأشجار. واستمر في الضحك.

أما ذلك الكونت الصغير الأبله فقال:

ـ شيء فريد من نوعه، فريد جداً؟

فلم يكن يعرف سوى أن يكرر ما يُقال.

جلس كوزيمو هناك على الفرع وغيّر أبي موضوع الحديث، وأخذ يتحدث ويتحدث في محاولة منه لشغل الكونت. ولكن الكونت كان يرفع عينيه كل فترة لينظر إلى أخي الجالس فوق، على هذه الشجرة أو تلك، ينظف بندقيته، أو يدهن طماقه بالشحوم، أو وهو يرتدي ملابسه الثقيلة بسبب اقتراب الليل.

ـ آه، انظر! إنه يعرف كيف يقوم بكل شيء هناك فوق الأشجار، ذلك الشاب! آه، كم يعجبني! آه، سأقص كل ذلك في البلاط، بمجرد أن أذهب إلى هناك! سأحكيه أيضًا لابني الأسقف! وسأقصه على خالتي الأميرة!

كاد أبي ينفجر، وكان، بالإضافة إلى ذلك، يفكر في شيء آخر؛ لم يكن يرى ابنته، وكان الكونت الصغير أيضًا قد اختفى عن الأنظار.

وكان كوزيمو قد اختفى في إحدى جولاته الاستكشافية، وعاد مقطوع الأنفاس وقال:

ـ جعلته يشرق! جعلته يشرق!

قلق الكونت وقال: آه شيء مؤسف. إن أبني يعاني الشرقة كثيرًا. اذهب أيها الشاب البارع لترى إذا كانت قد انتهت، وقل لهما أن يعودا.

قفز كوزيمو مبتعداً، ثم عاد أكثر إنهاكًا من ذي قبل: إنهما يجريان، فباتيستا تريد أن تضع له سحلية حيّة داخل قميصه لتذهب عنه "الزغطة" ولكنه لا يريد! ثم مضى ليرى مرة أخرى.

وهكذا قضينا ذلك المساء في الفيلا، ولكنها في الحقيقة لم تكن أمسية مختلفة عن الأمسيات الأخرى، فكوزيمو هناك فوق الأشجار يشارك سرًا في حياتنا، ولكن في هذه المرة كان هناك الضيوف، وأخذت شهرة سلوك أخي الغريب تنتشر في كل بلاطات أوربا، وشعر لهذا والدنا بالعار. وهو عار لا مبرر له، إذ إن كونت إيستوماك قد أخذ انطباعًا حسنًا عن عائلتنا، وهكذا تمت خطبة أختنا باتيستا للكونت الصغير.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ ١٠ ـ

كانت أشجار الزيتون بمسارها المعوج طرقًا مريحة ومستوية لكوزيمو، نباتات صبور وصديقة، لها لحاء خشن ليسير فوقها وليتوقف عليها، مع أن الفروع الضخمة قليلة في كشجرة، ولا توجد فيها تفريعات كثيرة في الحركة.

ولكن فوق إحدى أشجار التين، وفي محاولة دائمة منه أن تتحمل وزنه، لم ينته قط من التجوال. يمكث كوزيمو أسفل أجنحة الأوراق، ويرى من بين تضليعاتها ضوء الشمس، والثمار الخضراء وهي تنتفخ رويدًا رويدًا. ويستنشق العصارة اللبنية وهي تسيل في عنق الزهور. إن شجرة التين تحولك إلى جزء لا يتجزأ منها، تطبع عليك سائلها اللزج وتصم أذنيك بطنين زنابيرها، وبعد فترة شعر كوزيمو أنه هو ذاته بدأ يتحول إلى شجرة تين، فاستاء لذلك ورحل بعيدًا عنها.

أما على شجر الغبيراء الغليظ، وعلى شجر التوت الأسود فهو يرتاح كثيرًا، ولكنها ـ مع الأسف ـ أشجار نادرة. وهكذا أيضًا بالنسبة إلى أشجار الجوز، وهي تعجبني أنا أيضًا، فقط بالكلام، لأنني أحيانًا عندما كنت أرى أخي وهو يختفي بداخل شجرة جوز كبيرة عجوز، وكأنها قصر مكون من

عدة طوابق، وعدد لا حصر له من الغرف، كنت أشعر بالرغبة في أن أقلده، وأن أذهب وأمكث هناك فوق؛ لما لتلك الأشجار من قوة وثبات استخدمتهما حتى صارت أشجارًا، ولما لها من إصرار على أن تكون ثقيلة، وقوية ويتضح هذا أيضًا في أوراقها.

وكان كوزيمو يحب المكوث أيضًا بين أوراق أشجار البلوط المتموجة (أو السنديان كما أطلقت عليها طالما الأمر تعلق بأشجار حديقتنا، ربما بسبب تأثير اللغة المنتقاة التي يستخدمها والدنا). وكان يحب فيها لحاءها المتشقق، والذي كان ينزع أجزاءه بأظافره عندما كان ينهمك في التفكير، ليس بدافع فطري لارتكاب شيء شرير، وإنما ليساعد الشجرة في مهمتها العسيرة في إعادة تجديد نفسها. وكان يقوم أيضًا بتقشير لحاء شجر الدلب الأبيض، ليكتشف طبقات ذهبية اللون متعفنة. وكان يحب أيضًا الجذوع المدرجة كما لشجرة الدردار، والتي كانت في مواجهة الأجسام الغريبة تفرز من براعمها أغصانًا طرية ومجموعة من الأوراق المسننة، ومن الثمار المورقة. ولكن فوق هذه الأشجار يصعب التحرك لأن أغصانها تصعد إلى أعلى، رفيعة وكثيفة، تاركة القليل من الممرات. وفي الغابات كان يفضل أشجار الزان والبلوط، لأنه فوق أشجار الصنوبر كانت فروع الأغصان المتقاربة جدًا، وهي ليست قوية ولكنها مليئة بالإبر، لا تترك مساحة ولا مكانًا للتشبث؛ وكانت أشجار الكستناء بأوراقها المسننة، وثمارها الإبرية، ولحائها، وأغصانها المرتفعة تبدو وكأنها خُلقت كذلك خصيصًا بغرض إبعاد البشر عنها.

وقد عرف كوزيمو تلك المميزات وتلك الفروق فيما بعد، بمرور الوقت، رويدًا رويدًا، أو على الأقل أدرك أنه يعرفها، ولكنها كانت بالفعل موجودة كجزء منه في تلك الأيام، وكأنها فطرة طبيعية. لقد أصبح العالم الآن متباينًا بالنسبة إليه، عالم من الجسور المعلقة في الهواء، ومن العقد والقشور والتجعدات التي تجعل اللحاء خشنًا، والأضواء التي تغير

اخضرارها تبعًا لستار الأوراق إن كانت كثيفة أو نادرة، فترتعش مع الهواء الذي يحرك أغصانها أو التي تتحرك معًا كالقلع بمجرد انحناء الأشجار. في حين أن عالمنا نحن، كان عالمًا يتسطح هناك بعيدًا، وكانت هيئاتنا صورًا غير متناسقة، وبالتأكيد لم نكن نفهم أي شيء عما يعرفه هو هناك من أعلى، وهو الذي كان يقضي الليالي يستمع إلى الخشب، وكيفية ضغطه على خلاياه ليكون الدوائر التي تشير إلى عمره بداخل الجذوع، وكيف أن الفطريات تنشر بقعها مع هبوب الرياح الشمالية، وكيف ترتعش العصافير النائمة بداخل أعشاشها وهي تحرك رؤوسها برجفة لتبحث عن ريش أجنحتها الناعم، وكيف تستيقظ الشرنقة، وتفرخ بيضة طائر الصرد. وهناك أيضًا اللحظة التي فيها يختلط صمت الريف بداخل تجويف الأذن في غبار من الأصوات، مع نحيب الغراب والصفير، والحفيف السريع بين الأعشاب، وخرير المياه، والخشخشة بين الأرض والأحجار، وصرير صرصور الليل الذي يرتفع فوق كل الأصوات الأخرى. وتتوالى تلك الأصوات، ويبدأ السمع في تمييز كل ما هو جديد منها، مثله مثل اليد التي تفرد الصوف، ويظهر كل خيط رفيع وقوي به وقد تشابك مع خيوط أرفع وأدق. وفي هذه الأثناء تستمر الضفادع في نقيقها الذي يظل هناك كخلفية ولا يتغير تدفق الأصوات، كما لا يتغير الضوء نتيجة لتلألؤ النجوم المستمر. ولكن مع كل هبوب للرياح وسريانها يتغير كل ضجيج ويصير جديدًا. إلا أنه يبقى دائمًا في أعمق تجاويف الأذن ظلال صوت خرير أو حفيف: كان هذا هو صوت البحر.

وحل فصل الشتاء، صنع كوزيمو لنفسه معطفًا من الفراء، خاطه هو بنفسه من أجزاء جلود حيوانات متنوعة اصطادها: أرانب، ذئاب، سمور، وسناجب. وكان يضع دائمًا فوق رأسه تلك القبعة التي صنعها من فراء القط البري. صنع أيضًا سروالاً من شعر الماعز وجعل قاعدته وركبتيه من الجلد. وفيما يتعلق بالحذاء، أدرك كوزيمو أخيرًا أن أفضل شيء للسير

فوق الأشجار هو الخف، وصنع خفًا لا أعرف من أي جلد، وربما كان جلد الغُرير.

وهكذا كان يحتمي من البرد. وينبغي أن أقول إن الشتاء في ذلك الوقت كان معتدلاً، ولم يكن ذلك البرد الذي أخرج نابليون من وكره في روسيا ـ كما يُقال الآن ـ وجعل يطارده حتى قاده إلى هنا. ولكن في ذلك الوقت أيضًا لم يكن البقاء في الخلاء في الليل شيئًا هينًا.

وكان كوزيمو قد عرف نظام القربة الجلدية؛ فلم يعد يستخدم الخيام أو الأكواخ: صنع قربة من الجلد شعرها من الداخل، وعلقها فوق أحد الأغصان. وكان يدخل بداخلها ويختفي تمامًا وينام منكمشًا كالأطفال. وإذا قطع صوت غير معتاد سكون الليل، كانت القبعة الفرو هي أول ما يخرج من فوهة القربة، تليها فوهة البندقية، ثم يخرج محملق العينين. (كانوا يقولون إن عينيه قد أصبحتا مضيئتين في الظلام كعيون القطط والبوم؛ ولكنني شخصيًا لم ألحظ هذا قط).

ولكن في الصباح عندما كان يبدأ طائر أبي رزيق في التغريد، كانت تخرج من القربة قبضتان ترتفعان ثم ذراعان تتسعان وهما تمتدان ببطء، وكان مدّ الذراعين هذا يرفع إلى الخارج أيضًا وجهه وهو يتثاءب، يليه جذعه والبندقية معلقة في رقبته، ومعه كيس البارود، وفي النهاية يخرج ساقيه المقوستين (كان ساقاه قد بدأتا في التقوس لاعتياده البقاء والتحرك زحفًا أو القرفصاء). وكانت ساقاه تقفزان إلى الخارج، ثم يبسطهما. وهكذا بحركة من ظهره، وحكة أسفل سترته الجلدية، كان كوزيمو يبدأ يومه يقظًا ويانعًا مثل وردة من الورود.

كان يذهب إلى النافورة، لأنه كان قد صنع لنفسه نافورة معلقة، أو الأفضل أن نقول، إنه ساعد الطبيعة وبناها: كان هناك جدول ينزل كالشلال عند مسقط معين، وبجواره كانت هناك شجرة بلوط ترفع أغصانها. أخذ كوزيمو قطعة لحاء من شجرة حور، طولها نحو مترين،

وصنع منها ميزابًا، ينقل به المياه من الشلال إلى أغصان شجرة البلوط، وهكذا كان يستطيع الشرب والاغتسال. وأستطيع أن أؤكد أنه كان يغتسل، لأنني رأيته يقوم بذلك مرات عدة؛ ليس كثيرًا، وليس بصفة يومية، ولكنه كان يغتسل، وكان لديه حتى الصابون. بل بالصابون كان أحيانًا، عندما يرغب فجأة في ذلك، يغسل ملابسه، وكان قد أحضر لهذا الغرض وعاء للغسيل فوق شجرة البلوط. ثم إنه كان يفرد ملابسه لتجف على حبل معلق بين فرعين.

كان يقوم بكل شيء فوق الأشجار، وكان قد عثر أيضًا على الطريقة التي يشوي بها على السيخ الحيوانات التي يصطادها، من دون أن ينزل. كان يفعل ما يلي: كان يشعل النار في ثمرة صنوبر بواسطة فولاذة للقدح، ثم يلقيها على الأرض في مكان معد للنار (والذي كنت قد أعددته أنا له، ببعض الأحجار الملساء)، ثم يلقي فوقها بأغصان وفروع جافة، ويضبط النيران بمجرفة وماشات مربوطتين في عصى طويلة، بحيث يصل إلى السيخ المستند إلى فرعين. وكان كل ذلك يتطلب حرصًا شديدًا، فما أسهل أن يشتعل حريق في الغابة. ولذلك كان ذلك الموقد هو أيضًا أسفل البلوطة، قريبًا من الشلال الذي كان يمكن أن يأخذ منه ـ في حالة الخطر كل المياه اللازمة.

وهكذا، كان يأكل أحيانًا مما يصطاده، وأحيانًا أخرى كان يبادله مع الفلاحين بالفاكهة والخضراوات، فكان يعيش حياة طيبة بالفعل، من دون أن يحتاج إلى أي شيء من المنزل. وفي أحد الأيام عرفنا أنه يشرب أيضًا لبنًا طازجًا كل صباح: فلقد صادق عنزة كانت تذهب تتسلق غصن شجرة زيتون، في موقع سهل على بعد شبرين من الأرض، لم تكن تتسلق؛ بل كانت تصعد برجليها الخلفيتين، وهكذا كان هو ينزل ومعه دلو فوق الغصن ويحلبها. وجرى الاتفاق نفسه مع إحدى الدجاجات، دجاجة حمراء، من بادوا، ماهرة جدًا. كان قد صنع لها عشًا سريًا، في فجوة أحد الجذوع، وكان يجد فيه بيضة كل يومين، يشربها بعد أن يثقبها ثقبين بدبوس.

مشكلة أخرى؛ كيف يقضي حاجته. في البداية كان يقضيها هنا أو هنالك، ليس مهمًا، فالعالم كبير، وكان يفعلها حيثما شاء. ثم أدرك أن هذا لم يكن شيئًا جميلاً. عندئذ وجد على شاطئ مجرى ميردانزو، شجرة حور تبرز عند نقطة ملائمة ومنزوية وبها غصن يمكنه الجلوس عليه بارتياح. وكان الماردانزو مجرى مائيًا قاتم اللون مختبئًا بين الأعواد، تجري مياهه سريعة، وكانت البلاد المجاورة تلقي فيه مياه المجاري. هكذا كان الشاب البيوفيسكي دي روندو يعيش بطريقة متحضرة محترمًا جاره ونفسه.

ولكن كانت هناك ضرورة إنسانية تنقصه في حياته كصياد؛ كان ينقصه كلب. كنت أنا موجودًا، كنت ألقي بنفسي في الأدغال وبين الأعشاب لأبحث عن العصافير حمراء الذيل، ودجاج الحقل والسمان التي كانت تسقط عندما تصيبها طلقته في وسط السماء، أو ثعلبًا يرديه أرضًا بعد ليلة كاملة من المراقبة، عندما يرى ذيله الطويل ممددًا بمجرد خروجه من كهفه. ولكني كنت أنجح في الهروب واللحاق به في الغابات مرات معدودة وقليلة فقط؛ فلقد كانت تمنعني دروسي مع الأب الراهب، والدراسة وخدمة القداس، وتناول الوجبات مع والدي، والواجبات العديدة المتعلقة بالحياة العائلية التي كنت أخضع لها، ففي واقع الأمر كانت العبارة التي أسمعها تتكرر كثيرًا هى: " في كل عائلة يكفي وجود متمرد واحد"، وهي عبارة لم تكن بلا سبب، وتركت بصماتها على حياتي كلها.

إذن كان كوزيمو يذهب إلى الصيد دومًا بمفرده تقريبًا، وليحصل على صيده (عندما لا يصادف طائر الصفارية، والذي يمكث معلقًا على أحد الفروع بجناحيه الأصفرين اليابسين)، كان يستخدم شيئًا شبيهًا بآلة الصيد: سنارة وخيوطًا، وخطافات أو شصًا، ولكنه لم يكن ينجح دائمًا في ذلك، وأحيانًا كان الأمر ينتهي بدجاجة الحقل وقد غطاها النمل في أعماق علّيقة.

وحتى الآن لم أسرد سوى واجبات كلاب الصيد، لأن كوزيمو آنذاك لم يكن يقوم إلا بالصيد مختبئًا، كان يمكث طيلة الصباح أو الليل راقدًا على أحد الفروع منتظرًا أن يمر عصفور أحمر الذيل فوق قمة إحدى الأشجار، أو أن يظهر أحد الأرانب في إحدى فسحات المرعى. وإذا لم يحدث هذا كان يدور بلا هدف، متتبعًا غناء الطيور، أو محاولاً تخمين أكثر المواقع المحتمل فيها العثور على الحيوانات ذات الفراء. وعندما كان يسمع نباح كلاب الصيد خلف أرنب أو ثعلب، كان يعرف أنه يجب أن يبتعد، لأن ذلك الحيوان ليس له، فهو مجرد صياد وحيد وعشوائي. ونظرًا إلى أنه كان يحترم القواعد، حتى وإن كان يستطيع من مواقعه الرائعة للرؤية أن يلحظ ويصيب الحيوان المستهدف، والذي تطارده كلاب الآخرين، لم يكن يرفع بندقيته قط. كان ينتظر أن يصل الصياد المنهوك بأذنيه المسترقتين للسمع وعينيه الزائغتين، ويشير له إلى الاتجاه الذي سلكه الحيوان.

في أحد الأيام رأى ثعلبًا يجري: كان كموجة حمراء في وسط الحشائش الخضراء، وكنفخة وحشية وبشوارب حادة، عبر المرعى، واختفى في الكهوف. وخلفه أخذت الكلاب تنبح. وصلت الكلاب راكضة وهي تفحص الأرض بأنوفها، مرتين من دون أن تشم رائحة الثعلب ثم استدارت بزاوية مستقيمة.

وكانت قد ابتعدت بالفعل عندما اخترق بنباحه المستمر المُلح الحشائش، كان يقفز قفزات كالسمكة وليس كالكلب، كأنه درفيل من الدرافيل يسبح يظهر منه رأس مُدبب وأذنان مدليتان أكثر من تلك التي لكلاب الصيد. ومن الخلف، كان يبدو بالفعل كسمكة، كان يبدو وكأنه يسبح محركًا زعانفه، أو خفين وكأنه طير من الطيور السابحة، وكان طويلاً بلا سيقان. وخرج إلى المنطقة النظيفة: كان كلبًا من كلاب الصيد الألمانية من فصيلة الدشهند.

من المؤكد أنه انضم إلى جماعة كلاب الصيد وتأخر عنها نظرًا إلى أنه كان صغيرًا، بل جروا. تحولت ضوضاء كلاب الصيد إلى زمجرة غضب

لأنها فقدت الساحة، وتحول جريها معًا إلى شبكة من البحث بالأنوف حول منطقة جرداء إلا من نبات الجربارة، بنفاد صبر شديد للعثور من جديد على خيط الرائحة المفقودة، وبينما هي تفقد اندفاعها استغل بعضها الوضع للتبول بجوار حجر ما.

وهكذا لحق بها الدشهند بعدوه وفمه مرفوع إلى أعلى علامة على فوز ليس له ما يبرره، وكان يصدر - بلا سبب أيضًا - عواءً خبيثًا.

وعلى الفور استدارت كلاب الصيد نحوه تاركة للحظة بحثها عن رائحة الثعلب، وزمجرت وهي تكاد تهجم عليه وأفواهها مفتوحة للهجوم، إلا أنها سرعان ما استدارت بلا اهتمام وجرت بعيدًا.

كان كوزيمو يتابع الدشهند الذي كان يتحرك بخطوات غير محددة الاتجاه في هذه المنطقة، وبينما كان الدشهند يتأرجح بأنفه المشتت رأى الشاب فوق الشجرة، وبدأ يهز ذيله. كان كوزيمو مقتنعًا أن الثعلب ما زال مختبئًا هناك. وكانت كلاب الصيد قد ابتعدت، فقد كان نباحها يصل من بعيد من خلف الأجمة متقطعًا وبلا حماس، وكانت تدفعها أصوات الصيادين المختنقة والمحفزة.

قال كوزيمو للدشهند: هيا: هيا! ابحث!

بدأ الكلب الصغير في البحث بأنفه، وكان يلتفت كل فترة، وينظر إلى أعلى إلى الشاب الذي يقول له: هيا! هيا!

والآن لم يعد يراه. سمع صوت حركة بين الأجمات، ثم تفجر صوت العواء. كان قد عثر على الثعلب!

رأى كوزيمو الحيوان يهرب في المرعى، ولكن هل يستطيع أن يطلق النار على ثعلب عثر عليه كلب يمتلكه شخص آخر؟ ترك كوزيمو الثعلب يمر ولم يطلق عليه النار. رفع الدشهند فمه نحوه بنظرة كلب لا يفهم ولا يعرف هل من حقه ألا يفهم، وألقى بنفسه من جديد بأنفه إلى أسفل خلف الثعلب.

وها هو يجبره على الدوران ويعود به، هل كان يمكنه التصويب نحوه أم لا؟ ولم يفعل. نظر الدشهند، إلى أعلى نظرة كلها ألم. لم يعد ينبح وكان لسانه يتدلى أكثر من أذنيه، كان منهكًا، ولكنه استمر في الجري.

وكان صوته قد شتتت كلاب الصيد والصيادين. وعلى الدرب كان يجري عجوز يحمل بندقية بارود ثقيلة.

قال له كوزيمو: هيه! هل هذا كلبك؟

صرخ فيه العجوز الذي كان يستشيط غضبًا: فلتذهب إلى الجحيم أنت وكل أهلك، هل نبدو لك من الصيادين الذين يستخدمون الدشهند؟

أكمل كوزيمو مصرًا، حيث إنه أراد أن يتبع القاعدة: إذن سأصيد أنا الحيوان الذي يعثر عليه الدشهند.

أجابه ذلك العجوز: ولتصطد أيضًا القديس الذي تمجده! وجرى مبتعدًا.

أحضر له الدشهند الثعلب من جديد. عندئذ أطلق كوزيمو النار وصاده، فلقد أصبح الدشهند كلبه، وأطلق عليه اسم ماسيمو أُتيمو.

لم يكن ماسيمو أتيمو ملكًا لأحد، فلقد انضم إلى جماعة كلاب الصيد هاويًا. ولكن من أين أتى؟ وليكتشف كوزيمو ذلك، ترك الدشهند يقوده.

أخذ الدشهند يعبر -ملاصقًا للأرض- السياج والحفر، ثم كان يستدير ليرى هل سينجح الشاب الموجود في أعلى في اتباع مساره. كان الطريق غير مألوف لدى كوزيمو، حتى إنه لم يدرك على الفور إلى أين هم متجهان. وبمجرد أن أدرك أخذ قلبه يدق بعنف في صدره؛ كانا في حديقة ماركيزات أونداريفا.

كانت الفيلا مغلقة، والنوافذ موصدة بالعوارض؛ هناك نافذة واحدة فقط في بناء فوق سطح المنزل كانت تتخبط بسبب الرياح. وأصبح

للحديقة التي تركت بلا رعاية شكل غابة من غابات عالم آخر. وكان ماسيمو أتيمو يتحرك سعيداً بين طرقها، والتي غطتها الأعشاب، وبين أحواض الزرع المليئة بالحشائش المتيبسة وكأنه في منزله، وأخذ يطارد الفراشات، واختفى فجأة، ثم عاد وفي فمه شريط. دق قلب كوزيمو بقوة أكثر: ماهذا يا ماسيمو أُتيمو ؟ هيه؟ لمن هذا؟ قل لي!

ـ وأخذ ماسيمو أتيمو يهز ذيله.

ـ أحضره إلى هنا يا ماسيمو أتيمو!

هبط كوزيمو إلى فرع منخفض، وأخذ من فم الكلب تلك الخرقة الكالحة اللون، والتي كانت بالتأكيد أحد شرائط شعر فيولا، كما كان ذلك الكلب بالتأكيد كلب فيولا، ربما نسوه هنا عند انتقال العائلة في المرة الأخيرة. بل، يبدو الآن وكأن كوزيمو يتذكره في الصيف الماضي عندما كان جرواً صغيراً تمسكه الفتاة الشقراء في سلة معلقة بذراعها، ولعلهم أهدوه إليها في ذلك الوقت.

ـ ابحث، يا ماسيمو أتيمو!

وكان الدشهند يلقي بنفسه بين نباتات البامبو، ويعود ومعه تذكارات أخرى؛ الحبل الذي كانت تقفز به، قطعة من طائرة ورقية، مروحة.

وعلى قمة جذع أعلى شجرة في الحديقة حفر كوزيمو بطرف سيفه الصغير الاسمين "فيولا وكوزيمو"، ثم في أسفل بقليل، وهو واثق تمام الثقة أنه سيسعدها أيضاً حتى لو كانت تطلق عليه اسماً آخر ـ كتب: الكلب الدشهند ماسيمو الآن.

ومنذ ذلك الحين، وعندما كنا نرى الصبي فوق الأشجار كنا واثقين أنه إذا نظرنا إلى أسفل وفي مواجهته أو بالقرب منه سنرى الدشهند ماسيمو أتيمو وهو يهرول ببطنه الملامس للأرض. كان قد علمه البحث، والاصطياد، وإحضار الصيد؛ الأعمال التي تقوم بها كل كلاب الصيد، ولم

يكن هناك حيوان في الغابة لم يصطاداها معًا. كان ماسيمو أتيمو يتسلق بمخلبيه إلى أعلى جذع يستطيعه ليحضر؛ وكان كوزيمو يتدلى من فوق ليأخذ الأرنب أو طائر الحجل من فمه ويربت على رأسه. كانت علاقتهما الحميمة تكمن في هذا، وفي هذا كانت تكمن أيضًا كل سعادتهما. ولكن كان يجري بينهما باستمرار بين الأرض وفروع الأشجار، وبين أحدهما للآخر حوار يتميز بالذكاء، نباح من مقطع واحد، تجيبه طقطقة من اللسان والأصابع. كان ذلك هو الوجود الضروري الذي يمثله الإنسان للكلب والكلب للإنسان، لم يكن أحدهما يخذل الآخر قط، مع أنهما كانا مختلفين سواء عن كل البشر، أو عن كلاب الصيد الأخرى. من الممكن أن نقول إنهما كانا سعيدين بعلاقتهما تلك، سعادة الإنسان والكلب.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ١١ -

ظل الصيد، لفترة طويلة بالنسبة إلى كوزيمو في فترة المراهقة، هو عالمه الوحيد وصيد السمك أيضًا، لأنه كان يظل ينتظر بخيط الصيد ثعبان البحر، وأسماك السلمون المرقط في مستنقعات المياه الجارية. وكنا أحيانًا نعتقد أنه قد أصبحت لديه حواس وغرائز مختلفة عنا، وكانت تلك الأقمصة الجلدية التي حاكها ليرتديها تتفق تمامًا مع التغيير الكامل لطبيعته.

من المؤكد أن مكوثه باستمرار ملاصقًا للحاء الأشجار، وعيناه معلقتان تحدقان إلى حركة الريش والفراء وقشر الأسماك، وإلى تلك المجموعة الكبيرة من الألوان التي تمثلها مظاهر ذلك العالم، ثم ذلك اللون الأخضر الذي يجري كدماء من عالم آخر في عروق أوراق الأشجار؛ لكل أشكال الحياة هذه، البعيدة تمامًا عن الحياة الإنسانية، مثل ساق النبات، ومنقار العصفور، وخياشيم الأسماك، حدود العالم البرى الذي اندفع هو تمامًا إلى أعماقه، كانت لكل هذه العناصر القدرة على أن تؤثر على تشكيل روحه، وتفقده ملامحه الإنسانية. ولكن، ونظرًا إلى المواهب الكثيرة التي استطاع اكتسابها من وجوده وسط النباتات وصراعه مع الحيوانات، كان يتضح لي أكثر فأكثر كيف أن مكانه الحقيقي هو بالفعل هنا، في وسطنا.

ولكن، رغمًا عنه، أصبحت بعض العادات التي حاول الاحتفاظ بها نادرة، بل وبدأ يفقدها. مثلما حدث لعادة حضورنا الاحتفال بالقداس الكبير لأومبروزا. حاول كوزيمو أن يفعل ذلك في الأشهر الأولى. في كل يوم أحد، عندما كانت كل العائلة تخرج في حشد صغير مرتدية ملابس الاحتفالات، كنا نجده فوق الفروع، وهو أيضًا بطريقة ما كنا نجده يرتدي ملابس احتفالية، فعلى سبيل المثال كان يضع الفراك، أو قبعته الثلاثية القرون بدلاً من القبعة الفراء. كنا ننطلق، وكان هو يتبعنا بين الفروع، وهكذا كنا نسير في اختيال في طريق الكنيسة، تراقبنا كل أعين سكان أومبروزا (ولكن سرعان ما اعتادوا ذلك، وخف أيضًا ضيق والدنا) نحن جميعًا نسير على أقدامنا، وهو يقفز في منظر غريب، وخاصة في فصل الشتاء والأشجار عارية الأوراق.

كنا ندخل الكاتدرائية، ونجلس في الصف المخصص لعائلتنا، وكان هو يجلس في الخارج. كان يقبع على شجرة بلوط بجوار أحد الأروقة، تمامًا في ارتفاع نافذة كبيرة. ومن مقعدنا كنا نرى من وراء الزجاج ظلال الفروع، وكنا نلمح فوقها ظل كوزيمو ممسكًا بقبعته في صدره ورأسه منحنٍ. وباتفاق من والدنا مع أحد خدام الكنيسة كانت تلك النافذة تترك نصف مفتوحة في كل يوم أحد، هكذا كان أخي يستطيع أن يستمع إلى القداس من فوق شجرته. ولكن بمرور الوقت لم نعد نراه، وأغلقوا النافذة الزجاجية بسبب تيارات الهواء.

لم تعد أشياء كثيرة، كانت مهمة عنده، على القدر نفسه من الأهمية، في الربيع كانت خطوبة أختنا. من كان يمكنه تصديق ذلك، فقط منذ عام واحد؟ جاءت عائلة كونت إيستوماك ومعهم الكونت الصغير، وكان هناك احتفال كبير. كانت كل حجرة في قصرنا مضاءة، وجاء كل نبلاء الجوار، وكان الجميع يرقصون. من إذن كان يفكر في كوزيمو؟ لم يكن هذا حقيقيًا، فقد كنا جميعًا نفكر فيه.

كنت أنظر كل فترة خارج النوافذ لأرى هل سيحضر، وكان والدنا حزينًا، فمن المؤكد أن كل تفكيره كان متجهًا نحوه في وسط هذا الاحتفال، نحو من استبعد نفسه، والجنرالة التي كانت ترأس كل الحفلة وكأنها تقف في ميدان المعركة، كانت تريد فقط أن تهرب من آلامها لغيابه. وربما كانت باتيستا أيضًا تفكر فيه، باتيستا المنهمكة في الرقص، والتي بدت لي غريبة من دون ملابس الراهبة، مرتدية باروكة كأنها المرزبانية وثوبًا بتنورة متسعة ومطرزة بالمرجان، والذي لا أعرف أية حائكة تلك التي حاكته لها، حتى هي أراهن أنها كانت تفكر فيه.

وكان هو موجودًا - لم نره- ولكنني عرفت ذلك فيما بعد. كان متواريًا في الظل في قمة إحدى أشجار الدلب، يقف في البرد، وكان يرى النوافذ والضوء ينبعث منها، والحجرات مجهزة للحفلة، والأشخاص ذوي الباروكة وهم يرقصون. ما الأفكار التي كانت تمر بذهنه؟ هل شعر بالحنين، ولو قليلاً، إلى حياتنا؟ هل كان يفكر في كم كانت الخطوة التي تفصله عن العودة إلى عالمنا قصيرة؟ هل فكر كم هي قصيرة، وكم هي سهلة؟ لا أعرف فيما فكر، وماذا كان يريد وهو هناك. أعرف فقط أنه مكث طيلة الحفلة، وبعد ذلك أيضًا حتى أطفأنا الشمع واحدة تلو الأخرى، ولم تبق نافذة واحدة مضيئة.

واستمرت العلاقة إذن بين كوزيمو والعائلة، سواء بصورة حسنة أو سيئة. بل يمكن القول إنها توطدت مع أحد أفرادها، وفقط الآن يمكن القول إنه تعلم كيف يعرفه، وهو الفارس المحامى إينيا سيلفيو كاريجا.

ذلك الرجل المغيّب تقريبًا، بل الغامض، الذي لم ينجح أحد قط في معرفة أين يذهب، وماذا يفعل. اكتشف كوزيمو أنه الوحيد في عائلتنا الذي له عدد كبير من المهام. ليس هذا فقط؛ بل اكتشف أن كل ما كان يفعله مفيد.

كان يخرج، ربما في أكثر ساعات الظهيرة قيظًا واضعًا طربوشه على رأسه، وخطواته تتعثر في ردائه الطويل الذي يكاد يلامس الأرض، وكان يختفي وكأن ثغرات الأرض ابتلعته، أو السياج، أو أحجار الأسوار. حتى كوزيمو الذي كان يتسلى بأن يبقى دائمًا في وضع المراقبة (أو الأفضل أن نقول إنه لم يكن يتسلى، بل أصبحت تلك الآن هي حالته الطبيعية، وكأن عينيه تحتضنان أفقًا متسعًا يحتوى كل شيء)، وكان يفقد رؤيته عند موضع معين.

وأحيانًا كان يجري من فرع إلى فرع تجاه المكان الذي اختفى فيه، ولم يكن ينجح قط في معرفة أي الطرق سلك، ولكن كانت هناك علامة تظهر دائمًا عند اختفائه: نحل يطير. وانتهى الأمر أن اقتنع كوزيمو بأن وجود الفارس مرتبط بوجود النحل، وأنه لكي يصل إليه عليه اتباع طيران النحل.

ولكن كيف يمكن ذلك؟ فحول كل نبات مزدهر هناك طنين نحل. يجب إذن ألا ندع بعض المجموعات الهامشية والفردية تشتتنا، علينا اتباع الطريق الجوي غير المرئي الذي فيه يتكاثف طيران النحل حتى نرى سحابة مكثفة منه، ترتفع خلف سياج وكأنها الدخان. وهناك في أسفل كانت توجد المناحل، واحد أو أكثر، موضوعة في صف فوق إحدى الموائد، وفي وسط هذا السرب من النحل كان الفارس يقف.

كانت المناحل هذه أحد أنشطة عمنا السرية، سرية إلى حد ما، فلقد كان هو بنفسه يحضر على مائدة الطعام - من حين إلى آخر- خلايا نحل مليئة بالعسل نُزعت لتوها من المنحل، ولكنه كان نشاطًا يمارسه خارج محيط أملاكنا؛ في أماكن بالتأكيد (كما هو واضح) لم يكن يريد أن يعرف أحد عنها شيئًا. ولا بد أنه حرص على ذلك ليبعد دخل هذه الصناعة الشخصية عن إدارة أملاك عائلتنا الخاسرة؛ أو ربما - نظرًا إلى أن الرجل لم يكن بخيلاً، ثم ماذا كان يمكن أن يدر عليه بعض النحل والشمع؟ - لمجرد أن يكون لديه شيء لا يدس فيه أخوه البارون أنفه، ولا

يزعم فيه أنه يقوده من يده، أو ربما أيضًا حتى لا يخلط الأشياء القليلة التي يحبها، مثل رعاية النحل، بالأشياء الكثيرة التي لا يحبها، مثل إدارة الأعمال.

على كل حال يبقى أيضًا واقع أن والدنا لم يكن سيسمح أبدًا بأن يجعله يحتفظ بالنحل بالقرب من المنزل؛ لأن البارون يعاني فزعًا - غير مبرر - من أن تلسعه نحلة. وإذا تصادف أن اقتحمت نحلة أو دبور الحديقة يبدأ في الجري هربًا بين طرقات الحديقة، واضعًا يده على رأسه مثبتًا باروكته وكأنه يحمي نفسه من هجوم صقر. وفي إحدى المرات وهو يفعل ذلك طارت الباروكة بعيدًا، واندفعت النحلة - التي فزعت بدورها من قفزته - نحوه، وغرست إبرتها في صلعته. ومكث بعدها ثلاثة أيام يربط رأسه بمنديل كبير مبلل بالخل. فمع أنه رجل فخور وقوي فعلاً في الحالات الأكثر خطورة، إلا أن أي خدش بسيط، أو لدغة حشرة كانت تصيبه بالجنون.

إذن، قسم إينيا سيلفيو كاريجا تربية النحل هنا وهناك في كل وادي أومبروزا؛ وأعطاه أصحاب الأرض الإذن بأن يحتفظ بمنحل أو اثنين أو ثلاثة في أحد أطراف مزارعهم، في مقابل بعض العسل، وكان هو دائمًا يتجول من مكان إلى آخر متنقلاً حول مناحله بحركات يبدو من خلالها وكأن لديه ساقي نحل بدلاً من يديه، وأيضًا لأنه كان يضعها في بعض الأحيان، حتى لا يتعرض للسع النحل، بداخل أنصاف قفازات سوداء. وعلى وجهه، أسفل طربوشه، كان يضع قماشًا شفافًا أسود، والذي كان مع كل نفس كان يلتصق بوجهه، ويرفعه عن فمه. وكان يشيح بأداة تطلق الدخان ليبعد عنه الحشرات أثناء تنقيبه في المناحل.

وكان اندفاع النحل، والوشاح الأسود، وسحابة الدخان، كل هذه الأشياء، تبدو لكوزيمو وكأنها سحر يمارسه ذلك الرجل، محاولاً من خلاله أن يختفي من هناك، وأن يُمحى من الوجود، أن يطير بعيدًا، ثم يولد شخصًا

آخر في زمان آخر أو في مكان آخر، ولكنه كان ساحرًا متواضعًا، حيث كان يظهر من جديد هو نفسه، ربما وهو يمتص إحدى أصابعه التي لسعها النحل.

وفي الربيع. وفي صباح أحد الأيام رأى كوزيمو الهواء وكأنه قد أصيب بمس من الجنون. كان يتذبذب في صوت لم يسمعه من قبل، طنين متواصل يكاد يصل إلى صوت الانفجار، وكان يتخلل الهواء تساقط غزير، والذي بدلاً من أن يسقط أرضًا كان يتحرك في اتجاه أفقي، وكان يتلولب ببطء وينتشر، ولكنه كان يتبع شيئًا وكأنه عامود أكثر كثافة. مئات من النحل؛ وحولها كان الزرع والورود والشمس، ولم يكن كوزيمو يفهم ما يحدث، وشعر وكأنه أصيب بانفعال شديد ومدمر.

وأخذ يصرخ: النحل يهرب! أيها الفارس المحامي! النحل يهرب! وهو يجرى بين الأشجار بحثًا عن كاريجا.

سمع صوت الفارس وهو يقول: إنه لا يهرب أيها الغبي! ورآه أسفل منه، بارزًا وكأنه نبات عش الغراب، ويشير إليه بأن يلتزم الصمت. ثم جرى على الفور واختفى. تُرى إلى أين ذهب؟ كان موسم بناء خلايا النحل. كان هناك سرب من النحل يتبع ملكة خارج الخلية القديمة. نظر كوزيمو حوله، وإذا بالفارس المحامى يظهر من جديد من أمام باب المطبخ وفي يده قدر ومقلاة، ثم أخذ يضرب بالمقلاة فوق القدر فارتفع صوت "دنج! دنج" عاليًا جدًا يدوي في الآذان، ثم يخفت في ذبذبة طويلة. كان الصوت مزعجًا جدًا، يكاد يؤدي إلى الصمم. كان الفارس المحامي يسير خلف سرب النحل وهو يقرع تلك الأدوات النحاسية كل ثلاث خطوات. ومع كل طرقة كان السرب يبدو وكأنه أصيب برعشة، ينزل بسرعة إلى أسفل ثم يعود ليرتفع، وكأن طنينه ضعف، وأصبح طيرانه متزعزعًا.

لم يكن كوزيمو يرى جيدًا، ولكن بدا له أن الأسراب الآن تتجه نحو نقطة بين الأشجار، ولم تعد ترتفع إلى أعلى. واستمر الفارس في ضرب القدر.

لحق به أخي وسأله: ماذا يحدث أيها الفارس المحامي؟ ماذا تفعل؟ غمغم هو، هيا بسرعة اذهب إلى الشجرة حيث توقف سرب النحل، ولكن حذار أن تحركها حتى أصل.

هبط سرب النحل في اتجاه شجرة رمّان، وإلى هناك وصل كوزيمو. في البداية لم يكن يرى شيئًا، ثم على الفور لمح شيئًا كفاكهة ضخمة على ثمرة صنوبر، متدلية من أحد الفروع، وكانت مصنوعة من النحل المعلق الواحدة في الأخرى، وكان النحل يتوالى عليه فيزيده حجمًا. كان كوزيمو فوق قمة شجرة الرمان حابسًا أنفاسه، وكان هناك في أسفل يتدلى عنقود النحل. وكلما كبر حجمه بدا أخف وزنًا، وكأنه معلق في خيط رفيع، بل أقل من ذلك في مخالب ملكة نحل عجوز، ومصنوع من عظام غضروفية رقيقة مع كل تلك الأجنحة التي ترفرف، والتي تفرد لونها الشفاف الرمادي فوق الخطوط السوداء والصفراء لجذعها.

وصل الفارس المحامي وثبًا، وكان يمسك بمنحل بين يديه، ووضعه مقلوبًا أسفل عنقود النحل، وقال هامسًا لكوزيمو: هيا، هزة بسيطة سريعة.

هز كوزيمو بخفة شجرة الرمان، فسقطت الخلية المكونة من آلاف النحل، ووقعت في المنحل وكأنها ورقة شجر، وأغلق الفارس المنحل بالقاعدة الخشبية قائلاً: تمت المهمة!

وهكذا نشأ نوع من التفاهم بين كوزيمو والفارس المحامي، نوع من التعاون يمكن أن نطلق عليه أيضًا أنه نوع من الصداقة؛ إذا لم يكن لفظ "صداقة" يبدو مبالغًا فيه، إذا أشرنا به إلى شخصين مثلهما غير اجتماعيين.

وفي مجال الري أيضًا تعاون أخي مع إينيا سيلفيا، وهو الأمر الذي يبدو غريبًا؛ حيث إنه من الصعب أن تكون له أي علاقة بالآبار والقنوات،

نظرًا إلى أنه قاطن بين الأشجار، ولكنني كنت قد قلت لكم عن ذلك النظام الخاص بالنافورة المعلقة، والتي اكتشفها كوزيمو بواسطة لحاء شجرة الحور، حيث كانت تحضر له المياه من شلال لتصل إليه بين فروع شجرة البلوط. وأما عن الفارس المحامي، وعلى الرغم من شروده الشديد، فإنه لا شيء يفوته فيما يتعلق بما يدور في شرايين مياه الحقل كله. ومن فوق منحدر المياه، مختفيًا خلف شجرة نوار أبيض تجسس على كوزيمو وهو يخرج ماسورة المياه من بين أغصان شجرة البلوط (حيث كان يضعها عندما لا يستخدمها بسبب تلك العادة الهمجية التي سرعان ما اكتسبها؛ بأن يخفي كل شيء)، واضعًا إياها على أحد فروع الشجرة، ومن الناحية الأخرى على بعض الأحجار البارزة، ويشرب.

وعند رؤيته لهذا المنظر من يدرِ ماذا دار في رأس الفارس؛ فقد اجتاحته إحدى تلك اللحظات الحماسية النادرة، خرج لفوره من وراء شجرة النوار، ضاربًا بيديه، وقفز قفزتين أو ثلاثًا وكأنه يقفز الحبل، ولامس المياه، وكاد يسقط في المنحدر ويطير إلى أسفل الهاوية. وبدأ يشرح للصبي الفكرة التي واتته. كانت الفكرة مرتبكة وشرحها أكثر ارتباكًا. كان الفارس المحامي يتحدث بالعامية، كنوع من التواضع أكثر من كونه يجهل اللغة، ولكن في لحظات الانفعال الزائد المفاجئة كان يتحول من الحديث بالعامية إلى الحديث بالتركية، من دون أن يدرك ذلك، ولم يكن أحد يفهم منه أي شيء.

باختصار كانت قد جاءته فكرة مجاري المياه المعلقة، وذلك من خلال مواسير مياه تحملها فروع الأشجار، والتي ستسمح بوصول المياه الجارية إلى الجهة الأخرى من الوادي، حيث المنطقة الجدباء، وريّها. ولاستكمال المشروع، اقترح عليه كوزيمو مُعدلاً فيه أن يستخدم في بعض المناطق جذوعًا تقوم بعمل مواسير مثقوبة ليروي المشاتل بالتنقيط، والذي حاز على إعجابه الشديد.

جرى سريعًا إلى مكتبه ليملأ الأوراق بالمشروعات. بل انشغل كوزيمو أيضًا بذلك، لأن كل شيء كان يمكن إنجازه فوق الأشجار كان يعجبه، وكان يبدو له أنه يعطي أهمية جديدة وسلطة لوضعه فوق، وبدا له أنه وجد في إينيا سيلفيو كاريجا رفيقًا مثاليًا. كانا يتواعدان أسفل أشجار معينة، وكان الفارس المحامي يصعد عليها بسلم مثلث الشكل، وذراعاه تحملان كثيرًا من أوراق المشروعات، ويتناقشان ساعات طويلة عن التعديلات التي كانت تزداد تعقيدًا لمجرى المياه هذا.

ولكن لم يصل هذا المشروع قط إلى المرحلة العملية؛ فلقد تعب إينيا سيلفيو، وأوقف مباحثاته مع كوزيمو، ولم يكمل قط تصميماته، وربما يكون قد نسي كل شيء بعد مرور أسبوع. لم يندم كوزيمو على ذلك؛ فسرعان ما أدرك أن هذا المشروع كان سيسبب تعقيدات مزعجة لحياته ليس إلا.

كان جليًا أن عمنا لديه إمكانات كبيرة في مجال الري الزراعي؛ فلقد كان لديه الشغف بذلك، بل ولا تنقصه أيضًا العقلية الخاصة اللازمة لذلك الفرع من الدراسة، إلا أنه لم يكن يعرف كيف ينفذ ما يريد. كان يضيع ويضل الطريق حتى يصل كل اقتراح له إلى لا شيء، وكأنه مياه صارت في مجرى خطأ، وبعد أن دارت لفترة ابتلعتها الأرض البور.

ربما كان السبب هو أنه كان في رعايته للنحل يمكنه أن يفعل ذلك لحسابه الخاص، تقريبًا في السر ودون أن يطلع أحد على ما يفعله، مقدمًا من حين إلى آخر هدية من العسل والشمع لم يطلبهما منه أحد، بينما كان عليه - على العكس- في عمليات فتح القنوات تلك أن يضع في حسبانه مصالح هذا وذاك متحملاً آراء وأوامر البارون أو أي شخص آخر يكلفه العمل. ونظرًا إلى أنه كان خجولاً ومترددًا، لم يكن يعارض إرادة الآخرين، ولكنه سرعان ما كان يمقت العمل ويهمله.

كان يمكن رؤيته في كل الساعات، وسط حقل ما وحوله رجال مسلحون بالمجارف والفئوس، وهو ممسك بمقياس أمتار، وورقة ملفوفة لخريطة ما،

وهو يعطى الأوامر بحفر قناة ويقوم بقياس الأرض بخطواته، والتي نظرًا إلى كونها قصيرة جدًا كان عليه إطالتها بطريقة مبالغ فيها. كان يجعلهم يبدءون في الحفر في مكان ما، ثم ينتقل إلى آخر، ثم يتوقف، ويعود مرة أخرى إلى القياس. وبمجرد أن يحل الظلام يوقف كل شيء. وفي اليوم التالي كان من الصعب عليه أن يقرر استكمال العمل عند تلك النقطة، وكان يختفي بعد ذلك لمدة أسبوع.

كان ولعه بالري الزراعي مليئًا بالتطلعات، والاندفاعات، والأمنيات. كانت هناك ذكرى محفورة في قلبه، ذكرى تلك الأراضي والبساتين والحدائق الرائعة الجمال المُعتنى بريّها لدى السلطان، والتي لا بد وأنه عاش فيها سعيدًا، بل ربما تكون أسعد فترة في حياته. كان يقارن باستمرار تلك الحدائق الجميلة الأمازيغية أو التركية بحقول أومبروزا، وكان ذلك يدفعه إلى محاولة إصلاحها بحثًا عن مماثلتها بما لديه من ذكريات. وبما أنه كان بارعًا في الري الزراعي فقد كان يركز أمنية التغيير لديه في ذلك، وكان يصطدم باستمرار بالواقع ويصاب لذلك بالإحباط.

وكان يمارس أيضًا التنجيم، في الخفاء، لأن ممارسة تلك الفنون الغريبة في تلك الفترة كان من الممكن أن تؤدي إلى اتهامه بممارسة السحر. وفي إحدى المرات اكتشفه كوزيمو في أحد المراعى وهو يقوم برقصة البيرويت باسطًا أمامه عصا تنتهي بتفرع. وربما كانت هذه أيضًا إحدى المحاولات لتقليد شيء شاهد آخرين يقومون به، ولم يمارسه قط، لأنه لم يخرج منه بأي نتيجة.

وبالنسبة إلى كوزيمو فكان إدراكه لطباع سيلفيو كاريجا أفاده فيما يلي: فقد أدرك أشياء كثيرة تتعلق بحياة الإنسان بمفرده، والتي أفادته في حياته فيما بعد. أقصد بذلك أنه وضع دائمًا نصب عينيه الصورة الغريبة للفارس كاريجا كنموذج للطريقة التي يمكن أن يصبح عليها الإنسان الذي يفصل مصيره عن مصير الآخرين، ومن ثم نجح في ألا يتشبه به ألبتة.

ـ١٢ـ

أحيانًا كان كوزيمو يستيقظ ليلاً على صرخات: النجدة! اللصوص! الحقوا بهم!

كان كوزيمو يتحرك بسرعة بين الأشجار متجهًا إلى حيث مصدر الصراخ، ربما كان بيتًا ريفيًا لملاك صغار، وتقف في الخارج ربة عائلة شبه عارية وهى تضع يديها فوق رأسها.

- يا لشقائنا، يا لشقائنا، أتى چان داي بروجي وسرق كل ثمن المحصول! ويجتمع الناس.

- چان داي بروجي؟ هل كان هو؟ هل رأيته؟

- كان هو! هو! كان يرتدي قناعًا على وجهه، ويمسك بمسدس طويل هكذا، وكان يسير خلفه اثنان مقنعان مثله، وكان هو يقودهما! كان هو چان دي بروجي!

- وأين هو؟ أين ذهب؟

- آه، يا لك من ماهر، فلتقبضوا على چان داي بروجي! من يدرِ أين ذهب الآن؟

أو ربما كان من يصرخ هو مسافر تُرك في وسط الطريق بعد أن جُرد من كل شيء؛ حصانه، وحقيبته، ومعطفه، وكل متاعه.

- النجدة! سرقوني! چان داي بروجي!

- كيف حدث هذا؟ قل لنا!

- قفز من هناك، أسود اللون، ملتحيًا، وسدد نحوى بندقيته. لقد نجوت بأعجوبة!

- هيا بسرعة لنتبعه! من أية جهة هرب!

- من هنا! لا، ربما من هناك! كان يجري كالريح!

وكان كوزيمو قد صمم على رؤية چان داي بروجي، وكان يجوب الغابة طولاً وعرضًا خلف الأرانب والطيور وهو يحث الدشهند: ابحث، ابحث يا ماسيمو أتيمو !

ولكن ما كان يريد العثور عليه هو قاطع الطريق شخصيًا، لا ليصنع به شيئًا، أو حتى ليقول له شيئًا؛ وإنما فقط ليرى شخصًا مشهورًا بهذه الطريقة وجهًا لوجه. ولكنه لم ينجح في لقائه قط، حتى بعد أن قضى ليلة كاملة بحثًا عنه. وكان كوزيمو يقول لنفسه "هذا معناه أنه اليوم لم يخرج. ولكن في الصباح، هنا وهناك في الوادي، كانت هناك أحاديث الناس فوق سطح أحد البيوت، أو في أحد منعطفات الطريق يعلقون على السرقة الجديدة. كان كوزيمو يهرع نحوهم ويفتح أذنيه ليستمع إلى تلك الحكايات.

وفي إحدى المرات قال له أحدهم: ولكن أنت يا من تمكث دائمًا فوق أشجار الغابة، ألم تر قط چان داي بروجي؟

شعر كوزيمو بالخجل الشديد وقال : حسنًا. لا على ما يبدو. ويتدخل شخص آخر: وكيف تريده أن يراه؟ إن چان داي بروجي لديه مخابئ لا يمكن أحد أن يجدها، ويسير في طرقات لا أحد يعرفها قط!

- من يقبض عليه سيعيش ملكًا حياته كلها بالمكافأة المرصودة للقبض عليه!

- فعلاً! ولكن أولئك الذين يعرفون أين هو، لديهم أيضًا الكثير ليصفوه مع العدالة تقريبًا مثله، وإذا فعلوا ذلك سينتهي أمرهم على حبل المشنقة أيضًا!

- چان داي بروجي! چان داي بروجي! ولكن هل يمكن أن يكون هو مرتكب كل تلك الجرائم!

- بالطبع، إنه متهم بالكثير من الجرائم، حتى إنه اذا استطاع تبرئة نفسه من عشر سرقات، سيشنقونه بسبب السرقة الحادية عشرة.

- لقد قام بقطع الطريق في كل غابات الساحل!

- وقتل أيضًا أحد رؤساء عصابته في شبابه!

- ولقد طارده أيضًا قطاع الطرق.

- ولذلك جاء ليختبئ في منطقتنا!

- آه ذلك لأننا أناس شجعان!

وكان كوزيمو يذهب ليتحدث عن أي خبر جديد مع عمال الفحم. ومن بين الذين كانوا يخيمون في الغابة، كان هناك في تلك الأزمنة فئة من المشتبه فيهم من الجائلين: عمال فحم، منجدي كراسي، بائعي خرق بالية، أشخاص يدورون على المنازل، وفي الصباح يدرسون السرقة التي سينفذونها في المساء. وكان لديهم في الغابة بالإضافة إلى معمل التجريب، الملجأ السري، ومخزن المسروقات.

- هل تعرفون أن هذا المساء هاجم چان داي بروجي عربة تجرها أحصنة؟

- آه، حقًا؟ ربما، كل شيء جائز.

- أوقف الأحصنة وهي تركض ممسكًا إياها من فكها!

- حسنًا، وربما لم يكن هو، وبدلاً من الأحصنة كانت صراصير.

- ماذا تقول؟ ألا تصدق أنه كان چان داي بروجي؟

- آه حقًا، حقًا، ولكن ما هذه الأفكار التي تضعها في رأسك؟ بالتأكيد كان جان داي بروجي!

- وهل هناك شيء لا يستطيع أن يفعله چان داي بروجي.

- آه آه آه!

وعندما سمعهم يتحدثون بهذه الطريقة عن چان داي بروجي لم يعد كوزيمو يفهم شيئًا، تجول في الغابة، وذهب ليسمع مخيمًا آخر للمتجولين.

- قولوا لي، في رأيكم هل ما حدث للعربة التي تجرها أحصنة هذه الليلة كان ضربة من ضربات چان داي بروجي؟

- إن كل السرقات يقوم بها چان داي بروجي، خاصة عندما تنجح، ألا تعرف ذلك؟

- لماذا: عندما تنجح؟

- لأنها عندما لا تنجح فإن هذا يعني أنها بالفعل أفعال چان داي بروجي!

- آه آه! ذلك الفاشل!

لم يعد كوزيمو يفهم أي شيء: چان داي بروجي فاشل؟

عندئذ يسرع الآخرون في تغيير نبرة الحديث: ولكن لا، لا، إنه لص يخيف الجميع!

- هل رأيتموه بأنفسكم؟

- نحن؟ ومن ذلك الذي رآه؟

- وهل أنتم متأكدون من وجوده؟

- آه، دعابة جميلة! من المؤكد أنه موجود! حتى وإن لم يكن موجودًا.

- إن لم يكن موجودًا؟

- سيكون هذا أو ذاك... ها ها ها!

- من المؤكد أنه يجب أن نقول هكذا: إنه چان دي بروجي الذي يسرق ويذبح في كل مكان، ذلك اللص الفظيع! هل تريد أن نقول إن هناك أحدًا يشك فيه؟

- أنت أيها الصبي، هل تجد في نفسك الشجاعة لتشك في ذلك؟

وهكذا أدرك كوزيمو أن الخوف من چان داي بروجي المنتشر في الوادي يتحول إلى سلوك مليء بالشك، ومثير للسخرية كلما صعدنا نحو الغابة.

وهكذا لم يعد يشعر بالرغبة الفضولية في مقابلته؛ لأنه أدرك أن چان داي بروجي لدى أكثر الناس خبرة لا أهمية له. وعندئذ التقى به.

كان كوزيمو فوق شجرة جوز في ظهيرة أحد الأيام يقرأ. كان قد تملكه منذ فترة قليلة الحنين إلى بعض الكتب؛ فلقد كان البقاء طوال اليوم في انتظار فريسة لاقتناصها شيئًا مملاً جدًا. ولذلك كان يقرأ رواية "جيل بلا" لألين رينيه ليساچ، ممسكًا بالكتاب في يد والبندقية في اليد الأخرى. وكان ماسيمو أتيمو الذي يتضايق من أن يقرأ سيده يدور حوله محاولاً إيجاد أسباب لتشتيته؛ فكان مثلاً ينبح وراء فراشة ليرى هل سينجح في جعله يسدد بندقيته نحو الهدف.

وإذا برجل ملتحٍ في حالة سيئة وغير مسلح يجري لاهثًا من اتجاه الجبل في الممر وخلفه يجري شرطيان ممسكان بخناجر، ويلوحان بها صارخين: أوقفوه! إنه چان داي بروجي. لقد أخرجناه أخيرًا من مخبئه. وكان اللص قد استطاع الابتعاد قليلاً عن الشرطيين، ولكنه إذا استمر في

التحرك باضطراب، كمن يشعر بالخوف من أن يضل الطريق أو السقوط في شرك ما، سيصلان إليه على الفور. كانت شجرة الجوز التي يجلس عليها كوزيمو لا تقدم أية وسيلة تشبث لمن يريد تسلقها، ولكن كوزيمو كان لديه هناك على الفرع حبل من الحبال التي كان يحملها دائمًا معه ليتخطى بها المسافات الصعبة، فألقى بأحد طرفيه أرضًا، وعقد الآخر في الفرع. رأى اللص ذلك الحبل يسقط أمامه مباشرة، فأبعده بيديه لوهلة بعدم ثقة، ثم أمسك بالحبل وتسلقه بسرعة، كاشفًا عن أنه واحد من أولئك المندفعين المترددين، أو المترددين المندفعين الذي يبدون وكأنهم لا يعرفون دائمًا كيفية استغلال اللحظة المواتية، إلا أنهم يصيبون الهدف في كل مرة.

ووصل الشرطيان، وكان الحبل قد رُفع على الفور، وچان داي بروجي قد سكن بجوار كوزيمو بين أغصان شجرة الجوز. وكان هناك طريق متقاطع، فأخذ كل من الشرطيين طريقًا، ثم التقيا ولم يعودا يعرفان إلى أين يتجهان، وإذ بهما يجدان أمامهما ماسيمو أتيمو الذي كان يهز ذيله في الجوار. قال أحد الشرطيين للآخر: أليس هذا كلب ابن البارون، ذلك الساكن بين الأشجار؟ إذا كان الصبي هنا في مكان ما، فربما يستطيع إخبارنا بشيء.

صرخ كوزيمو: أنا هنا فوق. ولكنه لم يكن في تلك اللحظة فوق شجرة الجوز، حيث كان في البداية، وحيث يختبئ اللص؛ كان قد انتقل بسرعة ليصبح فوق شجرة الكستناء المقابلة، وهكذا رفع الشرطيان رأسيهما على الفور في ذلك الاتجاه من دون النظر فوق الأشجار المحيطة، وقالا: صباح الخير يا سيدي، ألم تر سيادتك مصادفة اللص چان داي بروجي وهو يجري؟

أجاب كوزيمو: لا أعرف من كان الذي رأيته، ولكن إذا كنتما تبحثان عن رجل قصير كان يجري، فلقد رأيته يتجه هناك، إلى الوادي.

- رجل قصير؟ إنه رجل فارع الطول ومخيف.

- ربما! ولكن من هنا فوق تبدون جميعًا صغار الحجم.

- شكرًا يا سيدي! وأطلقا ساقيهما تجاه الوادي.

عاد كوزيمو فوق شجرة الجوز وعاد ليقرأ" جيل بلا" وكان جان داي بروجي ما زال ممسكًا بالفرع، وهو شاحب الوجه وشعر رأسه ولحيته الخشن ذو اللون الأحمر، تمامًا مثل نبات الخلنج، معلقة به أوراق الشجر الجافة، وثمار الكستناء الصغيرة وإبر الصنوبر. كان ينظر بدقة إلى كوزيمو بعينين خضراوين مستديرتين وشاردتين، وكان دميمًا، قبيح الوجه.

وقرر أن يسأل: هل رحلا؟

قال كوزيمو بلطف: أجل، أجل. هل سيادتك اللص جان داي بروجي؟

ـ كيف عرفتني؟

ـ آه، هكذا، من شهرتك.

ـ وأنت إذن الذي لا ينزل أبدًا من فوق الأشجار؟

ـ نعم. وكيف عرفت هذا؟

ـ أنا أيضًا، من شهرتك.

أخذ كل منهما ينظر إلى الآخر بفضول، وكأنهما شخصان يلتقيان مصادفة، وشعر كل منهما بالسعادة ،لأن كل واحد منهما يعرف شيئًا عن الآخر.

ولم يعرف كوزيمو ماذا يقول أكثر من هذا، فعاد يقرأ.

- ماذا تقرأ؟

- أقرأ "جيل بلا" لليساچ.

- كتاب جيد؟

- آه جدًا.

- هل ما زال أمامك الكثير لتنتهي من قراءته؟

- لماذا؟ تقريبًا نحو عشرين صفحة.

- لأنني أريد أن أطلب منك أن تعيرني إياه بعد أن تنتهي من قراءته.

وابتسم مضطربًا بعض الشيء وأكمل، أتعرف؟ أقضي الأيام مختبئًا، ولا أجد شيئًا أفعله. أقصد أنه لو كان لدي كتاب من حين إلى آخر، في إحدى المرات سرقت حافلة بها أشياء قليلة، ولكن كان بها كتاب وأخذته، وحملته معي إلى مخبئى وخبأته أسفل سترتي، أعطيتهم كل الغنيمة، في سبيل الاحتفاظ بالكتاب. وفي المساء، أشعلت مصباحي، وحاولت القراءة، ولكنه كان باللاتينية! لم أفهم كلمة واحدة - وهز رأسه - فأنا لا أعرف اللاتينية. قال كوزيمو - بالطبع، فاللاتينية لغة صعبة حقًا، وشعر أنه رغمًا عنه بدأ يشعر بأنه يحتاج أن يحمي نفسه، وقال: هذا الكتاب بالفرنسية.

قال جان داي بروجي: فرنسي، توسكاني، بروفنسي، قشتالي، كلها لغات أفهمها جميعًا، وبعض الكاتالاني أيضًا: وبدأ يردد عبارات بلغات مختلفة.

وفي نصف ساعة انتهى كوزيمو من القراءة، وأعار الكتاب لجان داي بروجي.

وهكذا بدأت العلاقة بين أخي واللص. فبمجرد أن ينتهي جان داي بروجي من قراءة كتاب، كان يجري ليعيده إلى كوزيمو ليستعير منه كتابًا آخر، ويهرب ليختبئ في مخبئه السري ويغرق في القراءة.

وكنت أنا أزود كوزيمو بالكتب من مكتبة المنزل، وعندما كان ينتهي من قراءتها كان يعيدها إليّ. وفي تلك الفترة أصبح يحتفظ بها لفترات أطول؛ لأنه بعد الانتهاء من قراءتها كان يعيرها لجان داي بروجي، وكثيرًا ما كانت تعود مفكوكة، وبها بقع عفن، وآثار خطوط حلزون. من يدرِ أين كان اللص يضعها.

في أيام محددة كان كوزيمو وجان داي بروجي يلتقيان على شجرة مُتفق عليها ليتبادلا الكتب، ثم يهرب جان داى بروجى بسرعة؛ لأن الغابة كانت دائما مليئة برجال الشرطة. وكانت تلك العملية البسيطة خطيرة جدًا لكل منهما، حتى بالنسبة إلى أخي الذي لم يكن يعرف كيف يبرر صداقته بأحد المجرمين!

ولكن جان داي بروجي أصيب بنوع من حمى القراءة جعلته يلتهم الروايات. رواية تلو الأخرى، ونظرًا إلى أنه كان يمكث اليوم كله مختبئًا يقرأ، فقد كان ينتهي في يوم واحد من قراءة بعض الكتب التي يمكن لأخي أن يقرأها في أسبوع، وبالطبع لم يكن يستطيع الانتظار، فقد كان يطلب كتابًا آخر، وإذا لم يحدث ذلك في اليوم المتفق عليه، كان يبدأ في البحث عن كوزيمو بين الحقول مخيفاً بذلك عائلات تسكن في الأكواخ، ومحركًا إثره بهذه الطريقة كل القوى الرسمية في أومبروزا.

وأصبحت- بهذه الطريقة، ونظرًا إلى أنه كان مضغوطًا دائمًا بطلبات اللص - الكتب التي أنجح أنا في تزويده بها غير كافية، وكان عليه أن يبحث عن آخرين ليزودوه بالكتب. وتعرف إلى تاجر كتب يهودي، شخص يدعى أوربيكي، وكان يزوده بأعمال أدبية تتكون من أكثر من جزء. كان كوزيمو يذهب ليطرق على نافذته من بين أغصان شجرة خروب، ويعطيه أرانب، وطيور سمان، وحجلاً في مقابل تلك الكتب.

ولكن كان لجان داي بروجي ذوقه الخاص في القراءة، ولم يكن في الإمكان إعطاؤه أي كتاب، وإلا عاد في اليوم التالي إلى كوزيمو كي يغيره له.

وكان أخي في السن التي فيها يبدأ المرء فيها التمتع بالقراءات الأكثر عمقًا، ولكنه كان يشعر بضرورة قراءتها ببطء، منذ أن أعاد إليه جان داي بروجي "مغامرات تليماك" وهو يقول له إنه إذا أعطاه مرة أخرى كتابًا مملاً هكذا فسيقطع الشجرة التي يجلس عليها.

عندئذ أراد كوزيمو أن يفصل بين الكتب التي يرغب في قراءتها وحده، وبهدوء عن تلك التي يأخذها فقط ليعيرها للص. ولكن هيهات، كان يجب عليه أن يلقي نظرة سريعة على تلك الكتب أيضًا؛ لأن جان داي بروجي كان يزداد إلحاحًا وارتيابًا، وقبل أن يأخذ كتابًا كان يطلب أن يحكي له أخي الموضوع قبل أن يقرأه، ويا لشقائه إذا أوقع به. فقد حاول أخي أن يمرر إليه روايات حب، إلا أن اللص عاد إليه وقد استشاط غضبًا وسأله عما إذا كان يراه آنسة صغيرة. وكان كوزيمو لا ينجح في أن يعرف ما الذي يمكن أن يعجبه.

وهكذا، ونظرًا إلى وجود جان داي بروجي ملاصقًا له، تحولت القراءة بالنسبة إلى كوزيمو من مجرد تسلية لبعض الوقت إلى شغله الشاغل، وهدف يومه. وبسبب حماسته لإحضار المجلدات، وفحصها ومقارنتها، وضرورة أن يعرف دائما أكثر، وكل ما هو حديث، وبين القراءات التي يقوم بها لجان داي بروجي، والحاجة المتزايدة لديه لقراءاته الخاصة، أصبح كوزيمو مولعًا بالآداب وبكل فروع المعرفة الإنسانية، ولم تعد تكفيه الساعات من الفجر إلى الغروب لينتهي مما يرغب في قراءته، وأصبح يستكمل القراءة أيضا في الظلام على ضوء المصباح.

وأخيرًا اكتشف روايات صامويل ريتشاردسون، والتي أعجبت جان داي بروجي، وكان بمجرد أن ينتهي من واحدة يرغب في أخرى. استطاع أوربيكي أن يزوده بكمية من المجلدات، وكان لدى اللص ما يقرؤه لمدة شهر، وهكذا وجد كوزيمو بعض الهدوء. وانغمس في قراءة حيوات بلو تارك.

أما جان داي بروجي فكان يجلس مستلقيًا على مرقده، وشعره المجعد الأحمر المليء بالأوراق الجافة يتدلى على جبهته المتجعدة. وكان يقرأ بعينيه الخضراوين واللتين احمرتا بسبب إجهادهما في القراءة. كان يقرأ وهو يحرك مقلتيه في التهام سريع للكلمات، مثبتًا إحدى أصابعه المبتلة بلعابه ليكون في وضع استعداد دائم ليقلب الصفحة. ومن خلال قراءته

لريتشاردسون أخذ شعور كامن في نفسه يجتاحه، تلك الرغبة في الحياة المعتادة والعائلية، في الشعور بالأسرة والمشاعر الأسرية، والفضائل، وعداوة الشرور والرذائل، وفقد كل ما حوله أهميته بالنسبة إليه، بل أصبح يملؤه بالنفور.

ولم يكن يخرج قط من كهفه إلا ليهرع نحو كوزيمو ليتبادل معه الكتب، وخاصة إذا كانت رواية من أكثر من مجلد، وكان ما زال في وسط القصة. أصبح يعيش هكذا، منعزلاً، من دون أن يدرك شيئًا عن عاصفة الحقد التي كانت تتصاعد حوله أيضا من سكان الغابة، الذين كانوا يومًا ما أعوانه المخلصين، ولكنهم الآن شعروا بالتعب من الاحتفاظ بينهم بلص غير عامل، وخاصة إذا كان يجذب خلفه كل قوى الشرطة.

ففي الأزمات الماضية كان قد التف حوله من كان في الجوار مطاردًا من قبل العدالة، ربما بسبب أشياء صغيرة، سرقات عادية، مثل أولئك المتشردين الذين يطلون الأواني، أو جرائم حقيقية وفعلية مثل رفاقه اللصوص المطاردين. وفي كل سرقة أو خطف كان أولئك اللصوص يتمتعون بسلطته وخبرته، بل كانوا يحتمون باسمه الذي كان يتداول بين الناس، ويتركهم هم في الظل. حتى من لم يشارك منهم في الجرائم كان يفيد بطريقة ما مما حصلوا عليه؛ لأن الغابة امتلأت بمسروقات وأشياء متنوعة يتبادلها اللصوص فيما بينهم، والتي كان يجب إخفاؤها أو إعادة بيعها. وكل أولئك الذين كانوا يتسكعون هناك، كانوا يجدون ما يهرّبونه ويربحون منه. أما من كان يرتكب سرقات لحسابه، من دون علم جان داي بروجي، فكان يتسلح بهذا الاسم البشع ليخيف الضحايا، ويأخذ منهم كل ما لديهم، وكان الناس يعيشون في رعب، وكانوا يرون في كل واحد من هؤلاء الأشقياء جان داي بروجي أو أحد أفراد عصابته، فيسرعون بحل حبال أكياس نقودهم.

واستمرت تلك الأزمنة الجميلة طويلاً، ورأى جان داي بروجي أنه يستطيع أن يعيش بما لديه. ورويدًا رويدًا أصبح هزأة. كان هو يعتقد أن

كل شيء مستمر كما كان، ولكن النفوس تغيرت، ولم يعد اسمه يقابل بالاحترام كالسابق.

من كان يستفيد إذن من جان داي بروجي؟ فلقد كان مختبئًا ودموعه في عينيه يقرأ الروايات، لم يعد يسطو على أحد، ولم يعد يحضر أي غنائم. وفي الغابة لم يعد أحد يتمكن من أداء أعماله، فلقد كان رجال الشرطة يحضرون كل يوم بحثًا عنه، وبمجرد أن يكون هناك بائس يشبهه قليلاً كانوا يأخذونه معهم إلى المخفر. وإذا أضيف ذلك إغراء المكافأة المرصودة للقبض عليه يتضح أن أيام جان داي بروجي كانت معدودة بالفعل.

ولكن أراد اثنان من اللصوص، وهما شابان كان هو الذي انتشلهما، ولم يعرفا كيف يستسلمان لفكرة فقد رئيس العصابة المفضل لديهما، أرادا أن يمنحاه الفرصة ليعيد تأهيل نفسه. كانا يُدعيان أوجاسو وبيل لوري. كانا ضمن عصابة سارقي الفاكهة. والآن، وبعد أن أصبحا شابين، تحولا إلى لصوص طريق.

لذلك ذهبا لزيارة جان داي بروجي في كهفه. كان هناك مستلقيا فوق القش، قال. دون أن يرفع عينيه عما يقرؤه: نعم، من هناك!

- جئنا لنقترح عليك شيئًا يا جان داي بروجي.

- حسنًا... ماذا؟ واستمر يقرأ.

- هل تعرف أين يقع منزل كوستانزو محصل الضرائب.

- نعم، نعم. ماذا؟ من محصل الضرائب هذا؟

تبادل بيل لوري وأوجاسو نظرة ذات معنى، إذا لم يبعد هذا الكتاب اللعين عن عينيه لن يفهم منهما كلمة واحدة. اطو الكتاب لحظة يا جان داي بروجي واستمع إلينا.

أمسك جان داي بروجي الكتاب بكلتا يديه وقام على ركبتيه، كان على وشك ضمه إلى صدره مفتوحا حيث توقف، ثم كانت الرغبة في استكمال القراءة شديدة جدا، فرفعه، وهو يمسكه بقوة، حتى وضع أنفه بداخله.

واتت بيل لوري فكرة. كان هناك عش عنكبوت وبه عنكبوت كبير. رفع بيل لوري بخفه العش بالعنكبوت فوقه وألقاه فوق جان داي بروجي بين الكتاب وأنفه. وكان البائس داي بروجي قد أصبح مرتخي الأعصاب إلى حد أنه خاف من العنكبوت. شعر فوق أنفه بعقد أقدام العنكبوت، وبتلك الخيوط المتلاصقة، وقبل أن يدرك حقيقة الأمر صرخ فزعًا، وترك الكتاب يسقط من بين يديه وأخذ يلوح بهما أمام وجهه وعينيه تحدقان وهو يبصق من فمه.

ألقى أوجاسو بنفسه أرضًا، ونجح في أن يمسك بالكتاب قبل أن يضع جان داي بروجي قدمه فوقه.

- أعطني هذا الكتاب. قال جان داي بروجي محاولاً بإحدى يديه أن يتحرر من العنكبوت والعش، ومحاولاً باليد الأخرى أن ينزع الكتاب من يد أوجاسو.

- لا، أولاً استمع إلينا. قال أوجاسو وهو يخفي الكتاب خلف ظهره.

- كنت أقرأ كلاريسا، أعطني الكتاب! كنت في لحظة حاسمة.

- استمع جيدا. هذا المساء سننقل حمولة حطب إلى منزل الجابي، وفي الجوال، وبدلاً من أن نضع الحطب سنضعك أنت، وعندما يحل المساء، تخرج من الجوال.

- وأنا أريد أن أنتهي من قراءة كلاريسا! كان قد نجح في تخليص يديه من بقايا عش العنكبوت وحاول أن يتصارع مع الشابين.

- اسمع. عندما تخرج ليلاً من الجوال، وأنت مسلح بمسدسين، تأخذ من الجابي كل حصيلة الجباية التي جمعها في الأسبوع، والتي يحتفظ بها في الخزانة فوق فراشه.

- على الأقل اتركاني أُكمل نهاية الفصل. كونا لطيفين!

تذكر الشابان الوقت الذي فيه إذا تجرأ أحد واختلف مع جان داي بروجي؛ كان يصوب طلقتين إلي معدته، وشعرا بحنين مر.

- ستأخذ أنت أكياس النقود. حسنًا؟! أصرا بحزن، ستحضرها لنا، ونحن سنعطيك كتابك ويمكنك القراءة كما تشاء.

- اتفقنا؟ هل ستذهب؟

- لا، لم نتفق، ولن أذهب!

- إذن لن تذهب. آه لن تذهب إذن. انظر ما سنفعله!

- وأخذا جاسو صفحة من آخر الكتاب، (لا! صرخ جان داي بروجي) ونزعها (لا! توقف) كرمشها وألقي بها في النار.

- آه، أيها الكلب! لا يمكنك هذا! لن أعرف أبدًا كيف كانت النهاية، وجرى خلف أجاسو ليأخذ منه الكتاب.

- إذن ستذهب إلى جابي الضرائب؟

- لا، لن أذهب!

- نزع أوجاسو صفحتين أخريين.

- توقف! لم أقرأ تلك الصفحات! لا يمكنك حرقها!

- كان أوجاسو قد ألقى بهما في النار بالفعل.

- أيها الكلب، كلاريسا، لا ...!

- إذن، ستذهب؟

- أنا.

نزع أوجاسو صفحتين أخريين، وألقي بهما في النار. جلس جان داي بروجي واضعًا رأسه بين يديه، وقال:

- سأذهب، ولكن عداني بأن تنتظراني ومعكما الكتاب أمام منزل الجابي.

اختبأ اللص في جوال، وفوق رأسه حزمة من الحطب، وحمل بيل لوري الجوال على كتفيه. وخلفه سار أوجاسو والكتاب في يده. وعندما كان جان داي بروجي - أحيانًا- يظهر بركلة، أو بعواء من داخل الجوال أنه على وشك أن يندم، كان أوجاسو يسمعه صوت صفحة ممزقة، فكان جان داي بروجي يلتزم الصمت على الفور.

وبهذه الطريقة أوصلاه وهما متنكران في زي الحطابين إلى داخل منزل جابي الضرائب وتركاه هناك، وذهبا ليختبئا بالقرب منه، خلف شجرة زيتون، منتظرين الساعة التي يجب أن يلحق بهما فيها بعد انتهائه من السطو.

ولكن جان داي بروجي كان متعجلاً جداً، فخرج قبل أن يحل الظلام، وكان ما زال هناك كثير من الناس في المنزل.

ارفعوا أيديكم إلى فوق. ولكنه لم يكن كسابق عهده، وكان ذلك يبدو واضحًا عليه، وكان يشعر بأنه سخيف. قلت لكم ارفعوا أيديكم. على الجميع في هذه الحجرة أن ينظروا إلى الحائط. ولكن هيهات، فلم يكن هو نفسه يصدق ما يفعله، كان يفعل كل هذا لينتهي منه ليس إلا. هل أنتم جميعا هنا؟

ولم ينتبه أن هناك طفلة قد هربت.

على كل كانت عملية لا يجب أن يفقد فيها دقيقة واحدة، إلا أنهم ماطلوه طويلاً. تظاهر الجابي بالغباء، وبأنه لا يعثر على المفتاح، وأدرك جان داي بروجي أنهم لم يعودوا يخشونه، وفي أعماقه كان سعيداً بما حدث.

وأخيرًا خرج وهو يحمل على ذراعيه أكياسًا مليئة بالنقود، وجرى وهو لا يرى أمامه شيئًا تقريبًا تجاه شجرة الزيتون المتفق عليها للتسليم.

- إليكم كل ما كان هناك! أعطوني كلاريسا.

وإذا به يجد أربع أذرع، ثم سبعًا ثم عشرًا قد طوقته لتشل حركته من الكتف حتى القدمين، ورفعته فرقة الشرطة كالبضاعة وهو مربوط كاللحم المجفف.

- سترى كلاريسا في السجن. وألقوا به في السجن.

كان السجن عبارة عن برج صغير على شاطئ البحر، وكانت هناك بقعة من أشجار الصنوبر البحري بالقرب منه. ومن قمة شجرة إلى أخرى من تلك الأشجار وصل كوزيمو تقريبا إلى ارتفاع زنزانة جان داي بروجي، ورأى وجهه من خلف القضبان.

لم يكن اللص يهتم بأي شيء لا التحقيق ولا المحاكمة، أينما ذهب سيشنقونه في النهاية، ولكن كان ما يقلقه هو تلك الأيام الخالية التي يقضيها هناك في السجن من دون أن يتمكن من القراءة، وتلك الرواية التي تركها ولم يستطع إتمام قراءتها. نجح كوزيمو في أن يحضر له نسخة أخرى من كلاريسا، وأحضرها له فوق شجرة الصنوبر.

- أين توقفت؟

- عندما هربت كلاريسا من بيت الدعارة!

أخذ كوزيمو يتصفح الكتاب ثم : آه، ها هي إذن. وبدأ يقرأ له بصوت مرتفع وهو ينظر إلى القضبان التي كانت تتعلق بها يدا جان داي بروجي!

استمر التحقيق طويلاً، وكان اللص يقاوم حكم الإعدام شنقًا، ولجعله يعترف بكل جرائمه التي لا حصر لها، كان الأمر يتطلب أيامًا عدة. وهكذا كان كل يوم، قبل التحقيقات وبعدها، يجلس ليستمع إلى كوزيمو وهو يقرأ له. وبمجرد أن انتهت كلاريسا، وعندما شعر به وقد انتابه الحزن، أدرك كوزيمو أن قراءة روايات ريتشاردسون له هكذا وهو في السجن شيء مثير

للإحباط، وفضل أن يبدأ في قراءة رواية لفيلدينج؛ لكي يعوضه قليلاً بأحداثها الشيقة المليئة بالحركة عن حريته المفقودة. وكانت أيام المحاكمة، ولم يكن في ذهن جان داي بروجي شيء سوى قضايا جوناثان وايلد.

وقبل الانتهاء من الرواية جاء يوم تنفيذ الحكم، وفوق العربة، وبصحبة أحد الرهبان كانت رحلة جان داي بروجي الأخيرة وهو ما زال حيًا.

كانت عمليات الشنق في أومبروزا تتم على شجرة بلوط عالية وسط الميدان، وكان حوله السكان جميعًا في دائرة.

وعندما وضعوا الحبل حول عنقه، سمع جان داي بروجي حفيفًا بين الفروع، رفع وجهه فرأى كوزيمو ومعه الكتاب مغلقًا.

فسأله: قل لي كيف انتهى أمره.

أجابه كوزيمو: يؤسفني أن أقول لك يا جان، لقد انتهى الأمر بجوناثان وهو معلق من رقبته.

- أشكرك. ستكون هذه نهايتي أنا أيضا! الوداع!

- وركل هو بنفسه السلم وبقي معلقا من رقبته.

وبمجرد أن سكن جسده انصرفت الجموع، ولكن كوزيمو مكث بجواره ممتطيًا الفرع الذي يتدلى منه المشنوق حتى الظلام. وفي كل مرة كانت الغربان تقترب لتقرض عين الميت أو أنفه، كان كوزيمو يبعدها بقبعته.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ ١٣ ـ

إذن فبالتردد إلى اللص أصبح لدى كوزيمو شغف بلا حدود للقراءة وللدراسة، والذي صاحبه طول حياته. وكان الشكل المعتاد الذي كنا نقابله به الآن هو أن نراه ممسكًا كتابًا مفتوحًا في يده وهو ممتطٍ أحد الفروع المريحة، أو مستندًا إلى أحد الجذوع وكأنه في مقعد المدرسة، واضعًا ورقة على مائدة صغيرة، والمحبرة في أحد ثقوب الشجرة، ويكتب بريشة إوزة طويلة.

والآن كان هو الذي يذهب ليبحث عن الأب فوشيلافلور ليعطيه الدرس، حتى يشرح له تاسيتس وأوفيديوس والأجرام السماوية وقوانين الكيمياء، ولكن الكاهن العجوز كان إذا ابتعد عن بعض قواعد النحو التي يعرفها وبعض اللاهوت يغرق في بحر من الشكوك والثغرات، وكان أمام أسئلة تلميذه يفرد ذراعيه ويرفع عينيه نحو السماء.

- سيدي الكاهن، كم زوجة يمكن أن يتزوجها الرجل في إيران بلاد فارس؟ سيدي الكاهن، من هو أسقف سافويار؟ سيدي الكاهن، هل يمكنك أن تشرح لي النظام الطبيعي للينيوس؟

وكان الأب يبدأ في أن يقول: إذن الآن. لنرى. ثم يغرق في التفكير، ولا يكمل أي شيء بعد ذلك.

ولكن كوزيمو الذي كان يلتهم كل أنواع الكتب، وكان يقضي نصف وقته في القراءة والنصف الآخر في الصيد ليدفع حساب أوربيكي صاحب المكتبة، كانت لديه دائمًا حكاية ليقصها عليه. عن روسو الذي كان يتجول فوق حشائش غابات سويسرا، عن بنيامين فرانكلين الذي كان يمسك البرق بالطائرات الورقية، وعن بارون الهونتان الذي كان يعيش سعيداً مع هنود أمريكا.

كان فوشيلافلور العجوز يصغي إلى تلك الأحاديث باهتمام ودهشة، ولا أعرف هل كان اهتمامًا حقيقيًا، أم فقط لأنه استراح من أن يكون هو المعلم، بل كان يجيب ويتحاور معه قائلا: لا! قل لي أنت! عندما كان كوزيمو يوجه إليه السؤال:

وهل تعرف كيف أن...؟ أو يجيب الأب: فعلاً! شيء غريب! عندما كان كوزيمو يجيبه، وأحيانًا أخرى بصيحات: يا إلهي! والتي كان يمكن أن تكون تمجيداً لعظمة لله التي تتكشف في تلك اللحظات، ويمكن أيضًا أن تكون تعبيرًا عن الحزن بسبب وجود قوى الشر، والذي كان يسيطر، بكل الطرق، على العالم بلا منازع.

وكنت أنا ما زلت صغيرًا جدًا، ولم يكن لكوزيمو أصدقاء إلا في الطبقات غير المتعلمة، لذلك كان يُفرغ حاجته إلى نقد الاكتشافات التي يقوم بها في الكتب بأن يلقي على رأس معلمه المُسن بالأسئلة والتفسيرات.

وكما نعرف، كان لدى الأب ذلك الاستعداد الخاضع والمجامل، والذي كان مصدره هو الإدراك السامي أن كل شيء إلى زوال، وكان كوزيمو يستغل هذا. وهكذا انقلبت علاقة التلمذة بينهما، أصبح كوزيمو هو المعلم، وفوشيلافلور هو التلميذ. وأصبحت لأخي سلطة عظيمة عليه، حتى إنه

نجح في أن يجر الأب المسن المرتجف وراءه في ارتحاله فوق الأشجار، بل جعله يقضي ظهيرة كاملة وقدماه النحيفتان تتدليان من أحد فروع شجرة كستناء هندي، في حديقة أونداريفا، متأملا النباتات النادرة، والغروب الذي ينعكس في حوض الحديقة، وهو يتأمل في الممالك والجمهوريات وفي الصواب والخطأ فيما يتعلق بالأديان المختلفة والطقوس الصينية، في زلزال لشبونة وقارورة ليدن، وفي المذهب الحسي.

في ذلك اليوم كان موعد درسي في اللغة اليونانية، ولم نعثر على المعلم. انزعجت كل العائلة، ودُق جرس الإنذار للبحث عنه، إلى حد أنه تم البحث في أحواض السمك خوفًا من أن يكون سقط فيها - لشروده - وغرق. ثم عاد في المساء وهو يشكو من آلام في المفاصل أصابته لجلوسه بطريقة غير مريحة لساعات طويلة.

ولكن لا يجب أن ننسى أن بداخل ذلك الجانسيني المسن كانت حالة القبول السلبية تلك لكل شيء تتبدل في لحظات يستعيد فيها ولعه الأصلي بالصرامة الروحية، وأنه إذا كان يستقبل - بالرغم من شروده واستسلامه - من دون أن يقاوم أية فكرة جديدة أو تحريرية، على سبيل المثال المساواة بين البشر أمام القانون، أو أمانة الشعوب الهمجية، أو التأثيرات الوخيمة للخرافات، فإنه بعد ربع ساعة تقريبا، وبعد أن تهاجمه طفرة من النزعة التقشفية والمطلقة، يتمثل تلك الأفكار التي قبلها منذ برهة ببساطة، وإليها يحيل كل احتياجه إلى التناغم الداخلي، وإلى القسوة الروحية. عندئذ تتحول واجبات المواطنين الأحرار والمتساوين، أو قيم الإنسان الذي يتبع الديانات الطبيعية إلى قوانين صارمة تطبق بلا هوادة وأنظمة إيمان متطرف. وكان يرى كل شيء خارج ذلك الإطار حالك السواد سبب الفساد، وأن كل الفلاسفة الجدد ليسوا سوى أشخاص لطفاء وسطحيين في رفضهم للشر، وأن طريق الكمال - برغم صعوبته - لا يسمح بالتوافقات أو الحلول الوسط.

وأمام تلك الهجمات المفاجئة للأب، لم يكن كوزيمو يجرؤ على النطق بكلمة، خوفًا من أن تقابل بالرفض لكونها غير مناسبة أو غير قاطعة، ويتيبس أمامه ذلك العالم الذي يحاول إحياءه في ذاكرته، ويصبح كأنه رخام مقابر. ولكن لحسن الحظ كان الأب سرعان ما يتعب من انفعالات الإرادة، تلك ويجلس هناك منهوك القوى، وكأن محاولة تجريد كل مفهوم من شوائبه ليحوله إلى جوهر صرف هي عملية تتركه تائهًا في ظلال مفككة ساكنة. كان يرمش بعينيه، ثم يتنهد، ثم يتحول تنهده إلى تثاوب يدخل بعده في حالة سكون تام. ولكن بغض النظر عن استعداده النفسي، كان يكرس في ذلك الوقت أيامه ليتابع الدراسات التي يقوم بها كوزيمو، وكان يقوم بدورات مكوكية بين الأشجار حيث يعيش كوزيمو، وبين متجر أوربيكي ليطلب له كتبًا يحضرها إليه من مكتبات في أمستردام أو باريس، أو ليستلم الكتب الجديدة التي وصلت بالفعل.

وهكذا كان يعد نفسه لمصيره المؤلم؛ لأن شائعة وجود كاهن في أومبروزا يتابع كل الكتب المرفوضة والمحرمة من الكنيسة في أوربا وصلت بالفعل إلى محاكم التفتيش.

وفي ظهيرة أحد الأيام، ظهروا في فيلتنا ليفتشوا حجرة الأب، وعثروا بين كتبه على أعمال بيير بايل، ومع أن الكتب كانت مُغلفة لم تفتح بعد، إلا أن ذلك كان يكفي لأن يقبضوا عليه متلبسًا ويأخذوه معهم.

كان مشهدًا حزينًا جدًا في تلك الظهيرة الملبدة بالغيوم. أتذكر كيف أخذت أرقب ما يحدث بدهشة من نافذة حجرتي، وتوقفت عن استذكار درس تصريف الأفعال اليونانية؛ لأنه لن تكون هناك دروس بعد اليوم. ابتعد الأب المسن فوشيلافلور بين هؤلاء المسلحين المتوحشين، وكان يرفع عينيه تجاه الأشجار، وفي إحدى اللحظات واتته اندفاعة، وكأنه أراد أن يهرب تجاه أحد الفروع ويتعلق به، ولكن قدميه لم تسعفاه. في ذلك اليوم كان كوزيمو قد خرج للصيد، ولم يكن يعرف أي شيء، وهكذا لم يودع كل منهما الآخر.

لم نستطع عمل أي شيء لمساعدته. وأغلق والدنا عليه باب حجرته، ورفض تذوق الطعام خوفًا من أن يدس الآباء اليسوعيون فيه السم. وقضى الأب ما بقي له من أيام بين السجن والدير في ردة مستمرة حتى وافته المنية، ومن دون أن يفهم، بعد حياة كاملة كرسها للإيمان، بأي شيء كان يؤمن، ولكن في محاولة مستميتة لأن يستمر في الإيمان بذلك الشيء بقوة حتى آخر لحظة في حياته.

على كل حال، لم يكن القبض على الأب ذا تأثير سلبي في مسيرة تعليم كوزيمو. ومنذ تلك الفترة بدأ مراسلاته الكتابية مع أبرز الفلاسفة والعلماء في أوربا، والذين كان يلجأ إليهم ليجيبوا له عن تساؤلاته أو اعتراضاته، أو فقط للحصول على متعة المناقشة مع عقول أفضل، وفي الوقت نفسه ممارسة اللغات الأجنبية. مع الأسف لم نعثر قط على كل أوراقه، والتي كان يضعها هو في تجويف أشجار يعرف أماكنها هو فقط. لا بد أن انتهى بها الأمر وقد بهتت بسبب السناجب، أو غطتها الفطريات؛ لأن من بينها كنا سنجد خطابات كتبها أشهر علماء القرن بخط أيديهم.

بنى كوزيمو في أكثر من موقع أنواعًا من المكتبات المعلقة للاحتفاظ بالكتب، والتي أعدها بأفضل الوسائل ضد الأمطار والقوارض، ولكنه كان يغير أماكنها باستمرار، تبعًا لما يقوم به من دراسات، وما يعجبه في فترة معينة؛ لأنه كان يعتقد أن الكتب تشبه الطيور، ولم يكن يرغب في رؤيتها ساكنة أو محبوسة، وإلا - كما كان يقول - ستشعر بالحزن. وفوق أكبر تلك الأرفف المعلقة وضع أجزاء موسوعة ديديروه وداليمبير بمجرد أن وصلت إليه من مكتبة ليفورنو. وإذا كان في الفترات الأخيرة، وبسبب بقائه وسط الكتب، كان بعيدًا شاردًا عما يدور حوله، إلا أنه الآن، وبفضل قراءة الموسوعة، ساعدته بعض المداخل الجميلة في الموسوعة، مثل نحلة، شجرة، غابة، حديقة، على إعادة اكتشاف كل الأشياء التي حوله وكأنها جديدة بالنسبة إليه. وبدأت تظهر بين الكتب التي يطلبها أيضا الكتب العلمية،

كتب فن زراعة الأشجار على سبيل المثال، وكان يتلهف لتجربة المعلومات الجديدة.

كان العمل الإنساني يستهوي كوزيمو دائمًا، ولكن حتى تلك اللحظة كانت حياته فوق الأشجار وتنقلاته ورحلات الصيد كلها من استجابة لنزوات ودوافع منعزلة، وبلا مبرر، وكأنه طائر صغير. أما الآن فلقد أصبح بحاجة إلى أن يصنع الخير لجاره. وسنجد هذا أيضا، إذا فكرنا قليلاً، شيئًا تعلمه من علاقته باللص، متعة أن يشعر بفائدته، وأن يقوم بخدمة ضرورية للآخرين.

تعلم فن تقليم الأشجار، وقدم عمله لزرّاع الفاكهة، وخاصة في الشتاء عندما تصبح الغابة متاهات غير منتظمة بسبب فروعها، وتبدو وكأنها لا تتمنى شيئًا سوى أن تتحول إلى أشكال أكثر تهذيبا مليئة بالأشجار والأزهار والثمار. وكان كوزيمو يقلم الأشجار جيدا بأجر زهيد، وهكذا لم يكن هناك مالك صغير أو صاحب بساتين إلا وطلب منه أن يمر عليه، وكنا نراه في ضوء الصباح الكريستالي، لتلك الفترات، وهو يقف على قدميه فوق الأشجار المنخفضة العارية وهو يلف رقبته بوشاح يصل حتى أذنيه، وكان يرفع مقص الأشجار ونسمع ضربات المقص. وبضربات واثقة كانت الفروع الصغيرة والثانوية تتطاير بعيدا. هذا الفن نفسه كان يستخدمه في الحدائق على نبات الظل ونبات الزينة، مزودًا بمنشار قصير، وفي الغابات، حيث استخدم بدلاً من البلطة التي يستخدمها قاطعو الأشجار، والتي تصلح فقط في تسديد الضربات لساق أحد الجذوع الثانوية ليسقطه كله أرضًا، استخدم بلطة صغيرة، سريعة، كان يستخدمها فقط فوق مع الفروع، ومع قمم الأشجار.

ومن ثم جعله حبه لهذا العمل بين الأشجار يصبح أيضًا - مثلما يحدث في كل حالات الحب الحقيقية - عديم الرحمة ومؤلمًا، حيث يجرح ويزيل ليسمح بالنمو والتشكيل. من المؤكد أنه كان يهتم دائمًا وهو يهذب الأشجار

أن يخدم ليس فقط مصلحة مالك النبات، ولكن أيضًا مصلحته هو الشخصية كشخص جوال بحاجة إلى أن يحسن الطرق التي يسير فيها، ولذلك كان يقوم بعمله، بحيث ينقذ دائمًا الفروع التي يستخدمها كجسر من شجرة إلى أخرى، بل كان يزيدها قوة بأن ينزع ما حولها من فروع. وهكذا أسهم بفنه في أن يجعل من تلك الطبيعة الخاصة لأومبروزا، والتي كان بالفعل يجدها حسنة جدًا، طبيعة أفضل بالنسبة إليه، وبهذا أصبح في آن واحد صديقًا لجاره وللطبيعة ولنفسه أيضًا، واستطاع أن يستمتع بعمله هذا الحكيم، وخاصة عندما تقدمت به السن، عندما كانت أشكال الأشجار تتناسب أكثر مع فقدانه لقواه. وبعد ذلك كان يكفي ظهور أجيال لا عقل لها، مليئة بالجشع، أناس ليسوا أصدقاء لشيء ولا حتى لأنفسهم، وتغير كل شيء، ولم يكن بإمكان أي شخص مثل كوزيمو التدخل لإنقاذ الأشجار.

ـ ١٤ ـ

ومع أن عدد أصدقاء كوزيمو كان في تزايد، إلا أنه قد صنع لنفسه أعداءً أيضًا، إذ إن متشردي الغابة، وبعد اهتداء جان داي بروجي للقراءات الجيدة ثم سقوطه الذي تلا ذلك، ساءت حالتهم جدًا. وفي إحدى الليالي، وبينما كان أخي نائمًا في قربته معلقًا على شجرة دردار في الغابة أيقظه نباح كلبه الدشهند، فتح عينيه، وكان هناك ضوء آت من أسفل، كانت الشجرة تحترق عند ساقها، والنيران تمتد لتبلغ الجذع.

حريق في الغابة! ما الذي أحدثه؟ وكان كوزيمو متأكدًا أنه لم يقرب الزناد في تلك الليلة. إذن كانت هذه ضربة من أولئك الأشرار! أرادوا أن يحرقوا الغابة لينهبوا الخشب، وفي الوقت نفسه يلقوا باللوم على كوزيمو، ليس هذا فحسب، وإنما أرادوا أيضًا أن يحرقوه حيًا.

وبمجرد حدوث هذا لم يفكر كوزيمو في الخطر الذي يهدده وهو يقف بالقرب من النيران؛ ولكنه فكر في أن تلك المملكة الممتدة المليئة بطرق وملاجئ ملكه هو وحده يمكن أن تتعرض للدمار، وكان هذا هو الشيء الوحيد الذي يرعبه. هرب ماسيمو أتيمو بالفعل حتى لا يحترق، وهو

يستدير كل فترة ليطلق صيحة يائس؛ فلقد كانت النيران تنتشر في الجزء السفلي من الغابة.

لم يفقد كوزيمو الأمل، كان قد نقل على شجرة الدردار التي كانت ملجأه عندئذ - كما يفعل دائمًا - أشياء كثيرة، ومن بينها زجاجة كبيرة مليئة بمشروب الشعير واللوز، وذلك ليروي عطشه في الصيف. تعلق حتى وصل إليها، وكانت السناجب والخفافيش تهرب بين فروع الشجرة خوفاً، وكانت الطيور تترك أعشاشها. أمسك بالزجاجة، وكاد يفتح غطاءها ويغرق جذع الشجرة لينقذه من النيران. عندما أدرك أن الحريق قد بدأ بالفعل ينتشر بين الحشائش، ويمتد إلى الأوراق الجافة، وإلى باقي الشجر، وسيلتهم كل ما حوله من أشجار قرر أن يخاطر: "فلتحترق شجرة الدردار إذن! إذا كنت أستطيع بواسطة مشروب الشعير واللوز أن أبلل الأرض حولها، حيث لم تصل النيران بعد، سيمكنني أن أوقف ذلك الحريق".

فتح غطاء الزجاجة، وبدأ بدفعات متموجة ودائرية يوجه دفعاته إلى الأرض، وعلى ألسنة النار الخارجية فأطفأها. وهكذا وجدت النيران في الجزء الأسفل من الغابة نفسها وسط دائرة من الأعشاب والأوراق المبتلة، ولم تتمكن من الانتشار.

ومن فوق قمة الشجرة قفز كوزيمو فوق شجرة زان قريبة. وفعل ذلك في اللحظة المناسبة؛ فلقد هوى الجذع المحترق بالنيران متحطمًا بين أعشاش السناجب الفارغة.

ولكن هل يتوقف الحريق عند هذا الحد؟ فقد كانت هناك شظايا وشعلات قد طارت بالفعل وانتشرت حول المكان؛ فمن المؤكد أن الحاجز الضعيف من الأوراق المبتلة لم يكن في إمكانه منع النيران من الانتشار. وهكذا بدأ كوزيمو يصرخ بكل قوته : حريق! حريق! حريق!

وأجابت أصوات: ماذا هناك؟ من يصرخ؟

وبالقرب من هذه الغابة كان هناك معسكر للفحامين، وكانت تنام هناك فرقة من أصدقائه القادمين من برجامو في أحد الأكواخ.

- النجدة. النيران!

وسرعان ما دوى صراخه في المنطقة الجبلية كلها. ونشر الفحامون الخبر في الغابة بلهجتهم غير المفهومة. وها هم يهرعون من كل اتجاه، ونجحوا في إخماد الحريق.

كانت لا بد أن تحذره هذه المحاولة الأولى للحريق الكيدي من وجود خطر على حياته، وأن تدفعه للابتعاد عن الغابة. ولكنه على العكس بدأ يهتم بكيفية حمايتها من الحرائق. كان صيف أحد تلك الأعوام الجافة، شديدة الحرارة، وكان قد اشتعل في الغابات الساحلية من جهة بروفنسا منذ أسبوع حريق صعبت السيطرة عليه، وفي الليل رأينا ألسنة النيران المرتفعة فوق الجبال وكأنها بقايا ضوء الغروب.

كان الهواء جافًا، وكانت النباتات والأغصان الجافة كأنها صمام إشعال ضخم، وبدا وكأن الرياح قد نشرت النيران تجاه مراعينا. ومع أنه لم يحدث قط أن اشتعل هنا أي حريق بالمصادفة أو بسوء نية، إلا أنه بإضافة هذا الحريق الذي يشمل الساحل كله لتلك العوامل، أصبحت أومبروزا تعيش تحت وطأة هذا الخطر، وكأنها قلعة سقفها مصنوع من القش يهاجمها الأعداء من مشعلي الحرائق. ولم تكن السماء أيضًا خالية من تلك الحمولة النارية؛ في كل ليلة كانت تعبر النجوم الساقطة بكثافة وسط صفحة السماء، وكنا نتوقع دائمًا أن نراها تسقط فوقنا.

وفي تلك الأيام، ووسط الذهول العام، جلب كوزيمو براميل، وثبتها بعد أن ملأها بالمياه في قمة الأشجار التي تقع في أماكن مركزية. "ربما لا تكون ذات فائدة كبيرة، ولكن لا بد أنها ستساعد على شيء ما". ولم يشعر

بالرضا، أخذ يدرس نظام مجاري المياه التي تعبر الغابة، التي كانت جافة تقريبًا، والمنابع التي تبعث فقط بخط مياه صغير، وذهب ليتشاور مع الفارس المحامي.

صاح إينيا سيلفيو كاريجا وهو يضرب بإحدى يديه: آه، فعلاً. أحواض مياه! سدود! يجب أن نقوم بعمل مشروعات! وانفجر في صرخات قصيرة وقفزات حماسية، في حين اندفعت إلى ذهنه أفكار متدفقة.

تركه كوزيمو ليقوم بعمل حسابات وتصميمات، وفي الوقت نفسه أثار اهتمام ملاك الغابات الخاصة، ومتعهدي الغابات العامة، وقاطعي الأخشاب، والفحامين. وأخذوا جميعًا ـ تحت قيادة الفارس المحامي (أو الفارس المحامي تحت قيادتهم جميعًا، مجبرًا على قيادتهم، وعلى ألا يشرد أبدًا) ومع كوزيمو الذي يراقب الأعمال من فوق - يبنون أماكن لتخزين المياه، بحيث يعرفون عند أية نقطة يندلع فيها حريق كيف يبدءون في ضخ المياه.

ولكن لم يكن هذا يكفي. كان لا بد أن ينظموا فرقًا من المطافئ، فرقًا تعرف على الفور ـ في حالة إطلاق الإنذار- كيف تنظم نفسها في صف، بحيث يمررون من يد إلى يد دلاء المياه، وبذلك يوقفون الحريق قبل أن ينتشر. ونتجت من ذلك فرقة أخرى تقوم بعمل دوريات حراسة وتفتيش ليلي. وقد جندهم كوزيمو من بين فلاحي أومبروزا وعمالها.

وسرعان - كما يحدث عادة في أية مؤسسة - ما نشأت روح الفريق وروح التآزر بين الفرق، وشعروا بأنهم على استعداد لإنجاز أشياء عظيمة. وكوزيمو أيضًا شعر بقوة جديدة، وشعر بالرضا؛ فلقد اكتشف قدرته على تجميع الناس وقيادتهم، وهي الموهبة التي- لحسن حظه - لم يسئ استخدامها قط؛ بل استخدمها فقط مرات قليلة جدًا في حياته، وكانت دائمًا بغرض تنفيذ أشياء مهمة، وكانت عادة ما تكلل بالنجاح.

وأدرك هذا، أن العمل الجماعي يمنح الإنسان قوة، بل يبرز أفضل المواهب لدى الأفراد، ويمنح تلك السعادة التي نادرًا ما يشعر بها الإنسان وهو يعمل بمفرده، سعادة أن يرى كم يوجد من الشرفاء والماهرين والقادرين، ولذلك يستحق الأمر أن يرغب الشخص في عمل الخير (في حين أنه إذا عاش شخص بمفرده، فإنه غالبًا ما يحدث له العكس، بأن يرى الوجه الآخر للناس، ذلك الوجه الذي لأجله يجب أن يضع المرء

دائمًا يده فوق سيفه ويكون على أهبة الاستعداد).

وهكذا كان ذلك الصيف، صيف الحرائق، صيفًا جيدًا؛ فقد كانت هناك مشكلة مشتركة تقلق الجميع، ويرغبون في حلها، وكان كل منهم يعطي أولوية لهذه المشكلة، ويقدمها قبل مشاغله، وعن كل ما كان يقدمه كان يجد المقابل في الشعور بالرضا لأن يجد نفسه في اتفاق وموضع تقدير أشخاص آخرين رائعين.

وفيما بعد، سيدرك كوزيمو أنه عندما تنتهي هذه المشكلة المشتركة، لن تصبح الجمعيات جيدة كذي قبل، ومن الأحرى أن يعود شخص عادي ويتخلى عن دور الزعيم. ولكن في ذلك الوقت، ومع كونه الزعيم، كان يقضي الليالي بمفرده تمامًا في الغابة للحراسة، فوق إحدى الأشجار مثلما كان يعيش.

وإذا حدث ورأى اشتعال نيران الحريق كان لديه فوق قمة الشجرة جرس، يمكن أن تصل دقاته إلى مسافات بعيدة، فيحذر المنطقة. وبهذا النظام استطاعوا إطفاء النيران في الوقت المناسب في ثلاث أو أربع مرات اندلعت فيها الحرائق، ومن ثم تم إنقاذ الغابات.

ونظرًا إلى أن الأمر كان يتدخل فيه عنصر المكائد، اكتشفوا أن الجناة هم قاطعا الطريق أوجاسو وبيل لوريه، ونفوهما من أراضي المقاطعة. وبنهاية أغسطس بدأ موسم هطول الأمطار، وزال خطر الحرائق.

في تلك الفترة كنا لا نسمع سوى الكلام الجيد عن أخي في أومبروزا. وكانت تلك الآراء المؤيدة له تصل إلى منزلنا: "إلا أنه بارع جدًا"، و"لكنه يستطيع إنجاز بعض الأشياء جيدًا"، وذلك بنبرة من يمدح بطريقة موضوعية شخصًا من ديانة مختلفة، أو من حزب مختلف، ويريد أن يُظهر أنه إنسان منفتح يستطيع أيضًا أن يقبل الأفكار البعيدة عن أفكاره.

كانت ردود فعل الجنرالة تجاه تلك الأخبار مفاجئة ومتسرعة، وكانت تسأل عندما يتحدثون معها عن الحراسة ضد الحرائق التي نظمها كوزيمو:

- هل لديهم أسلحة؟ هل يتدربون؟

لأنها كانت تفكر في تكوين الفرق المسلحة التي يمكنها، في حالة اندلاع حرب، أن تشترك في العمليات العسكرية.

أما والدنا فقد كان يستمع فقط في هدوء وهو يهز رأسه، ولم نكن نفهم هل كان كل خبر يصله عن ابنه يزيد من ألمه، أو كان يبدى استحسانًا متأثرًا بما بداخله من آمال خادعة، حيث إنه لا ينتظر شيئًا آخر سوى أن يعلق آماله عليه من جديد. ولا بد أن الأمر كان كذلك بالفعل، حيث إنه بعد بضعة أيام امتطى جواده، وذهب بحثًا عنه.

والتقيا في مكان مفتوح حوله صف من الأشجار. دار البارون بحصانه إلى الأمام وإلى الخلف مرتين أو ثلاثًا دون أن ينظر إلى ابنه، ولكنه رآه. أما الابن فمن أعلى شجرة أخذ يقفز حتى وصل إلى أقرب الأشجار إلى الأرض.

وعندما أصبح في مواجهة أبيه نزع قبعته المصنوعة من القش (والتي كان يضعها صيفًا بدلاً من القبعة المصنوعة من فراء القط) وقال:

- صباح الخير أيها السيد الوالد.

- صباح الخير يا بني.

- هل سيادتك بخير؟

- في توافق مع سني ومع الأحداث المؤسفة.

- يسعدني رؤيتك بخير.

- وهذا ما أريد أن أقوله عنك يا كوزيمو. سمعت أنك تعمل لأجل المصلحة العامة.

- إنني أهتم بسلامة الغابات التي أعيش فيها يا سيدي الوالد.

- أتعرف أن جزءًا من الغابة ملك لنا، ورثناه عن جدتك المسكينة إليزابيثا، رحمها الله؟

- أجل يا والدي. في منطقة بيرليو. وتنمو فيها ثلاثون شجرة كستناء، واثنتان وعشرون شجرة زان، وثماني أشجار صنوبر، وشجرة إسفندان. لديّ نسخة من كل الخرائط. وبصفتي عضوًا في عائلة مالكة لغابات أردت أن أشرك معي كل من يهمهم الأمر لإنقاذها.

قال البارون، وهو يستحسن الإجابة: هكذا إذن. ثم أضاف: ولكنه قيل لي إنها جمعية من الفرانين والمزارعين والحدادين.

- بل يا سيدي الوالد من كل المهن ما دامت مهناً شريفة.

- هل تعلم أن بإمكانك أن تحكم مقاطعة النبلاء بلقب دوق؟

- أعرف أنني عندما تكون لديّ أفكار أكثر من الآخرين، ثم أعطي للآخرين تلك الأفكار ويقبلونها، فإن هذا معناه أنني أحكم.

وكان البارون على وشك أن يقول له "وهل لكي يحكم أحد هذه الأيام أصبحت العادة الجلوس فوق الشجر؟"، ولكن ما فائدة أن يتطرق لهذا الموضوع الآن؟

تنهد غارقًا في أفكاره، ثم فك الحزام الذي يعلق فيه سيفه.

- أصبح عمرك الآن ثمانية عشر عامًا. وحان الوقت لأعتبرك ناضجًا. لن يكون أمامي الكثير لأعيشه.

ثم أمسك بسيفه مسطحًا بين يديه: هل تتذكر أنك بارون روندو؟

- بالطبع يا سيدي الوالد أتذكر اسمى؟

- هل تريد أن تصبح جديرًا بالاسم واللقب اللذين تحملهما؟

- سأحاول قدر استطاعتي أن أكون مستحقًا للقب إنسان، وسأحاول أيضًا أن أكون مستحقًا لأي من صفاته.

- خذ هذا السيف، سيفي. وقف فوق ركاب السرج، وانحنى كوزيمو على فرع الشجرة، واستطاع البارون أن يربط له حزام السيف حول وسطه.

- أشكرك يا والدي، وأعدك أن أستخدمه استخدامًا جيدًا.

- وداعًا يا بني.

- أدار البارون الحصان، وحرك عنانه، وابتعد ممتطيًا إياه ببطء.

مكث كوزيمو لوهلة يفكر هل عليه أن يحييه بالسيف، ثم فكر أن أباه لا بد أن يكون أعطاه السيف ليستخدمه في الدفاع، وليس ليقوم بحركات استعراضية، فتركه في الغمد.

ـ ١٥ ـ

وفي ذلك الوقت، ونظرًا إلى أنه كان يتردد إلى الفارس المحامي، أدرك كوزيمو أن هناك شيئًا غريبًا في تصرفاته، أو من الأفضل أن نقول شيئًا مختلفًا عن المعتاد، أكثر أو أقل غرابة من المعتاد. وكأن استغراقه لم يعد بسبب شروده، ولكن بسبب فكرة تسيطر عليه. وكانت اللحظات التي يبدو فيها ثرثارًا تتكرر بكثرة. وإذا كان في وقت ما، ونظرًا إلى كونه غير اجتماعي، لم يكن يضع قدميه قط في المدينة، فإنه أصبح الآن موجودًا تقريبًا طوال الوقت في الميناء، وفي التجمعات، أو جالسًا فوق الجدران مع أصحاب السفن أو البحارة المسنين، معلقًا على وصول المراكب أو رحيلها، وشرور القراصنة.

وعلى المدى البعيد لسواحلنا، كانت ما زالت تندفع مراكب قراصنة بلاد المغرب، وكانوا يتعرضون لتجارنا. وكانت قراصنة الوقت الحالي قليلة الإمكانات، لم تعد مثل ذلك الوقت الذي فيه إذا قابل أحدهم قرصانًا ينتهي أمره، وقد أصبح عبدًا في تونس أو الجزائر، أو يفقد فيها أنفه وأذنيه. فعندما ينجح العرب، حاليًا، في الوصول إلى أحد مراكب أومبروزا فإنهم يأخذون حمولتها: براميل البكالا، أشكالاً من الكاشو

الهولندي، حزم القطن.... وهكذا. وأحيانًا يكون تجارنا أسرع، فيفلتون منهم، وكانوا يطلقون طلقة مدفع ضد أشرعة الفلوكة، وكان المغاربة يجيبونهم بصقًا، وبإيماءات سيئة وصراخ.

على كل حال، كان هذا نوعًا من القرصنة البسيطة، والتي استمرت بسبب بعض القروض التي اعتقد الباشا زعيم تلك البلاد أنه يجب أن يطالب بها تجارنا وصانعي السفن، نظرًا إلى أنهم - حسب ما يدعون - لم يحصلوا على خدمة جيدة في بعض الحمولات، بل تم خداعهم أيضًا. وهكذا كانوا يحاولون أن يصفوا هذا الحساب تدريجيًا بالسرقات، ولكن في الوقت نفسه استمرت التبادلات التجارية، واستمرت المجادلات والمفاوضات.

لم يكن إذن في مصلحة أي من الطرفين أن يتمسك بفظاظته، ولذلك كان الإبحار زاخرًا بالمفاجآت والمخاطر، إلا أنه لم يتحول قط إلى مآسٍ.

والقصة التي سأنقلها لكم الآن حكاها كوزيمو بطرائق مختلفة، وسأتوقف عند تلك الغنية بالتفاصيل الكثيرة، وأكثرها منطقية. ومع أنني متأكد من أن أخي وهو يحكي مغامراته كان يضيف إليها الكثير من خياله، أحاول، نظرًا إلى أنه لا توجد لدي مصادر أخرى، أن أتمسك حرفيًا بما كان يقوله.

في إحدى المرات، رأى كوزيمو، والذي اعتاد بسبب نوبات الحراسة ضد الحرائق، أن يسهر ليلاً، ضوءًا يهبط في الوادي. أخذ يتبع هذا الضوء في صمت بين فروع الأشجار بخطواته التي تشبه خطوات القط، ورأى إنييا سيلفيو كاريجا وهو يسير في عجالة بطربوشه وعباءته ممسكًا في يده بمصباح.

ماذا كان الفارس المحامي يفعل في الخارج في تلك الساعة، وهو الذي اعتاد أن يأوي إلى فراشه مبكرًا كالدجاج؟ عندئذ تبعه كوزيمو، وأخذ

حذره من أن يصدر أي ضجيج مع أنه كان يعلم أن العم عندما يسير بهذه الطريقة المتحمسة يصبح أصم، ولا يرى سوى على بعد خطوة واحدة.

وعبر الدروب الجبلية والطرق المختصرة وصل الفارس المحامي إلى شاطئ البحر، في منطقة من الشاطئ مليئة بالحصى، وأخذ يحرك مصباحه. ولم تكن ليلة مقمرة، ولم تكن في الاستطاعة رؤية أي شيء في البحر، فيما عدا حركة زبد الأمواج القريبة. كان كوزيمو فوق شجرة صنوبر، بالقرب من الشاطئ، إذ الأشجار لا تصل إلى هناك، ولم يكن من السهل من فوق فروع الأشجار الوصول إلى كل مكان. إلا أنه كان يرى هذا المسن جيدًا وهو يرتدي طربوشه العالي على الشاطئ الخالي محركًا المصباح تجاه ظلام البحر. وفجأة، ومن وسط ذلك الظلام، أجابه ضوء مصباح آخر قريب، وكأنه تم إشعاله للتو، وطفا بسرعة مركب صغير ذو شراع مربع قاتم اللون ومجاديف، مختلفة عن مراكب المنطقة، ووصل إلى الشاطئ.

ورأى كوزيمو، على الأضواء المتموجة للمصابيح، رجالاً يرتدون العمائم على رءوسهم؛ بعضهم مكث في القارب واضعين إياها في محاذاة الشاطئ بضربات ضئيلة من المجاديف؛ وبعضهم الآخر هبط، وكانوا يرتدون سراويل فضفاضة حمراء اللون، ويضعون سيوفًا عريضة على خصورهم. شحذ كوزيمو عينيه وأذنيه. وكان العم والبرابرة يثرثرون فيما بينهم، بلغة لم تكن مفهومة، إلا أنها بدت مفهومة في معظم الوقت، ومن المؤكد أنها كانت اللغة التجارية المشهورة.

ومن حين إلى آخر كان كوزيمو يفهم كلمة بلغتنا يصر عليها إينيا سيلفيو وهو يضعها في سياق كلمات أخرى غير مفهومة، وكانت تلك الكلمات هي أسماء مراكب، وأسماء مشهورة لمراكب أحادية الصاري أو ثنائية يمتلكها صانعوا السفن في أومبروزا، والتي كانت تقوم بجولات مكوكية بين مينائنا وموانئ أخرى.

كان من الممكن أن يدرك على الفور ما يقوله الفارس! كان يخبر أولئك القراصنة عن أيام رُسُوّ سفن أومبروزا وإبحارها، وبالحمولة التي تحملها، وخط سيرها، وبالأسلحة التي على متنها.

وابتعد عنهم بسرعة، في حين صعد القراصنة على القارب من جديد، واختفوا في البحر المظلم. وكان من الواضح من الطريقة السريعة التي أجريت بها المحادثة أنها لا بد وأن تكون شيئًا معتادًا. من يدرِ منذ متى كانت الهجمات البربرية تحدث في أعقاب إخباريات عمنا.

مكث كوزيمو فوق شجرة الصنوبر، وهو لا يقدر أن يتحرك من هناك، من تلك الميناء الخالية. كانت الرياح عاصفة، والأمواج تصطدم بالصخور، وأخذت الشجرة تئن من كل فروعها، وأسنان أخي يصطك بعضها ببعض، ليس بسبب البرد الخارجي؛ ولكن بسبب الصقيع الذي أصابه من ذلك الاكتشاف المحزن. إذ إن ذلك المسن الخجول والغامض، الذي كنا، ونحن صغار، نحكم عليه دائمًا بأنه غير محل للثقة، والذي اعتقد كوزيمو أنه تعلم بالتدريج كيف يقدره ويتعاطف معه، يكشف عن حقيقته كخائن لا يمكن التسامح معه، وشخص جاحد لا يتورع عن إيذاء البلد الذي احتضنه كبائس بعد حياة مليئة بالأخطاء.

لماذا؟ ألهذا الحد يدفعه حنينه إلى تلك الأوطان، وأولئك الناس الذين معهم لا بد أن يكون قد شعر بالسعادة في فترة من فترات حياته، أو أنه كان يختزن شعورًا بالحقد القاسي تجاه ذلك البلد الذي يحصل فيه على كل لقمة عيش بالهوان. وانقسم كوزيمو بين دافع أن يجري ليعلن خطط الجاسوس، وينقذ بضائع تجارنا، وبين تفكيره في الألم الذي سيشعر به والدنا بسبب تلك العاطفة التي كان تربطه ـ بلا مبرر واضحًا – بأخيه من أبيه. وبالفعل بدأ كوزيمو في تخيل المشهد؛ الفارس والقيود في يديه يسير وسط الضباط، بين صفين من أهل أومبروزا يكيلون له السباب، ويقودونه إلى الميدان، ويضعون له حبل المشنقة في رقبته، ثم يشنقونه.

وكان كوزيمو قد أقسم بعد أن شهد موت جان داي بروجي بأنه لن يحضر مرة أخرى تنفيذ حكم بالشنق، وإذ به يجد نفسه يحكم بالإعدام على أحد أقاربه!

وأخذت هذه الفكرة تعذبه الليلة كلها، واستمرت الحال في اليوم التالي، وهو يعبر بغضب من فرع إلى آخر، ويركل بقدمه، أو يرفع نفسه بذراعيه، أو يتزحلق بين الجذوع مثلما كان يفعل دائمًا عندما يقع فريسة لفكرة ما. وأخيرًا اتخذ قراره، واختار حلاً وسطًا؛ وذلك بأن يخيف القراصنة وعمه، ومن ثم يقطعون تلك العلاقة الآثمة من دون الحاجة إلى تدخل العدالة. سيختبئ على شجرة الصنوبر تلك في الليل، ومعه ثلاث أو أربع بنادق معبأة؛ وعندما يلتقي الفارس القراصنة سيبدأ هو في إطلاق نيران بنادقه، الواحدة تلو الأخرى، جاعلاً الطلقات تمر من فوق رءوسهم. وبمجرد سماعهم لتلك الطلقات سيفر القراصنة والعم كل منهم في طريقه.

أما الفارس، الذي لم يكن بالتأكيد رجلاً شجاعًا، فإنه بعد أن ينتابه الشك أن شخصًا ما قد كشف أمره، ومن ثم يتأكد أن هناك من راقب تلك المقابلات على الشاطئ، سيتوخى الحذر، ولن يعود مرة أخرى إلى علاقته مع طاقم القراصنة العرب.

وبالفعل، انتظر كوزيمو ومعه بنادقه المعدة للإطلاق فوق شجرة الصنوبر ليلتين متتاليتين. ولم يحدث أي شيء، وها هو المسن، في الليلة الثالثة، مرتديًا طربوشه يهرول متعثرًا في حصى الشاطئ، ويبدأ في إعطاء الإشارات بالمصباح، وها هو المركب يرسو وبه البحارة ذوو العمائم.

كان كوزيمو مستعدًا واضعًا إصبعه على الزناد، إلا أنه لم يطلق النيران؛ لأن في هذه المرة كان كل شيء مختلفًا. وبعد قليل من المداولات قام اثنان من القراصنة من جهة الشاطئ بالإشارة تجاه المركب، وبدأ الآخرون في تفريغ أشياء: براميل وصناديق، حزمًا وأجولة، إجانات ونقالات مليئة

بالجبن. ولم يكن مركبًا واحدًا، بل كانت مراكب كثيرة، وجميعها محملة بالبضائع، وانطلق صف من مرتدي العمائم من الشاطئ يسبقهم عمنا، والذي كان يقودهم بخطواته غير الواثقة حتى وصلوا إلى مغارة وسط الصخور. وهناك وضع العرب كل بضائعهم، ومن المؤكد أنها كانت ثمار سرقاتهم الأخيرة.

لماذا كانوا يحضرونها على الشاطئ؟ فيما بعد كان من السهل إعادة صياغة الأحداث: نظرًا إلى أن فلوكة المغاربة كان عليها أن ترسو في واحد من موانئنا (بسبب أحد الاتفاقيات القانونية والتي كانت تتم بينهم وبيننا عادة في وسط عمليات السرقة)، ونظرًا إلى أنهم كان لا بد وأن يخضعوا للتفتيش الجمركي، احتاجوا أن يخفوا البضائع المسروقة في مكان أمين، ليأخذوها بعد ذلك في طريق العودة. وهكذا تثبت السفينة براءتها فيما يتعلق بالسرقات الأخيرة، ومن ثم يوطدون العلاقات التجارية مرة أخرى مع بلدنا.

كل هذه الخلفية عُرفت بوضوح فيما بعد. ولكن في لحظة الحدث نفسها لم يتوقف كوزيمو ليطرح على نفسه أسئلة، فقد كان هناك كنز القراصنة مخبأ في مغارة، وسيعود القراصنة إلى مراكبهم ويتركونه هناك، ولا بد من الاستيلاء عليه في أقرب فرصة. ولوهلة فكر أخي أن يذهب ليوقظ تجار أومبروزا، فلا بد وأنهم المُلاّك الشرعيون للبضائع، إلا أنه سرعان ما تذكر أصدقاءه الفحامين الذين يعانون الجوع في الغابة مع عائلاتهم. ولم يتردد: جرى بين الفروع متجهًا إلى المناطق التي فيها ينام القادمون من بيرجامو في أكواخ خشنة، في الساحة الممهدة بتراب رمادي اللون.

- هيا بسرعة! تعالوا جميعًا! لقد اكتشفت كنز القراصنة!

وتحت الخيام وأسقف الأكواخ بدأ انطلاق أصوات الأنفاس، واندفاعات وسباب، وفي النهاية أصوات تعجب وأسئلة: ذهب؟ فضة؟

قال كوزيمو: لم أر جيداً، ولكن من الرائحة أعتقد أنها كمية من الأسماك المجففة وجبن الماعز.

وعند سماع تلك الكلمات قام كل الرجال في الغابة، من كانت لديه بنادق أخذها، وآخرون أخذوا فئوسًا وأسياخًا، معاول ومجارف، ولكنهم أخذوا معهم أيضًا آنية ليضعوا فيها الأشياء، بل أخذوا معهم أيضًا سلال الكربون المتسخة والأكياس السوداء.

وانطلق موكب كبير، وتعالت الصيحات: هورا، هوتا، حتى النساء كن يهبطن والسلال الفارغة فوق رءوسهن، والصبية وهم يضعون الأكياس فوق رءوسهم ممسكين بالمصابيح. وكان كوزيمو يتقدمهم من فوق شجرة صنوبر في الغابة، إلى شجرة زيتون، ومن شجرة زيتون إلى شجرة صنوبر بحرية.

وبينما هم على وشك الالتفاف حول منحنى الصخرة التي خلفها تفتح المغارة، ظهر على قمة شجرة تين معوجة ظل أبيض لقرصان، رفع حسامه، وصاح محذرًا الآخرين. وبقليل من القفزات أصبح كوزيمو على فرع فوقه تمامًا وسدد سيفه إلى رئته حتى وقع أسفل في المنحدر.

وفي المغارة كان هناك اجتماع لرؤساء القراصنة. (ولم يكن كوزيمو قد انتبه، في البداية في أثناء عملية الذهاب والإياب لتفريغ البضائع، أنهم مكثوا هناك). وعندما سمعوا صراخ الحارس خرجوا ووجدوا أنفسهم محاصرين من شرذمة الرجال والنساء المصبوغين برواسب الدخان على وجوههم، يرتدون أكياسًا على رءوسهم، ومسلحون بالمجارف. رفعوا سيوفهم، وألقوا بأنفسهم للأمام محاولين فتح ممر. وهكذا بدأت المعركة: هورا! هوتا! إن شاء الله!

كان عدد الفحامين أكثر، ولكن القراصنة كانوا مسلحين، إلا أنه لم يكن هناك شيء أفضل في مواجهة الحسام من المجارف. وتعالت أصوات الاصطدام: دنج! دنج! وكانت أنصال المغاربة تتراجع وقد أصبحت مسننة.

أما البنادق القديمة فقد كانت تسبب دويًا ودخانًا ثم لا شئ. وبعض القراصنة أيضًا (من الواضح أنهم ضباط) كانت لديهم بنادق تبدو جميلة جدًا بمجرد رؤيتها، فجميعها فاخرة، ولكن في المغارة أصابت الرطوبة أحجار الاشتعال وأصبحت بلا فائدة. وكان الأذكى بين الفحامين يحاولون أن يسببوا الدوار للضباط من القراصنة بضربات من المجارف على رءوسهم لينزعوا منهم بنادقهم. ولكن بسبب العمائم التي يضعونها على رءوسهم كانت كل ضربة تصل إلى هؤلاء المغاربة تنتهي خفيفة وكأنها على وسادة، وكان من الأفضل ضربهم بواسطة الركب في معدتهم لأن بطونهم كانت عارية.

نظرًا إلى أن الشيء الوحيد المتوافر بكثرة كان الحصى، أخذ الفخامون يلقون عليهم بالحجارة. عندئذ، بادلهم العرب الضربات. وأخيرًا، وبفضل الحصى، اتخذت المعركة شكلاً منظمًا، ولكن نظرًا إلى أن الفحامين كانوا يرغبون في دخول المغارة منجذبين إلى روائح السمك المجفف التي تنبعث منها، والمغاربة يحاولون أن يهربوا تجاه قاربهم الراسي على الشاطئ، لم تكن بين الجانبين دوافع عظيمة للتقاتل. وعند لحظة معينة حدث هجوم من أهل برجامو فتح لهم مدخل المغارة، ومن جهة العرب كانوا ما زالوا يقاومون أسفل تساقط الحصى، بمجرد أن رأوا أن الطريق إلى البحر أصبح خاليًا تساءلوا: ولماذا إذن يقاومون؟ من الأفضل أن يرفعوا شراعهم ويرحلوا.

وبمجرد أن وصلوا إلى المركب الصغيرة، فرد الشراع ثلاثة من القراصنة، جميعهم ضباط نبلاء. بقفزة من شجرة صنوبر قريبة من الشاطئ ألقى كوزيمو بنفسه على الشجرة، وتعلق بعارضة السارية، ومن هناك فوق، ومستندًا إلى ركبتيه أشهر سيفه، ورفع القراصنة الثلاثة أحسمتهم، أما أخي فبضربات من اليمين ومن اليسار أوقف ثلاثتهم. أخذت السفينة الراسية تتأرجح يمينًا ويسارًا، وفي هذه اللحظة ظهر

القمر فأضاء السيف الذي منحه البارون لابنه، وأضاء أيضًا أنصال سيوف العرب. تزحلق أخي إلى أسفل السارية وغرس سيفه في صدر أحد القراصنة الذي سقط في الماء، وبسرعة السحلية صعد مدافعًا عن نفسه بصد ضربتين من الآخرين، ثم هبط مرة أخرى وطعن الثاني، ثم صعد من جديد وتبادل المبارزة قليلاً مع الثالث، وبانزلاقة أخرى طعنه.

كان القراصنة الثلاثة ممدين على الشاطئ نصفهم في المياه والنصف الآخر خارجها، وذقونهم مليئة بالأعشاب البحرية. أما القراصنة الآخرون في مدخل المغارة فلقد غشي عليهم من ضربات الحصى والمعاول. أما كوزيمو وهو ما زال متعلقًا بسارية المركب، فقد كان ينظر حوله بانتصار، عندما رأى الفارس المحامي يقفز خارجًا من المغارة وكأنه قطة حُرق ذيلها، فلقد كان حتى هذه اللحظة مختبئًا بالداخل. أخذ يجري تجاه الشاطئ ورأسه منحنٍ، ودفع القارب مبتعدًا به عن الشاطئ، وقفز بداخله، وأمسك بمجدافيه وأخذ يجدف بهما بكل قوته مبحرًا تجاه عرض البحر.

أخذ كوزيمو يصرخ وهو متعلق بالعارضة: أيها الفارس! ماذا تفعل! هل أصابك الجنون، عد إلى الشاطئ، إلى أين نحن ذاهبون؟ ولكن هيهات. كان واضحًا أن إينيا سيلفيو كاريجا يريد الوصول إلى سفينة القراصنة ليحتمي بها، فلقد اكتشفت خيانته التي لا تغتفر، وإذا مكث على الشاطئ سينتهي أمره فوق حبل المشنقة بالتأكيد. وهكذا أخذ يجدف ويجدف. أما كوزيمو، فمع أنه كان ما زال واقفًا وسيفه يقطر دمًا في يده، ومع أن المسن كان أعزل وضعيفًا، إلا أنه لم يكن يعرف ماذا يجب أن يفعل. في نهاية الأمر كان يؤسفه أن يستخدم العنف ضد عمه، ثم إنه لكي يصل إليه كان لا بد أن يهبط من فوق السارية، ومسألة أن ينزل على مركب تساوي نزوله على الأرض، أو أن فكرة أنه خالف بالفعل قوانينه الداخلية بأن يقفز من شجرة بجذور إلى سارية مركب كانت شيئًا مركبًا جدًا ليطرحه أمام نفسه في تلك اللحظة. هكذا لم يفعل أى شيء بل جلس على سارية المركب

واضعًا قدمًا في ناحية وأخرى في الناحية الأخرى، وترك نفسه ليذهب مع الأمواج ورياح خفيفة ترفع الشراع، ولم يتوقف الشيخ عن التجديف.

سمع نباحًا، وغمرته السعادة، كان كلبه ماسيمو أتيمو ، والذي كان قد اختفى في أثناء المعركة مختبئًا في مؤخرة القارب، وكان يهز ذيله وكأن شيئًا لم يكن. وأخذ كوزيمو يفكر، ففي نهاية الأمر لم يكن هناك شيء مؤلم إلى هذا الحد؛ كان في وسط عائلته، مع عمه، وكلبه يبحر في قارب، وهو الأمر الذي كان يعد متعة مختلفة بعد الأعوام العديدة التي عاشها وسط الأشجار.

كان ضوء القمر ينعكس على صفحة المياه، وكان الشيخ قد أنهكه التعب، كان يجدف بصعوبة وهو يبكي، ثم أخذ يقول : آه يا زهيرة، آه، آه يا الله... زهيرة... آه زهيرة ...إن شاء الله... وهكذا كان يتكلم بالتركية، بلا تفسير، ويردد بين دموعه اسم هذه المرأة، وهو اسم لم يسمعه كوزيمو قط من قبل. سأله: ماذا تقول أيها الفارس؟ ماذا أصابك؟ أين نذهب؟

أخذ الشيخ يقول : زهيرة. آه. زهيرة. الله، الله.

- مَن زهيرة هذه أيها الفارس؟ هل تعتقد أننا ذاهبون إلى زهيرة من هنا؟

فأومأ إينيا سيلفيو كاريجا برأسه بالإيجاب، وأخذ يتحدث بالتركية بين دموعه وكان يصرخ للقمر بهذا الاسم.

وحول زهيرة تلك بدأ ذهن كوزيمو على الفور في تدوير الافتراضات. ربما كان على وشك أن يكتشف أعمق سر لذلك الرجل الزاهد والغامض. إذا كان الفارس بذهابه تجاه سفينة القراصنة ينوي اللحاق بزهيرة تلك، ربما كان الأمر يتعلق إذن بامرأة كانت هناك، في تلك البلاد العثمانية. ربما كان الحنين إلى تلك المرأة هو الذي كان يسيطر على حياته كلها. ربما كانت هي صورة السعادة المفقودة التي كان يبحث عنها في تربية النحل، أو

في حفر قنوات المياه. ربما كانت حبيبة، عروسًا تركها هناك، في حدائق بلاد ما وراء البحار، أو ربما كانت ابنته، ابنة لم يرها منذ كانت طفلة. ربما بغرض البحث عنها حاول لأعوام كثيرة أن تكون له علاقة مع أية سفينة تركية أو عربية كانت تصل إلى موانئنا، وربما كانوا في النهاية قد نقلوا إليه أخبارها. وربما يكون قد عرف أنها أصبحت جارية، وأنه لكي يحررها عرضوا عليه أن يزودهم بمعلومات عن رحلات سفن أومبروزا. أو ربما كان هذا هو الثمن الذي دفعه هو ليضموه مرة أخرى بينهم، وليبحر معهم إلى بلد زهيرة.

والآن، وبعد أن انكشفت مؤامرته، كان مجبرًا على الهرب من أومبروزا، وهؤلاء المغاربة لا يمكنهم الآن أن يرفضوا اصطحابه معهم ليصل إليها. وفي أحاديثه الدهشة والمتقطعة كانت تتضارب نبرات الأمل مع التوسل والخوف أيضًا؛ الخوف من أن لا يكون الوقت المناسب، وأن تكون هناك كارثة أخرى في انتظاره لتبعده مرة أخرى عن المخلوقة التي يتمناها. ولم يعد في استطاعته أن يدفع المجدافين أكثر من ذلك، عندما اقترب ظل ما، قارب آخر بربري. ربما سمعوا من السفينة ضوضاء المعركة على الشاطئ فأرسلوا مستكشفين.

هبط كوزيمو إلى منتصف سارية السفينة، ليختبئ خلف الشراع. بدأ الشيخ يصرخ بلغته أن يأخذوه، وأن يصعدوه إلى السفينة، ومد إليهم ذراعيه. وفي الواقع لبوا طلبه؛ فبمجرد أن اقترب منهم، أمسكه اثنان من الانكشاريين المعمَّمين من كتفيه ورفعاه إلى فوق حيث إنه كان خفيف الوزن، وأدخلاه قاربهما. أما القارب الذي كان كوزيمو فوقه فقد ابتعد بسبب الاصطدام، وأبعدت الرياح الشراع بعيداً، وهكذا نجا أخي من موت محقق.

وبابتعاده بفضل الرياح، أخذت تصل إلى كوزيمو من قارب القراصنة أصوات وكأنها الصدى. كلمة نطقها العرب والتي بدت مثل: نذل! وصوت

الشيخ، والذي كان يسمعه يردد مثل الأبله: آه، زهيرة! وكانت الأصوات لا تترك مجالاً للشك أنه جاء دور الفارس. من المؤكد أنهم اعتبروه مسئولاً عن غزو المغارة، وفقدان الغنيمة، وموت أتباعهم، وكانوا يتهمونه بالخيانة.

ثم سمع صرخة، أعقبها سقوط شيئ في المياه، ثم الصمت. وتذكر كوزيمو صوت أبي، بوضوح وكأنه يستمع إليه، عندما كان يصرخ: إينيا سيليو، إينيا سيلفيو، وهو يتبع أخاه في الحقول، وأخفى وجهه في الشراع.

صعد مرة أخرى إلى قمة الصاري، ليرى إلى أين يتجه المركب، ولكن كان هناك شيء طافٍ في وسط المياه وكأن الرياح تحمله، شيء ما، شيء وكأنه علامة طافية، ولكن علامة لها ذيل... وهبط فوقها شعاع من ضوء القمر، ورأى أنها ليست شيئًا، بل رأس، رأس فوقها طربوش بخصلة، وتعرف تحته على الوجه المنعكس للفارس المحامي الذي كان ينظر نظرته الشاردة المعتادة، وفمه مفتوح، وكان باقي جسمه بداية من ذقنه غير ظاهر تحت المياه، وصرخ كوزيمو: أيها الفارس! أيها الفارس! ماذا تفعل؟ لماذا لا تصعد إلى القارب؟ اقترب من القارب! الآن سأجذبك! أيها الفارس!

ولكن العم لم يكن يجيبه: أخذ يطفو ويطفو ناظرًا إلى أعلى بتلك النظرة الشاردة وكأنه لا يرى شيئًا.

وقال كوزيمو: هيا. هيا يا ماسيمو أتيمو! ألق بنفسك في المياه! أمسك الفارس من ياقته! أنقذه! أنقذه!

قفز الكلب المطيع، وحاول أن يمسك بأسنانه الياقة ولكنه لم يتمكن، فأمسكه من لحيته.

كرر كوزيمو بإصرار: من ياقته يا ماسيمو أتيمو، قلت لك من ياقته، ولكن الكلب رفع الرأس ممسكًا باللحية ودفعها حتى متن القارب، ورأى كوزيمو أنه لم تعد هناك ياقة، بل لم يعد هناك جسد، كانت هناك فقط رأس، رأس إينيا سيلفيو كاريجا والتي نزعت بضربة حسام.

ـ ١٦ ـ

حكى كوزيمو نهاية الفارس المحامي في البداية بطريقة مختلفة تمامًا، فعندما حملت الرياح المركب الذي كان معلقًا على ساريتها إلى الشاطئ وماسيمو العظيم يتبعه وهو يسحب الرأس المقطوع، حكى للذين استجابوا لندائه - من فوق الشجرة التي انتقل بسرعة فوقها مستعينًا بحبل - قصة أبسط من ذلك بكثير؛ وهى أن القراصنة خطفوا الفارس ثم قتلوه. ربما كانت قصة أملاها عليه قلقه على والدنا، والذي كان سيصاب بالألم الشديد عند سماع خبر موت أخيه، وعند رؤية أشلائه المثيرة للشفقة؛ ولذلك لم يستطع كوزيمو أن يزيد من حزنه بالكشف عن خيانة الفارس، بل بعد ذلك حاول، عندما سمع عن الحزن الذي غرق فيه البارون، أن يحيك حول عمنا قصة مجد زائفة، مخترعًا صراعًا سريًا وجسورًا لهزيمة القراصنة كان قد كرس نفسه له منذ أمد طويل، بمجرد أن أدرك القراصنة ذلك اقتصوا منه. ولكنها كانت قصة متناقضة ومليئة بالثغرات، أيضًا لأنه كان يوجد شيء آخر أراد كوزيمو إخفاءه، وهو وصول غنائم القراصنة إلى المغارة، وتدخل الفحامين. وفي الواقع، إذا انتشر هذا الأمر لصعد كل سكان أومبروزا إلى الجبل ليستعيدوا بضائعهم من الفحامين، ولعاملوهم كلصوص.

وبعد بضعة أسابيع، عندما تأكد أن الفحامين قد تخلصوا من البضاعة، حكى قصة الهجوم على المغارة، ومن أراد الذهاب لاستعادة أي شيء عاد خالي الوفاض، فلقد قسم الفحامون كل شيء فيما بينهم بالعدل؛ الأسماك المجففة، واللحوم المملحة، والجبن، وكل ما تبقى أعدوا به وليمة كبيرة في الغابة استمرت اليوم كله.

كان والدنا قد طعن كثيرًا في السن، وكان الحزن على موت إينيا سيلفيا كاريجا قد أثر كثيرًا في طباعه. انتابته رغبة شديدة في المحافظة على أعمال أخيه، ولذلك أراد أن يعتني بنفسه بالمناحل، وأعد نفسه لهذا بكثير من التفاخر، مع أنه لم ير قط منحلاً من قريب. وليتزود بالنصائح كان يلجأ إلى كوزيمو، والذي كان قد تعلم شيئًا ما، ولم يكن يوجه إليه أسئلة مباشرة، ولكنه كان يقود الحديث ليوجهه إلى تربية النحل، ويستمع لما سيقوله كوزيمو، ثم يكرره كالأوامر للفلاحين بنبرة غاضبة وواثقة وكأنها أشياء معروفة لديه من قبل.

وكان يحاول ألا يقترب كثيرًا من المناحل؛ وذلك خوفًا من أن يلسعه النحل، ولكنه كان يريد أن يثبت أنه بإمكانه التغلب على هذا الخوف، ومن يدرِ كم كلفه هذا من عناء. وبالطريقة نفسها كان يعطي الأوامر لحفر بعض القنوات، أو لإنجاز مشروع بدأه إينيا سيلفيو المسكين. ولو نجح في ذلك لكانت مصادفة وليس أكثر؛ لأن المرحوم نفسه لم ينه قط أيًا من تلك المشروعات.

ولكن مع الأسف استمر هذا الشغف المتأخر الذي أصاب البارون فترة وجيزة. ففي أحد الأيام كان يقف هناك بين المناحل والقنوات منهمكًا وعصبيًا، وفي إحدى الالتفاتات المفاجئة رأى نحلتين تقتربان منه فتملكه الذعر، وبدأ يحرك يديه في الهواء فانقلبت إحدى المناحل، فأخذ يجري تتبعه سحابة من النحل. وفي جريه هذا المندفع سقط في تلك القناة التي كانوا يحاولون ملأها بالمياه، وأخرجوه منها مبتلاً.

مكث في الفراش، بسبب الحمى التي أصابته من قرص النحل، وتلك التي أصابته من الإصابة بالبرد لسقوطه في القناة، استمرت لمدة أسبوع

ثم شفي بعدها. ولكنه أصيب بعدها بحالة من الإحباط، لم يرغب بسببها في النهوض.

كان يلزم الفراش، وفقد كل رغبة في الحياة. فهو لم ينجح في أي شيء أراد إنجازه، فلم يعد أحد يتحدث عن الدوقية، وما زال ابنه البكر يعيش بين الأشجار، حتى بعد أن صار رجلاً، مات أخوه مقتولاً، وتزوجت ابنته وعاشت بعيداً مع أشخاص أكثر سخافة منها، وكنت أنا ما زلت صغيراً حتى أقف بجواره، وزوجته نشيطة جداً ومتسلطة. وبدأ يهذي ويقول إن الآباء اليسوعيين قد احتلوا منزله، وإنه لا يستطيع الخروج من غرفته. هكذا مات وهو مليء بالمرارة والجنون اللذين رافقاه طوال حياته.

حتى كوزيمو سار في الجنازة، قافزاً من شجرة إلى أخرى، ولكنه لم ينجح في دخول المدفن، لأنه لا يمكن التعلق بأشجار السرو الكثيفة. كان حاضراً معنا في أثناء عملية الدفن، ولكن بعيداً فوق السور. وعندما ألقينا جميعاً بحفنة التراب على الصندوق؛ ألقى هو أيضاً بفرع شجرة مورق. وأعتقد أننا جميعاً بالنسبة إلى والدنا كنا دائماً بعيدين تماماً مثل بُعد كوزيمو فوق الأشجار.

والآن، أصبح كوزيمو هو بارون روندو. ولكن حياته لم تتغير. كان، بالطبع، يهتم بكل مصالح أملاكنا، ولكن بطريقته المعتادة دائماً. عندما كان وكلاء الزراعة أو المستأجرون يبحثون عنه لم يكونوا يعرفون قط أين هو، وعندما كانوا يرغبون في الاختباء منه كان يظهر هو فوق أحد الفروع.

للعناية أيضاً بالأعمال العائلية كان كوزيمو كثيراً ما يظهر في المدينة، وكان يتوقف على شجرة الجوز الكبيرة في الميدان، أو على أشجار البلوط القريبة من الميناء. كان الناس يحيونه باحترام، ويدعونه "السيد البارون"، وكان هو يتخذ أوضاع الشخص المسن، كما يحب أن يفعل الشباب أحياناً، وكان يتوقف هناك ليتسامر مع حلقة من سكان أومبروزا تقف تحت الشجرة.

استمر في أن يقص، بطرائق مختلفة في كل مرة، نهاية عمنا، ورويدًا رويدًا تكشفت حقيقة الصلة بين الفارس والقراصنة، ولكن ليسيطر على الاستياء الفوري الذي أصاب المواطنين، أضاف قصة زهيرة، وكأن الفارس قد قصها عليه سرًا قبل موته، وهكذا كان يقودهم إلى التعاطف والتأثر بالمصير الحزين الذي انتهى إليه المسن.

وأعتقد أنه انطلاقًا من اختراعاته الصرفة، وصل كوزيمو في النهاية، نظرًا إلى محاولته الاقتراب تدريجيًا من الحقيقة، إلى تكوين قصة تحاكي تقريبًا جميع الأحداث. وقصها بالطريقة نفسها مرتين أو ثلاث مرات؛ ثم، ونظرًا لأن أهل أومبروزا لم يملوا قط من سماع القصة، ولأنه كان يضم إليهم مستمعين آخرين، والجميع يسألون عن تفاصيل جديدة اضطر إلى أن يضيف أجزاء، وتوسعات، ومغالاة في الأحداث، وأن يدخل شخصيات جديدة وأحداثًا وهكذا تشوهت القصة، وأصبحت قصة خيالية أكثر مما كانت في البداية.

والآن أصبح لكوزيمو جمهور كان يمكث ليستمع إلى كل ما يقصه بدهشة، وأصبح هو يستمتع بالحكي، وتحولت حياته فوق الأشجار والصيد، أو اللص جان داي بروجي، وكلبه ماسيمو أتيمو إلى مصادر حكايات لا نهاية لها. (كثير من الأحداث عن ذكريات حياته نقلتها كما حكاها هو تمامًا بناء على إلحاح جمهوره من المستمعين، وأقول هذا لأطلب الصفح، إذا لم يكن كل ما أكتبه يبدو حقيقيًا ومناسبًا لرؤية متناغمة للإنسانية وللوقائع).

على سبيل المثال سأله أحد هؤلاء المتسكعين:

- هل حقيقي أنك لم تضع قدميك قط إلا على الأشجار يا سيدي البارون؟

وأجابه كوزيمو: نعم، في إحدى المرات، ولكن بطريق الخطأ، صعدت على قرني وعل، اعتقدت أنني أعبر فوق شجرة إسفندان، ولكنها كانت في

الحقيقة قرني وعل، هرب من فرق الصيد الملكية، ووقف ثابتًا في تلك البقعة. شعر الوعل بثقلي وبدأ يهرب في الغابة. ولا يمكنني أن أصف لك كم التمزقات! وأنا جالس على رأسه كنت أشعر أننى أصطدم من كل ناحية، بين تلك الأطراف المدببة لقرنيه، والأشواك وفروع الغابة التي تصدمني جميعًا في وجهي. أخذ الوعل يقفز محاولاً أن يتخلص مني، ولكنني تشبثت بقوة. وتوقف عن الحكى، وعندئذ سأله ذلك الشخص: وكيف انتهى الأمر يا سيدي؟

وكان هو في كل مرة يُبدع نهاية جديدة: اخذ الوعل يجري، ويجري حتى وصل إلى قبيلة من الوعول، والتي بمجرد أن رأته يصل ومعه رجل معلق فوق قرنيه أخذت وهلة تبتعد عنه، ووهلة تقترب منه بفضول. أخذت أنا أصوب بالبندقية التي كنت أعلقها دائمًا حول عنقي، وكنت أصيب كل وعل أراه، حتى قتلت منها خمسينًا.

- وفي أي مكان يوجد خمسون وعل في غاباتنا؟ سأله واحد من أولئك العاطلين.

- الآن لم يعد هناك مزيد من هذا النوع؛ لأن هذه الخمسين التي قتلتها كانت كل الإناث، هل فهمت؟ في كل مرة كان الوعل الذي أمتطيه يحاول الاقتراب من أنثى وعل، كنت أطلق النار، وكانت تسقط صريعة. ولم يستطع الوعل أن يتصرف وسقط فريسة لليأس. عندئذ، قرر أن ينهي حياته، هرع فوق صخرة، ألقى بنفسه من أعلاها، ولكنني تعلقت بشجرة صنوبر كانت بالقرب من الصخرة، وها أنذا!

أو أنها كانت معركة اندلعت بين وعلين وتشابكا بالقرون، وأنه مع كل ضربة كان يقفز من قرني أحدهما إلى الآخر، حتى وجد نفسه على قمة شجرة بلوط إثر تصادم قوي.

على كل حال، كان قد أصابه ذلك الولع الذي يصيب ذلك الذي يقص الحكايات، ولا يعرف هل تلك التي حدثت له حقًا، والتي باستعادتها

يستعيد معها ساعات طويلة مرت عليه بما فيها من مشاعر دقيقة من المضايقات ومن السعادة، من التردد والمجد الزائد، ومن الملل، إذا كانت تلك أجمل أم أن القصص التي ينسجها حول تلك الأحداث، ويقتطع منها الكثير ليبدو فيها كل شيء سهلاً أجمل. ولكنها كلما تغيرت كلما أدرك أنه يعود مرة أخرى للتحدث عن الأشياء التي حدثت له بالفعل، أو تلك التي أدركها من الواقع الذي يعيشه.

كان كوزيمو في السن التي فيها تمنح الرغبة في الحكي رغبة في الحياة، والتي فيها يعتقد المرء أنه لم يعش بعد ما يكفي ليحكي عنه، وهكذا كان يخرج للصيد، ويتغيب لمدة أسابيع، ثم يعود مرة أخرى ليقف فوق أشجار الميدان ممسكًا بين يديه نموسًا وحيوانات الغرير والثعالب من ذيولها، وكان يقص على أهل أومبروزا حكايات جديدة. تتحول القصص الحقيقية إلى نسج من الخيال عندما يحكيها، ويتحول الخيال إلى حقائق.

ولكن مع كل هذا الشغف، كان بداخله شعور عميق بعدم الرضا، شيء ما ينقصه؛ ففي بحثه هذا عن أناس يستمعون إليه كان يبحث عن شيء آخر مختلف. لم يكن كوزيمو قد عرف الحب بعد، وما معنى أن تكون للمرء أية تجارب ولا يقع في الحب؟ ما قيمة أن يخاطر المرء بحياته عندما لا يكون قد عرف بعد المذاق الحقيقي للحياة؟

وكانت الفتيات العاملات في الحقل أو في بيع الأسماك يعبرن في ميدان أومبروزا، وتعبره أيضًا الآنسات في عرباتهن، وكان كوزيمو يلقي عليهن جميعًا نظرات سريعة، ولم يكن قد فهم بعد جيدًا لماذا كان بهن جميعًا شيء يبحث عنه ولم يجده بأكمله في أي منهن. وفي الليل، عندما كانت الأضواء تُطفأ في كل المنازل، ويمكث كوزيمو وحده تصحبه تلك الأعين الصفراء للبوم، كان يشعر بحاجة إلى أن يحلم بالحب.

وكان يشعر بالإعجاب والحقد تجاه الأحباء الذين يتواعدون خلف السياج، وبين صفوف الأشجار، وكان يتبعهم بنظراته وهم يختفون في

الظلام، ولكن إذا استلقوا عند جذع شجرته كان يهرب بعيدًا ممتلئًا خجلاً.
عندئذ، وليتغلب على الحياء الطبيعي لعينيه، كان يتوقف ليراقب الحب لدى الحيوانات. ففي فصل الربيع كان عالم التزواج فوق الأشجار؛ فكانت السناجب تتزواج بحركات وأصوات شبه آدمية، والعصافير تتزواج وهى ترفرف بأجنحتها، حتى السحالي كانت تجري متحدة وأذيالها معقودة كل منها بالآخر؛ وتبدو القنافذ وكأنها أصبحت أكثر نعومة ليصبح عناقها أكثر عذوبة. ولم يكن ماسيمو أتيمو يشعر بالخجل من كونه الدشهند الوحيد في أومبروزا، فكان يتودد إلى أنثى كلاب الراعي، أو الكلاب الذئاب بجرأة شهوانية معتمدًا على اللطف الطبيعي الذي يميزه. وكثيرًا ما كان يعود حزينًا من العقر؛ ولكن كان يكفيه لقاء حب واحد سعيد ليعوضه عن كل هزيمة تعرض لها.

وكوزيمو أيضًا، مثل ماسيمو أتيمو، كان النموذج الوحيد من نوعه. فكان في أحلام اليقظة يرى نفسه محبوبًا من فتيات غاية في الجمال؛ ولكن كيف يمكنه أن يجد الحب فوق الأشجار حيث يعيش. كان كل شيء يحدث في مكان غير محدد، كان يتخيل، وكأنها في عالم يصل إليه كلما اتجه إلى أعلى، وليس إلى أسفل. ربما كان يحلم بشجرة عالية جدًا عندما يصعد عليها يصل إلى عالم آخر، إلى القمر.

وفي نفس الوقت، بدأ يشعر بأنه غير راض عن نفسه باستمراره في تلك الأحاديث في الميدان. وفي أحد الأيام ومنذ أن قال أحد التجار، شخص ما قادم من مدينة أوليفاباسا القريبة:

- آه، أنتم أيضًا لديكم إسباني!

وعندما سألوه ماذا يقصد بذلك أجاب:

- في أوليفاباسا يوجد جنس من الإسبان يعيشون فوق الأشجار!

لم يشعر كوزيمو منذ تلك اللحظة بالراحة إلا عندما بدأ رحلة عبور أشجار الغابة متجهًا إلى أوليفاباسا.



ـ ١٧ ـ

كانت أوليفاباسا بلدًا غير ساحلي. وصل إليها كوزيمو بعد نحو يومين من السير، وخاطر بعبور مناطق نادرة الأشجار. وفي الطريق، وبالقرب من المناطق السكنية، كان من لم يره قط من قبل يطلق صيحات من الدهشة، وبعضهم كان يلقيه بالأحجار، ولذلك كان يحاول أن يسافر خفية قدر المستطاع. ولكن بالتدريج وباقترابه من أوليفاباسا لاحظ أنه إذا رآه أحد الحطابين أو الصيادين أو جامعي الزيتون لم يكن يبد أي تعجب، بالعكس كان الرجال يحيونه رافعين قبعاتهم وكأنهم يعرفونه، وكانوا يقولون كلمات بالتأكيد لا صلة لها بلهجتهم الأصلية، لأنها كانت تبدو غريبة في أفواههم مثل:

Senor! Buenos diasm Senor!

وكان فصل الشتاء، وكانت بعض الأشجار عارية الأوراق. وفي أوليفاباسا كان هناك صفان من أشجار الدلب والدردار تعبران في المناطق السكنية. وعندما اقترب أخي رأى أنه بين الفروع العارية يوجد أشخاص، واحد أو hثنان بل ثلاثة على كل شجرة، جالسين أو واقفين، بطريقة جادة. وصل إليهم ببضع قفزات.

كانوا رجالاً يرتدون ملابس النبلاء، وقبعات ثلاثية فوقها الريش، معاطف فخمة، وكان للنساء مظهر النبيلات أيضًا، يرتدين الخمار على رءوسهن، وكانت تجلس اثنتان وثلاث منهن على فروع الأشجار، بعض النساء كن يطرزن وهن ينظرن كل فترة إلى أسفل، إلى الطريق بحركة خاطفة جانبية من جذوعهن، وهن يسندن أذرعهن بطول الفرع، وكأنه حافة نافذة.

وكان الرجال يوجهون إليه التحية وكأنهم ممتلئون بنوع من التفهم المر: صباح الخير أيها السيدنج وكان كوزيمو يرفع قبعته. وبدا له أن أحدهم، هو أكثرهم سلطة؛ شخصًا سمينًا مستندًا على فرع مزدوج لشجرة الدلب، ويبدو وكأنه لن يستطيع الخروج منه، جلده يبدو من لونه أنه مريض بالكبد، وتبدو ظلال شاربه ولحيته المحلوقين سوداء على الرغم من تقدمه في السن، وكان يبدو أنه يسأل جاره، وهو شخص هزيل، نحيف يرتدي اللون الأسود، وهو أيضًا يبدو ذقنه أسود اللون من حلاقتها؛ عن هوية ذلك الغريب الذي يتقدم فوق صف الأشجار.

ورأى كوزيمو أنه حانت اللحظة التي فيها يجب أن يقدم نفسه. وصل إلى شجرة الدلب وتقدم من الشخص السمين، وانحنى وقال:

البارون كوزيمو بيافاسكو من روندو في خدمتك.

روندوسن؟ روندوس؟ من اجريجنتو؟ أم من خاليتشانو؟

- لا يا سيدي.

- كاتالاني؟

- لا يا سيدي، إنني من هذه الجهة.

Desterrado tambien?

شعر السيد النحيف أن عليه التدخل ليقوم بدور المترجم، وبأسلوب غاية في التكلف بدأ: يقول صاحب الفخامة فيديركو الونسو سانشيه دي

جواتامورا أي توباسكو، إذا كنت سيادتك أيضًا لاجئًا، نظرًا إلى أنك تقفز فوق الأشجار.

- لا يا سيدي. أو على الأقل لست لاجئًا بناء على قرار شخص آخر.

Vuaja usted sorbe Ios arboles por gusto

والمترجم: فخامة فيديريكو الونسو يرغب في أن يسأل سيادتك: هل تسلك هذا الطريق عن طيب خاطر؟

فكر كوزيمو قليلاً وأجاب: لأنني أعتقد أن هذا الوضع يناسبني أكثر، على الرغم من أن أحدًا لا يفرضه عليَّ.

صاح فيديريكو ألونسو سانشيه متنهدًا :

Feliz usted! Ay de mi, ay de mi!

وأخذ الشخص المرتدي اللون الأسود يشرح، بتصنع متزايد: يقول فخامته إن سيادتك سعيد الحظ جدًا لأنك تستمتع بتلك الحرية، والتي لا يمكننا أن نمنع أنفسنا من مقارنتها بحالتنا الإجبارية، والتي مع ذلك كله نتحملها لأنها إرادة الله، ورشم الصليب.

وهكذا، وبين صيحة مختصرة من الأمير سانشيه، وبشرح مُفصل من السيد الذي يرتدي الأسود، استطاع كوزيمو أن يبني قصة المستعمرة القائمة فوق أشجار الدلب.

كانوا جميعًا نبلاء من إسبانيا تمردوا على الملك شارل الثالث بسبب تعارض في مصالح ملكيات الأراضي، وهكذا تم نفيهم مع عائلاتهم وعند وصولهم إلى أوليفاباسا، منعوهم من استكمال رحلتهم؛ فتلك الأراضي في الواقع، وبناء على اتفاقية قديمة مع بابا الكاثوليك، لم تكن تستطيع استقبال، أو حتى السماح بعبور الأشخاص المنفيين من إسبانيا.

وكان وضع تلك العائلات النبيلة غاية في الصعوبة، ولا حل له، ولكن قضاة أوليفاباسا، والذين لم يرغبوا في أن تصبح بينهم وبين تلك الوفود

الأجنبية أية مضايقات، وحيث لم تكن لديهم أسباب لمعاداة أولئك المسافرين الأثرياء، وصلوا إلى حل: كانت المعاهدة تنص على أن المنفيين لا يجب أن يلمسوا تراب تلك الأراضي، يكفي إذن أن يمكثوا فوق الأشجار، وسيسير كل شيء وفقًا للقانون. وهكذا صعد المنفيون فوق أشجار الدلب والدردار، بسلالم من الحبال منحتها لهم البلدية، والتي نُزعت بعد ذلك. وكانوا قد استقروا هناك فوق منذ بضعة أشهر، معتمدين على أن يصدر شارل الثالث، في ظل هذا الوضع الهادئ، قرارًا بالعفو عنهم، ومعتمدين على العناية الإلهية. وكانت لديهم ذخيرة مضاعفة أتوا بها من إسبانيا وكانوا يشترون المأكولات، وهكذا ازدهرت حركة التجارة في المدينة.

وليجذبوا الأطباق إلى أعلى، جهزوا بعض المصاعد، وعلى أشجار أخرى وضعوا مظلات ينامون أسفلها، أي أنهم استطاعوا ضبط حياتهم بطريقة جيدة، أو يمكن القول إن أهل أوليفاباسا ساعدوهم في الحصول على تلك المعدات، لأن وجودهم كان يدر عليهم عائدًا جيدًا. أما المنفيون، فمن جهتهم لم يكونوا يحركون إصبعًا واحدة طوال اليوم.

وكانت بالنسبة إلى كوزيمو المرة الأولى التي يتقابل فيها مع أشخاص آخرين يعيشون فوق الأشجار، وبدأ يطرح أسئلة عملية:

ـ وعندما تمطر ماذا تفعلون؟

Sacramos todo iI tempo, senor

والمترجم الأب سولبيتشو دو جوادليتي، التابع لجماعة اليسوعيين والمنفي هو أيضًا منذ أن طردت إسبانيا جماعته الرهبانية يردد: نحتمي بمظلاتنا، ثم نوجه أفكارنا إلى الله، شاكرين إياه على ذلك القليل الذي يكفينا.

ـ وهل تذهبون إلى الصيد.

Senor, algunas veces con iI viscio

ـ أحيانًا بعض منا يدهن أحد الفروع بالغراء ليلهو.

ولم يتعب كوزيمو قط من اكتشاف كيف استطاعوا حل كل المشكلات التي واجهته هو أيضًا.

ـ ولتغتسلوا! لتغتسلوا، ماذا تفعلون لتغتسلوا؟

قال دون فيديريكو رافعًا كتفيه:

Por Iavar? Hay Iavanderas

نعطي ملابسنا لغسالات المدينة ـ ترجم ذلك دون سولبيتشو ـ ولتحري الدقة أضاف ـ ننزل لهم سلة الملابس المتخسة كل يوم إثنين.

لا أقصد القول لتغسلوا وجوهكم وأجسامكم.

أصدر دون فيديريكو صوتًا كالخوار، ورفع كتفيه، وكأن هذه المشكلة لم تقابله قط. واعتقد دون سوبليتشو أنه يجب أن يفسر ذلك: في رأي فخامته هذه أشياء شخصية تخص كل واحد بمفرده.

ـ ولكن، اعذرني، وأين تقضون حاجتكم؟

Ollas, Senor

ودون سوبليتشو، بنبرته المتواضعة كالعادة: في الواقع نستخدم بعض الأصص لهذا الغرض.

وكان كل هؤلاء النبلاء والنبيلات محتفظين ـ على الرغم من المضايقات الكثيرة التي يتعرضون لها بسبب إقامتهم بهذه الطريقة ـ تم بسلوكهم المعتاد والرزين. ولكي يجلس بعض الرجال ممتطين فروع الأشجار، وضعوا فوقها أسراج الأحصنة، وهي فكرة أعجبت كوزيمو كثيرًا، والذي على الرغم من أعوامه الطويلة التي قضاها فوق الأشجار لم يفكر في هذه الطريقة لحوهذه طريقة مفيدة جدًا لوجود السقاطات ـ والتي لاحظها على الفورتم فهي تبعد المضايقة التي تسببها ضرورة ترك القدمين مدلاتين، مما

يسبب التنميل بعد فترة). وكان بعض منهم يضع النظارات المعظمة البحرية لحوكان أحدهم برتبة أدميرالـلخ، والتي ربما كانت تفيدهم فقط في أن ينظر بعضهم إلى بعض من شجرة إلى أخرى، وذلك لإشباع فضولهم والثرثرة.

أما السيدات والآنسات فقد كن يجلسن جميعًا على وسائد صنعوها بأنفسهن، وهن يقمن بأشغال الإبرة لحكن الوحيدات العاملات، بطريقة مالخ، أو كن يربتن على ظهور قططهن الضخمة. وكان يوجد فوق الأشجار عدد كبير من القطط، والعصافير أيضًا، الموضوعة في أقفاص لحربما كانوا ضحايا الصيد بالغراءلخ، فيما عدا بعض الحمائم التي تطير حرة وتقف على يد الصغيرات اللاتي يربتن عليهن بحزن.

واستقبلوا كوزيمو بجدية شديدة في أحد تلك الصالونات المقامة فوق الأشجار. قدموا له القهوة، ثم على الفور بدءوا في التحدث عن قصورهم التي تركوها في إشبيلية، وفي غرناطة، وعن أملاكهم، ومخازن الحنطة، واصطبلاتهم، بل دعوه إلى أن يذهب إليهم عندما يستردون أملاكهم. أما عن الملك الذي طردهم فكانوا يتحدثون عنه بنبرة كانت مزيجًا من العداء المتطرف والاحترام الواجب، قادرين على أن يفصلوا تمامًا بين الشخص الذي كانت عائلاتهم تتصارع معه، وبين اللقب الملكي الذي بسلطته منحهم ما لديهم من ألقاب. ولكنهم أحيانًا كانوا يخلطون بين الطريقتين المتناقضين للنظر في الأمور باندفاعة لا شعورية. أما كوزيمو، ففي كل مرة كانوا يتحدثون فيها عن الملك، لم يكن يعرف كيف يتصرف.

وكانت تخيم على كل إيماءات المنفيين وأحاديثهم هالة من الحزن والحداد، كانت تناسب إلى حد ما - طبيعتهم، وكانت - بطريقة أو بأخرى اختيارًا ذاتيًا أيضًا، كما يحدث أحيانًا بداخل من يحارب لأجل قضية غير محددة الملامح، ويحاول أن يعوض ذلك بفرض نوع من الوقار عليها.

وكان بداخل الشابات منهم - اللاتي بَدوْنَ من النظرة الأولى لكوزيمو أن جميعهن مشعرات بدرجة كبيرة، وجلودهن غليظة - يشتعل أحيانًا بنوع من الحيوية، ولكنهن كن يوقفنه في الوقت المناسب. كانت اثنتان منهن تلعبان من شجرة دلب إلى أخرى بكرة الريشة ثم تنطلق صرخة رقيقة: لقد وقعت الريشة في الطريق، ويلتقطها أحد الصبية المتشردون في أوليفاباسا، وليقذفها إلى أعلى كان يأخذ بيزيتا.

وعلى الشجرة الأخيرة، شجرة دردار، كان يجلس شيخ يدعى إلكوندي، لا يرتدي الباروكة، وملابسه متواضعة. وبالاقتراب منه، خفض الأب سولبيتشو صوته، ومن ثم قلده كوزيمو. كان إلكوندي يحرك أحد الفروع بذراعه - من حين إلى آخر - وينظر إلى منحدر الهضبة، أو الأرض المسطحة، أو تلك الخضراء، أو الجافة التي كانت تختفي كلما نظر إلى أبعد.

همس سولبيتشو لكوزيمو قصة ابن إلكوندي المحبوس والمعذب في سجون الملك شارل. وأدرك كوزيمو أنه بينما كل أولئك النبلاء كانوا منفيين فقط بالاسم، ولكنهم كان عليهم كل فترة أن يستدعوا من ذاكرتهم ويكرروا على أنفسهم السبب والكيفية اللذين وصلوا بهما إلى هنا، فإن هذا المسن هو فقط من كان يتألم بالفعل. كانت حركة إبعاد الفرع التي يكررها، وكأنه يتوقع أن يرى أرضًا أخرى تظهر، وذلك التحول البطيء لنظرته في امتداد ذلك التموج، وكأنه يتمنى ألا يلتقي بخط الأفق، وأن ينجح في أن يرى بلده على الرغم من بعدها، أولى علامات النفي الحقيقي التي رآها كوزيمو. وأدرك أيضًا أهمية وجود إلكوندي بالنسبة لأولئك النبلاء، وكأن هذا الوجود هو الذي يوحدهم معًا، ويعطي لهم معنى. ربما كان هو أفقرهم، وبالتأكيد أقلهم سلطة هناك في بلادهم، إلا أنه هو الذي كان يخبرهم بما يجب عليهم التألم منه، بل ما يجب عليهم أن يأملوه.

وعند عودته من الزيارات رأى كوزيمو فتاة على شجرة حور، فتاة لم يرها قبل ذلك، وبقفزة كان هناك أمامها.

وكانت عينا الفتاة لونهما رائع كلون زهرة العناقية السماوي، وجسدها تنبعث منه رائحة العطر، وكانت ممسكة بدلو.

ـ كيف إذن لم أرك حينما كنت أزور الآخرين؟ ابتسمت: كنت آخذ المياه من البئر.

وتساقطت المياه قليلاً من الدلو المائل، فساعدها على حمله.

ـ إذن أنتم تنزلون من فوق الأشجار؟

ـ لا، يوجد فرع شجرة كريز يظلل البئر، ومن هناك ننزل الدلاء. تعالَ.

سارا على أحد الفروع، ثم تسلقا سور أحد القصور، وقادته هي في طريقة فوق شجرة الكرز، وكانت البئر هناك في أسفل.

ـ هل ترى أيها البارون؟

ـ كيف عرفت أنني بارون؟

ـ أنا أعرف كل شيء ـ ثم ابتسمت وأضافت تم قالت لي أختاي عن زيارتك.

ـ هل هما من كانتا تلعبان بالكرة الريشة؟

ـ تمامًا، إيرنيا ورايموندا.

ـ بنات دون فيدريكو؟

ـ أجل.

ـ واسمك؟

ـ أورسولا.

ـ ولكنك تسيرين فوق الأشجار أفضل منهن جميعًا.

ـ لأنني كنت أصعد فوق الأشجار وأنا طفلة؛ في غرناطة كانت لدينا أشجار ضخمة في بلاطنا.

- وهل تستطيعين إحضار هذه الوردة؟ وفوق قمة إحدى الأشجار كانت هناك وردة متسلقة مزدهرة.

- مع الأسف، لا.

- حسنًا، سأقطفها لك أنا. ابتعد وعاد بالزهرة. ابتسمت أورسولا، ومدت يدها لتأخذها.

- أريد أن أضعها لك بنفسي، قولي لي أين.

- على رأسي. أشكرك. وساعدته هي بيديها.

سألها كوزيمو: والآن قولي لي، هل تعرفين كيفية الوصول إلى شجرة اللوز تلك؟ ضحكت: كيف هذا؟ فأنا لا أعرف الطيران.

- انتظري، وجذب كوزيمو حبلاً، إذا تركتني أربطك بهذا الحبل وأدفعك إلى هناك.

- لا. أخاف. ولكنها كانت تضحك.

- إنها طريقتي، أنا أسافر منذ أعوام، وأفعل كل شيء بمفردي.

- يا أمي

نقلها إلى هناك، ثم لحق بها، كانت شجرة لوز رقيقة ولكنها ضيقة، فجلس ملاصقًا لها. وكانت أورسولا ما زالت تنهج، ووجهها مضرّج بالحمرة من ذلك الطيران.

- خائفة؟

- لا. ولكن قلبها كان ينبض بقوة.

- لم تقع الوردة. قال هذا ثم لمسها ليصحح وضعها. وهكذا، وهما جالسان متجاوران فوق الشجرة الضيقة كانا يتعانقان عند أي حركة.

قالت هي: آه، ثم بدأ هو، وقبَّلها. وهكذا بدأ الحب، كان الفتى سعيداً ومدهوشًا. أما هي فكانت سعيدة، ولكن لم تكن تشعر بأية دهشة (فلا شيء يحدث للتفيات مصادفة).

كان الحب الذي انتظره كوزيمو طويلاً، والذي وصل إليه دون أن يتوقعه، وكان جميلاً إلي حد أنه لم يفهم كيف استطاع أن يتخيله جميلا قبل ذلك.

وأجمل ما كان في هذا الشيء الجديد هو بساطته الشديدة، وبدا للفتى في تلك اللحظة أن الأمر يجب أن يستمر دائمًا بهذه البساطة.

ـ ١٨ ـ

أزهرت أشجار الخوخ واللوز والكرز، وكان كوزيمو وأورسولا يقضيان أيامهما معًا فوق الأشجار المزهرة، وكان الربيع يلون بالسعادة حتى مظهر الحداد للأقارب المحيطين بهما.

وفي مستعمرة المنفيين استطاع أخي على الفور إثبات فائدته، وذلك بأن علمهم الطرائق المختلفة ليعبروا من شجرة إلى أخرى، وبتشجيعه للعائلات النبيلة لأن تخرج من سلوكها الرسمي المعتاد لتتحرك قليلاً. بل إنه أرسى جسورًا من الحبال تسمح للمنفيين المسنين بأن يتبادلوا الزيارات. وهكذا، وفي نحو سنة قضاها مع الإسبان، زود المستعمرة بمعدات كثيرة اخترعها بنفسه؛ خزانات للمياه، أفران صغيرة، قِرب من الجلد ليناموا بداخلها. وكانت رغبته في اختراع أشياء جديدة تدفعه إلى أن يتبع عادات أولئك النبلاء، حتى عندما كانت تتعارض مع أفكار كتَّابه المفضلين. وهكذا، وعندما لاحظ رغبات أولئك الأشخاص الصالحين ممارسة سر الاعتراف بانتظام، حفر حجرة للاعتراف بداخل أحد جذوع الأشجار، والذي كان يمكن للأب الرفيع دون سولبيتشو أن يدخل بداخلها، وكان يمكنه، من خلال نافذة صغيرة وعليها ستارة وشبكة حديدية، أن يستمع لاعترافاتهم.

لكن شغفه الصرف بالاختراعات التقنية لم يكن يكفي لإنقاذه من استحواذ عاداته اليومية عليه، فلقد كانت تلزمه الأفكار. كتب كوزيمو لأوريكي صاحب المكتبة، والذي كان يرسل إليه بالبريد من أومبروزا إلى أوليفاباسا الكتب التي تصل إليه في أثناء غيابه، وهكذا استطاع أن يجعل أورسولا تقرأ "باولو وفرجينيا" و إلويزا الجديدة".

كثيرًا ما كان يعقد المنفيون اجتماعات فوق شجرة بلوط مترامية الأطراف، شيئًا كالبرلمان يقومون في أثنائه بصياغة خطابات للملك. كانت تلك الخطابات في البداية مليئة بالاعتراضات الشديدة والتهديدات، تكاد تكون تحذيرات أخيرة، ولكن في وقت ما، بدأ بعضهم اقتراح صيغ أكثر لطفًا واحترامًا، وهكذا وصلوا إلى كتابة خطاب توسل، فيه ينحنون بتواضع عند أقدام صاحب الفخامة المعظم، طالبين منه العفو.

عندئذ كان إلكوندي يقف، فتُعقد ألسنة الجميع، وكان يبدأ في التحدث وهو ينظر إلى أعلى بصوت منخفض ومتهدج، ويقول كل ما في قلبه. وعندما كان يعاود الجلوس يمكث الآخرون جادين وصامتين، ولا يعود أحد منهم يشير إلى خطاب التوسل.

كان كوزيمو الآن قد أصبح عضوًا في هذه الجماعة، وكان يشترك معهم في اجتماعات البرلمان. وهناك وبحماسة الشباب الساذج، كان يشرح لهم أفكار الفلاسفة وأخطاء الملوك، وكيف يمكن أن تُحكم الدول بالعقل والعدل. ولكن من بين الجميع كان من يستمع إليه هم: إلكوندي، والذي مع كونه مسنًا، كان ينهك نفسه دائمًا بحثًا عن طريقة للفهم والتصرف، وأورسولا التي كانت قد قرأت بعض الكتب، وفتاتان أكثر يقظة من الأخريات. أما بقية المستعمرة فقد كانت رءوسهم فارغة كالنعال التي يمكن تثبيتها بالمسامير.

وهكذا، وبدلاً من أن يمكث كوندي هذا في مكانه المعتاد ليتأمل المناظر الطبيعية، بدأ يرغب في قراءة الكتب. بدا له روسو صعبًا، ولكن

مونتيسكيو كان يعجبه، وكانت هذه خطوة إلى الأمام بالفعل. أما النبلاء الآخرون فلم يهتموا بشيء، مع أن بعضهم كان يطلب من كوزيمو، بعيدًا عن أعين الأب سولبيتشو، أن يعيره رواية "الصبية" ليقرءوا فيها الصفحات الممنوعة. وهكذا، وبوجود إلكوندى الذي كان يلتهم الأفكار الجديدة، اتخذت اجتماعات شجرة البلوط منحى آخر، فالآن أصبح الجميع يتحدثون عن الذهاب إلى إسبانيا والقيام بالثورة.

في البداية لم يتوقع الأب سولبيتشو الخطر، فهو لم يكن شخصًا ذكيًا، ونظرًا لأنه كان منفصلاً تمامًا عن كل التنظيم الهيكلي لرؤسائه، لم يعد مطلعًا على سموم الضمائر. ولكن بمجرد أن استطاع إعادة ترتيب أفكاره (أو بمجرد، كما قال آخرون، تلقى خطابات عليها الختم الأسقفي) بدأ يقول إن الشيطان قد تسلل إلى مجتمعهم، وإنه لا بد من توقع وابل من النيران ستحرق الأشجار ومن عليها.

وفي إحدى الليالي أيقظ كوزيمو صوت أنين، هرع ممسكًا مصباحًا، وفوق شجرة الدردار الخاصة بإلكوندي رأى الشيخ مقيدًا في الجذع، والأب اليسوعي يعقد القيود بقوة.

- أيها الأب، ماذا يحدث هناك؟

- إنها يد محاكم التفتيش المقدسة يا بني! إنه دور هذا الشيخ البائس، حتى يعترف بالهرطقة ويبصق الشيطان. ثم سيأتي دورك أنت أيضًا!

استل كوزيمو سيفه وقطع القيود - احترس أيها الأب - توجد أذرع أخرى أيضًا تخدم العقل والعدل!

استل الأب اليسوعي من معطفه سيفًا حادًا وقال - بارون روندو، إن لدى عائلتك منذ زمن حسابًا مع نظامي الرهبني!

- إذن كان أبي رحمه الله على حق - صاح كوزيمو مهاجمًا - إن جماعتكم الرهبانية لا تعرف الصفح!

وأخذا يتبارزان فوق الفروع. وكان دون سولبيتشو مبارزًا ماهرًا، ووجد أخي نفسه في وضع سيئ اكثر من مرة. كانا في جولتهما الثالثة عندما استعاد إلكوندي وعيه وبدأ في الصراخ. استيقظ المنفيون الآخرون وهرعوا نحو الصوت، وتدخلا بين المتبارزين. أخفى سولبيتشو سيفه بسرعة، وأخذ يحاول أن يأمر الجميع بالهدوء.

لم يعد كوزيمو يشعر بالأمان بالتأكيد بعد ما حدث، عندما كان يتجول فوق الأشجار مع أورسولا كان يخشى دائمًا أن يتجسس عليه الأب اليسوعي. وكان يعرف أنه سيذهب ويسمم أفكار دون فيديريكو حتى لا يسمح لابنته بالخروج معه. في الحقيقة كانت تلك العائلات النبيلة تربت على عادات غاية في الانغلاق. ولكن هناك فوق الأشجار، في المنفى، لم يكونوا يعطون اهتمامًا كبيرًا لأشياء كثيرة، وكان كوزيمو يبدو لهم شابًا ماهرًا، يحمل لقبًا، ويعرف كيف يكون نافعًا، ويجلس هناك معهم دون أن يفرض أحد ذلك الأمر عليه، حتى إن كانوا قد فهموا أن بينه وبين أرسولا علاقة خاصة، وكانوا يرونهما يبتعدان كثيرًا بين أشجار الفاكهة بحثًا عن الزهور والفاكهة، وكانوا يغلقون أعينهم حتى لا يجدون ما يمكن أن يُقال.

أما الآن، وقد بدأ دون سولبيتشو يوعز إلى دون فيدريكو بالشر، فإنه - أي دون فيدريكو -لم يعد يستطيع أن يتظاهر بعدم معرفة أي شيء. فاستدعى كوزيمو ليتحدثا معًا على شجرة الألب الخاصة به، وكان يجلس بجواره سولبيتشو، طويلاً وأسود.

ـ أيها البارون، قيل لي إنك تظهر كثيرًا مع ابنتي.

ـ نعم عظمتك، فهي تعلمني كيف أتحدث لغتكم.

ـ كم عمرك؟

ـ لم أكمل بعد التاسعة عشر.

ـ ما زلت شابًا، شابًا صغيرًا جدًا! إن ابنتى في سن الزواج. لماذا تتجول معها؟

ـ أورسولا عمرها سبعة عشر عامًا.

ـ هل تفكر حقًا في الاستقرار؟

ـ في ماذا؟

ـ يبدو أن ابنتى تعلمك لغة كاتالانيا بطريقة سيئة، أقول لك هل تفكر في أن تختار لنفسك زوجة، وتؤسس منزلاً.

مد كل من كوزيمو وسولبيتشو أيديهما إلى الأمام في حركة تعجب، فلقد بدأ الحديث يتخذ منحنى، لم يكن هو المراد لدى اليسوعي ولا حتى لدى أخي.

– إن منزلى ـ قال كوزيمو وهو يشير حوله تجاه الفروع الأكثر ارتفاعًا والسحالي – إن منزلى في كل مكان، في كل مكان يمكننى الصعود إليه، في كل مكان متجه إلى أعلى.

– ليس هذا – وهز الأمير فيدريكو ألونسو رأسه بالنفي، أيها البارون، إذا أردت أن تأتي غرناطة عندما نعود إليها سترى أكثر الإقطاعات ثراء في المنطقة كلها.

ولم يستطع دون سولبيتشو أن يلتزم الصمت أكثر من ذلك: ولكن فخامتك، هذا الشاب يتبع أفكار فولتار. لا يجب أن تكون له أية علاقة بابنة عظمتك.

– آه إنه شاب، ما زال شابًا، فالأفكار تروح وتجيء. بمجرد أن يصبح لديه منزل ويتزوج سينسى هذا كله، تعال معنا إلى غرناطة، تعال.

– أشكرك جزيل الشكر يا صاحب السعادة، سأفكر في هذا. وتراجع كوزيمو بانحناءات كثيرة وهو ممسك قبعته المصنوعة من فراء القط ويديرها بيديه.

وعندما رأى أورسولا مرة أخرى كان مهموماً، أتعرفين يا أورسولا، لقد تحدث معي أبوك. قال لي بعض الأشياء.

ارتعدت أورسولا: ألا يريدنا أن نتقابل بعد اليوم؟!

ـ ليس هذا. إنه يريدني ان آتي معكم غرناطة عندما ينتهي نفيكم.

ـ آه حقاً! كم هذا جميل!

ـ ولكني... أترين؟ إنني أحبك كثيراً، ولكنني عشت دائماً فوق الأشجار، وأريد أن أظل فوقها.

ـ آه يا كوزيمي، لدينا أشجار جميلة هناك أيضاً.

ـ نعم، ولكن لأرحل معكم يجب أن أنزل، وأنا إذا نزلت...

ـ لا تقلق يا كوزيمي. فنحن منفيون الآن، وربما نظل هنا حياتنا كلها.

ولم يقلق أخي بعد ذلك.

ولكن كانت توقعات أورسولا خاطئة. فبعد فترة وجيزة وصل خطاب إلى دون فيدريكو عليه الأختام الملكية الإسبانية. لقد تم تم رفع الحظر بسبب تدخلات البابا الكاثوليكي، وأصبح من الممكن للنبلاء المنفيين أن يعودوا إلى منازلهم وممتلكاتهم.

وعلى الفور عمت الحركة فوق أشجار الدلب: سنعود! سنعود! مدريد، إشبيلية.

وانتشر الخبر في المدينة، ووصل أهل أوليفاباسا ومعهم السلالم والحبال. وكان الشعب يحتفل بالمنفيين بمجرد نزولهم، ويجمع لهم حقائبهم.

صاح إلكوندي: ولكن الأمر لم ينته بعد! يجب أن يستمع إلينا من البلاط! وصاحب العرش! ونظراً إلى أن رفاقه في المنفى فى تلك اللحظة

لم يبد أي منهم استعداده للإصغاء إليه، ولأن السيدات كن قلقات على ملابسهن التي لم تعد آخر صيحة، والتي يجب تجديدها، أخذ هو يلقي بالخطب العصماء على شعب اوليفاباسا: والآن سنذهب إلى إسبانيا وسترون! هناك سنصفي حساباتنا! فأنا وهذا الشاب سنطبق العدالة! وكان يشير إلى كوزيمو، اما كوزيمو فمضطربًا أخذ يشير بالنفي.

وكان قد تم نقل دون فيدريكو على الأذرع ووصل إلى الأرض: هيا أيها الشاب الغريب -صرخ في كوزيمو - هيا أيها الشاب النابه! انزل! تعال معنا إلى غرناطة!

أخذ كوزيمو يشير بالرفض وهو منكمش على نفسه فوق أحد الفروع.

والأمير: كيف لا؟ ستكون مثل ابني!

قال إلكوندي: انتهى النفي، أخيرًا نستطيع أن ننفذ ما تاملناه لمدة طويلة. ماذا تفعل فوق هذه الأشجار أيها البارون؟ لم يعد هناك سبب لذلك! فرد كوزيمو ذراعيه: لقد صعدت إلى هنا قبلكم أيها السادة، وسأمكث فوقها بعد رحيلكم!

صاح إلكوندي: أتريد الانسحاب؟

أجاب كوزيمو: لا، المقاومة.

وكانت أورسولا، والتي نزلت بين أوائل من نزلوا ومعها أختاها، منهوكة في وضع حقائبهم فوق إحدى العربات، فهرعت تجاه الشجرة.

- إذن سأمكث معك! سأمكث معك، وجرت تجاه السلم! أوقفها أربعة أو خمسة أشخاص، نزعوها من هناك، وأزالوا السلالم من فوق الأشجار.

قال كوزيمو وهو لا يرى أورسولا وهم يجرُّونها بالقوة لتركب العربة المنطلقة:

- وداعًا يا أورسولا! كوني سعيدة!

وانفجر نباح احتفالي، كان الكلب الدشهند ماسيمو أتيمو، والذي كان طول مدة مكوث سيده في أوليفاباسا كان يبدي استياء شرسًا، وربما غاضبًا من المشاجرات المستمرة بينه وبين قطط الإسبان، الآن يبدو أنه عاد إلى سعادته. وأخذ يطارد، ولكنه كان كمن يلهو، القطط القليلة الباقية التي ربما نسوها فوق الأشجار، والتي كانت ترفع فراءها وتزمجر.

ورحل المنفيون، بعضهم على ظهر حصان، وبعضهم الآخر في عربات تجرها الخيول، وبعضهم في مركبات، وأصبح الطريق خاليًا. ومكث أخي وحيدًا على أشجار أوليفاباسا.

وكانت ما زالت هناك فوق الفروع بعض من الريش، وبعض من الشُرُط والخيوط التي تحركها الرياح، قفاز وشمسية بدانتيللا، مروحة وفردة حذاء طويل بمهماز.

ـ ١٩ ـ

كان الفصل الذي عاد فيه البارون من جديد ليظهر في أومبروزا صيفًا يتميز بلياليه المقمرة، وبأصوات الضفادع وصفير الحسون. بدا أخي فريسة لقلق يشبه قلق الطيور؛ كان يجري من فرع إلى آخر، يدس أنفه في كل شيء، يحيط به الغموض، وغير حاسم. وعلى الفور انتشرت شائعة؛ أن فتاة ما تدعى كيكينا، من هناك من الوادي، هي محبوبته. كانت هذه الفتاة تعيش وحيدة في المنزل مع خالة مصابة بالصمم، وكان هناك فرع من فروع شجرة الزيتون يمر بالقرب من نافذتها. وكان العاطلون في الميدان يتناقشون حول حقيقة هذا الأمر.

- لقد رأيتهما، هي على حافة النافذة، وهو على الفرع. كان هو يحرك ذراعيه كالخفاش، وكانت هي تضحك.

- وفي ساعة معينة يقفز هو!

- ما الذي تقوله؟ وإذا كان قد أقسم أنه لن ينزل من فوق الأشجار طيلة حياته.

- حسنًا، لقد وضع هو لنفسه القاعدة، ويمكن أن يضع لنفسه أيضًا الاستثناءات.

– آه، وإذا بدأ بالاستثناءات.

– ولكن لا. أقول لك؛ إنها هي التي تقفز من النافذة لتصعد على الشجرة!

– وكيف يقومون بذلك؟ لا بد أن الوضع غير مريح بالمرة.

– أعتقد أنه لم يلمسها قط. نعم، ربما يتودد إليها، أو ربما تكون هي التي تغويه. ولكنه لن ينزل من هناك، من فوق.

ـ نعم، لا، هو، هي، حافة النافذة، القفز، الفرع. لم تنته قط مناقشاتهم.

وأصبحت كارثة عظمى الآن بالنسبة إلى الخطّاب والأزواج إذا نظرت حبيباتهم أو زوجاتهم إلى أعلى تجاه أي شجرة.

أما النساء فبمجرد أن يتقابلن تبدأ الهمسات والأحاديث. عن من يتحدثن؟ عنه طبعًا.

سواء أكان لكيكينا وجود أم لا، كان أخي يمارس علاقاته الجنسية دون أن ينزل قط من فوق الأشجار. فلقد قابلته في أحد الأيام وهو يجري بين الفروع حاملاً على عنقه مرتبة، بطريقة عادية جدًا، والتي بها اعتدنا أن نراه حاملاً البنادق والحبال الغليظة، والفئوس والأكياس، وقربة المياه، وقناني الرمال.

واعترفت لي امرأة لطيفة تدعى دوروتيا أنها التقت به، في مبادرة منها، وليس لغرض ما؛ فقط لتكوِّن عنه فكرة.

– وما الفكرة التي كونتها؟

– آه! شعرت بالسعادة...

وامرأة أخرى تدعى زبيدة، حكت لي أنها حلمت بـ"الرجل المتسلق" (كانت تطلق عليه هذا الاسم) وكان حلمًا مليئًا بالمعلومات الحقيقية والدقيقة إلى حد أنني اعتقدت بأنه شيء عاشته حقًا. بالتأكيد أنا لا

أعرف ما الذي كان يحدث في تلك القصص، ولكن لا بد ان كوزيمو كان له سحر خاص على النساء. فمنذ أن كان مع الإسبان، اعتاد أن يعتنى أكثر بنفسه، ولم يعد يتجول ملتحفًا بالجلد كالدب، بل أصبح يرتدي البنطال، والفراك الأنيق، والقبعة الإنجليزية، وكان يحلق لحيته ويمشط باروكته. بل أصبح الآن في الإمكان التأكد من طريقة ارتدائه الملابس إذا كان ذاهبًا إلى الصيد، أم أنها مقابلة عاطفية.

إلى حد أن امرأة نبيلة ناضجة إلى حد كبير، من هنا في أومبروزا (ما زال بناتها وأحفادها يعيشون، والذين يمكن أن يشعروا بالإهانة، ولكن في ذلك الوقت كانت قصة معروفة) كانت تسافر دائمًا بالعربة، وحيدة، مع الحوذى المسن، وتجلس بالمقصورة، وكانت تجعله يسير بها في ذلك الطريق الرئيسي الذي يعبر الغابة. وعند نقطة معينة كانت تقول للحوذي: چوفيتا، إن الغابة تعج بعش الغراب، هيا، اذهب لتجمع لي منه في هذه السلة الكبيرة ثم عد، ثم تعطيه سلة.

وكان الرجل المسكين، بما يعانيه من روماتيزم، ينزل من فوق العربة، ويمسك بالسلة فوق كتفيه، ويخرج من الطريق، ويتجه نحو أشجار البطارس في الظلال، ثم يأخذ في الدوران وسط أشجار الزان، وهو منحنٍ ينبش أسفل كل ورقة ليعثر على يولتوس أو كمأة. وفي الوقت نفسه تختفي المرأة النبيلة من العربة، وكأنها خطفت نحو السماء، فوق، بين الفروع الكثيفة التي تغطى الطريق. لا أحد يعرف شيئًا آخر، إلا أنه في أكثر من مرة، يحدث أن من يمر مَن هذا الطريق كان يرى العربة متوقفة وخالية في الغابة. ثم، وبطريقة غامضة، تعود السيدة النبيلة لتجلس في العربة كما اختفت، وهي تنظر بوهن. ثم يعود چوفيتا ملطخًا بالوحل، ومعه بعض ثمار عش الغراب جمعها في السلة، ويعاودان الرحيل.

وكانت تُحكى كثير من تلك القصص، وخاصة في منزل بعض سيدات المجتمع من جنوة، واللاتي كن يعقدن اجتماعات لرجال ميسوري الحال

(وكنت أتردد أنا أيضا إلى تلك الاجتماعات، عندما كنت عازبًا)، وهكذا بدا أن هؤلاء النسوة لا بد وقد ذهبن لزيارة البارون. وفي الواقع يُقال إن هناك شجرة بلوط، ما زالوا يطلقون عليها حتى الآن شجرة طيور الدوري الخمسة، وفقط نحن المسنين نعرف معنى هذا الاسم. كان هناك شخص يُدعى چى، بائع زبيب، هو الذي قص هذه الحكاية، وهو رجل له مصداقية. في أحد الأيام المشمسة الجميلة، وبينما كان هذا الرجل ذاهبًا إلى الغابة ليصطاد؛ وصل إلى تلك الشجرة. وماذا رأى؟ كوزيمو، وقد أخذ السيدات الخمس على الفروع، واحدة من هنا، وواحدة من هناك، وكن يستمتعن بحرارة الشمس، عاريات تمامًا، وفوقهن المظلات الكبيرة مفتوحة كي لا تحرقهن حرارة الشمس، وكان البارون هناك في وسطهن، وهو يقرأ لهن أبياتًا من الشعر اللاتيني التي لم ينجح الرجل في معرفة إذا كانت لأوفيديو أو للوكريتزيو.

وكانوا يحكون الكثير والكثير، ولم أكن أعرف الحقيقة؛ ففي ذلك الوقت كان هو متحفظًا وخجولاً. أما عندما تقدم به العمر فقد كان يحكي ويستفيض، بل ويزيد أكثر على الحد المعقول، فقد كانت على الأكثر قصصًا لا مكان لها لا على السماء ولا على الأرض، لم يكن حتى هو يفهمها. حتى إنه في تلك الفترة بدأت العادة أنه بمجرد أن تحبل فتاة، ولا يعرفون من الفاعل، كان أسهل شيء هو إلقاء اللوم عليه. وفي إحدى المرات حكت إحدى الفتيات أنها ذهبت لتجمع الزيتون، وشعرت بأن يدين طويلتين كيدي الشمبانزي ترفعانها إلى أعلى. وبعد ذلك بفترة أنجبت طفلين توءمين وامتلأت أومبروزا بأولاد بلا نسب، وكانوا ينسبونهم - سواء أكان ذلك حقيقيًا أم لا- إلى البارون. والآن كبروا جميعًا، والحق يقال، بعضهم يحمل نفس ملامحه؛ ولكن ربما يكون الأمر مجرد إيحاء، لأن السيدات الحوامل عندما كن يرين كوزيمو، وهو يقفز من فرع إلى فرع كان ذلك بالتأكيد يؤثر فيهن ويسبب لهن اضطرابًا.

أما أنا، وبصفة عامة، فإنني لا أصدق أي شيء فيما يتعلق بتلك القصص المتعلقة بغرامياته. لا أعرف هل عرف نساء كثيرات كما يقولون، ولكن من المؤكد أن النساء اللاتي عرفنه بالفعل كن يفضلن التزام الصمت. ثم إذا كان لديه بالقرب منه كل هؤلاء النساء، كيف يمكن تفسير الليالي المقمرة التي كان فيها يدور مثل القط، وعلى أشجار التين، والبرقوق والرمان، حول المساكن، في تلك المنطقة المليئة بالبساتين، حيث تنتشر الدائرة الداخلية لمساكن أومبروزا، وكان يدور وهو يشكو، ويتنهد، أو يتثاءب، أو يئن، ومع أنه كان يحاول أن يسيطر على تلك الأصوات إلا أنها كانت تخرج من حنجرته وكأنها العواء أو المواء. وكان أهل أومبروزا، والذين كانوا قد اعتادوا ذلك، عندما يقلقون في نومهم، فإنهم لم يكونوا يشعرون بالفزع، ولكنهم كانوا يتقلبون في فراشهم وهم يقولون: "إنه البارون يبحث عن أنثى، لنتمنى أن يجدها ويتركنا لننام". وأحيانًا، كان بعض المسنين الذين يعانون الأرق ويذهبون إلى النافذة بإرادتهم إذا شعروا بأية ضوضاء، ويتطلعون منها لينظروا إلى البستان، وكانوا يرون ظلاله بين فروع شجرة التين، وهي تنعكس في ضوء القمر، على الأرض.

- إذن، سيادتك، لا تستطيع النوم هذه الليلة. أليس كذلك؟ كان كوزيمو يقول: لا، إنني أدور منذ فترة وما زلت يقظًا، وكأنه يتحدث وهو في الفراش ووجهه غارق في الوسادة، ولا ينتظر سوى أن تغمض عيناه، في حين أنه في الحقيقة معلق هناك فوق، كلاعب أكروبات.

- لا أعرف ماذا هناك؟ ربما الحر، ربما العصبية، ربما الطقس على وشك التغيير، ألا تشعر سيادتك أيضًا بذلك؟

- آه، بلى، بلى. ولكنني رجل مسن يا سيدي، ولكن سيادتك ما زلت شابًا، ودماك مندفعة في عروقك.

- آه بالفعل، مندفعة، وتندفع.

- حسنًا، لتحاول سيادتك أن تجعلها تدفعك إلى مكان أبعد من هنا، يا سيدي البارون، حيث إن هنا لا يوجد شيء يمكنه تهدئتك، فلسنا سوى عائلات فقيرة تستيقظ في الفجر، وتريد أن تستمتع بنومها الآن.

لم يكن كوزيمو يجيب، كان يقفز بعيدًا ليذهب إلى بساتين أخرى. كان يعرف دائمًا كيف يلتزم حدوده، ومن ناحية أخرى عرف أهل أومبروزا كيف يتسامحون دائمًا مع تصرفاته الغريبة تلك؛ أحيانًا لأنه البارون، وأحيانًا أخرى لأنه بارون مختلف عن الآخرين. وفي بعض الأحيان، كانت تلك النغمات الوحشية التي كانت تنبع من صدره تجد نوافذ أخرى أكثر فضولاً تستمع إليها؛ وكان يكفي إشارة إشعال شمعة، وبعض الهمسات لضحكات مخملية، وكلمات نسوية بين الضوء والظلال لم يكن يفهم ماذا تعني، والتي بالتأكيد كانت للسخرية منه أو لمداعبته، أو للتظاهر بدعوته، وكانت تتحول أحيانًا إلى شيء جاد، حب بالفعل، فرصة لذلك المتروك وحيدًا الذي يقفز بين الفروع وكأنه طائر الحسون، وها هي، إحدى السفيهات، تتطلع من نافذتها وكأنها تحاول أن ترى ماذا هناك، وهي ما زالت محتفظة بحرارة الفراش، وصدرها مكشوف، وشعرها منسدل على كتفيها، وابتسامتها البيضاء ترتسم على شفتيها العريضتين المغلقتين، ثم يبدأ بينهما هذا الحوار:

- ماذا هناك؟ قط؟

- لا، بل رجل، رجل.

- رجل يموء؟

- آه، بل يتنهد.

- لماذا؟ ماذا ينقصك؟

- ينقصني ما لديك أنت.

- ماذا؟

- تعالي هنا وأنا أقوله لك.

ولكنه لم يتعرض قط لمضايقات، أو لعمليات انتقامية من قبل الرجال، وأعتقد أن هذا دليل على أنه لم يكن يُشكل خطرًا حقيقيًا.

إلا أنه، في مرة واحدة فقط، جُرح، بطريقة غامضة. انتشر الخبر في الصباح، واضطر الطبيب الجراح في أومبروزا أن يتسلق ويصعد إلى شجرة الجوز التي كان يجلس عليها متألمًا، كانت إحدى قدميه مليئة بخرطوش بندقية، من ذلك النوع الصغير الذي يستخدم لصيد طيور الدوري، وكان على الطبيب انتزاعها واحدة تلو الأخرى بالملقاط. آلمه ذلك كثيرًا، ولكنه سرعان ما تماثل من إصابته. ولا أحد يعرف كيف حدث هذا؟ قال هو إن إحدى الطلقات انطلقت من بندقيته وهو غير منتبه أثناءِ تسلقه أحد الفروع.

وفي أثناء فترة النقاهة، وهو جالس بلا حراك على شجرة الجوز استعاد دراسته الأكثر صعوبة. وبدأ في ذلك الوقت في كتابة "مشروع تأسيس دولة مثالية فوق الأشجار"، والذي فيه كان يصف "جمهورية عالم الأشجار" المتخيلة، والتي يسكنها أشخاص عادلون. وبدأ المشروع وكأنه بحث حول القوانين والحكومات، ولكن في أثناء كتابة ذلك سيطر على أسلوبه ميله إلى اختراع قصص مركبة، من ثم خرج العمل ككتاب مليء بالمغامرات، مبارزات، وقصص جنسية، والتي وضعها في فصل عن حقوق الزواج. وكان من المقرر أن تكون خاتمة الكتاب كالتالي: أما مؤلف هذا الكتاب، فبعد أن تأسست الدولة الكاملة على الأشجار، وبعد أن اقتنعت الإنسانية كلها بأن تستقر وتعيش سعيدة، هبط ليعيش على الأرض، والتي هجرها الجميع. كان لا بد أن تكون هكذا، ولكنه لم يكمل العمل، أرسل ملخصًا له إلى ديديروا، ووقَّعه بكل بساطة هكذا: كوزيمو روندو، أحد قراء الموسوعة. وشكره ديديروا بخطاب.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ٢٠ -

لا أستطيع أن أقول الكثير عن تلك الفترة، إذ إنها تتزامن مع رحلتي الأولى إلى أوربا. كنت قد أكملت عامي الحادي والعشرين، وأستطيع التمتع بميراث العائلة كما يحلو لي، وذلك لأن أخي كان يكتفي بالقليل، وأمي كذلك، فالمسكينة قد طعنت في السن كثيرًا في الفترة الأخيرة. وكان أخي يريد أن يوقع لي على ورقة تمنحني حق الاستفادة من كل الممتلكات في مقابل أن أمنحه مرتبًا شهريًا، وأن أدفع إليه الضرائب، وأهتم بتنظيم الأعمال. ولم يكن أمامي سوى الاتجاه إلى أصحاب الأملاك، وأن أختار لنفسي زوجة، وكنت بالفعل أتخيل نفسي وأنا أعيش تلك الحياة المنظمة والسليمة، والتي على الرغم من أعمال الشغب التي ميزت هذا القرن، استطعت بالفعل أن أعيشها.

ولكن، قبل أن أبدأ، سمحت لنفسي بفترة من السفر، وذهبت إلى فرنسا، تمامًا في الفترة التي شهدت فيها الاستقبال الانتصاري الذي خصصته لفولتار، والذي كان قد عاد إليها بعد عدة أعوام ليشهد عرض إحدى مآسيه. ولكن هذه ليست ذكريات حياتي، التي لا تستحق بالتأكيد أن أكتبها، أود فقط أن أقول كيف إنني طوال هذه الرحلة صُدمت من

الشهرة التي انتشرت عن الرجل المتسلق في أومبروزا، وأيضًا في البلاد الغريبة. إلى حد أنني رأيت في أحد كتب التقويم صورة مكتوبًا أسفلها "الرجل الهمجي لأومبروزا (جمهورية چنوة)، يعيش فقط فوق الأشجار". وكانوا قد قدموه وكأنه مغطى كله بالزغب، بلحية طويلة وذيل طويل، وهو يأكل جرادة. وهذه الصورة كانت موضوعة في فصل الوحوش بين المخنث وعروس البحر.

وأمام هذا النوع من التخيلات كنت عادة أنتبه جيدًا حتى لا أكشف أن ذلك الرجل الوحشي هو أخي، ولكنني أعلنت ذلك بقوة عندما دُعيت في باريس إلى حفل استقبال على شرف فولتار. كان الفيلسوف المسن يجلس على مقعده الوثير يتدلل من حشد من النساء، فرحًا وكأنه في يوم العيد، وخبيثًا وكأنه القنفذ. عندما عرف أنني من أومبروزا سألني: هل لديكم، يا أيها الفارس العزيز، يعيش الفيلسوف المشهور الذي يعيش فوق الأشجار كالقردة؟

أما أنا، فعندما شعرت بالفخر، لم أستطع أن أمنع نفسي من أن أجيبه: إنه أخي يا سيدي، بارون روندو.

دُهش فولتار كثيرًا، ربما يكون السبب أيضًا، أن أخا تلك الظاهرة كان يبدو شخصًا عاديًا جدًا، وبدأ يطرح عليّ الأسئلة مثل: ولكن، هل يجلس أخوك هناك فوق ليقترب من السماء؟!

أجبته: إن أخي يؤكد أن من أراد أن يرى الأرض جيدًا، يجب أن يحتفظ بالمسافة الضرورية بينه وبينها.

وأعجب فولتار جدًا بردي هذا.

واختتم قائلاً: في الماضي كانت "الطبيعة" فقط هي التي تخلق الظواهر الحية، أما الآن فقد أصبح هناك "العقل". ثم غاص الحكيم المسن مرة أخرى في الثرثرة مع صديقاته المخلصات.

ولكنني سرعان ما اضطررت أن أقطع رحلتي، وأن أعود إلى أومبروزا بعد استدعائي لأمر عاجل مؤسف. لقد تطورت أزمة التنفس التي تصيب أمنا فجأة، وأصبحت أكثر خطورة، ولم تعد المسكينة تقوى على مغادرة الفراش.

عندما عبرت المدخل، ورفعت عينيّ تجاه فيلتنا، كنت موقنًا أنني سأراه هناك، كان كوزيمو معلقًا على فرع مرتفع من فروع شجرة توت، قريبة جدًا من حافة نافذة حجرة أمنا. ناديته بصوت خافت: كوزيمو! أشار إليّ بإشارة كانت تعني - في آن- أن أمنا قد تحسنت قليلاً، ولكن ما زالت حالتها خطيرة، وأن أصعد ولكن بلا ضوضاء.

كانت الحجرة تقبع بين النور والظلمة، وكانت أمنا في الفراش تنام على كومة من الوسائد كانت تسند لها كتفيها، وكانت تبدو أكثر حجمًا من المعتاد، لم نرها هكذا من قبل. وكان يجلس حولها بعض خادمات المنزل. لم تكن باتيستا قد وصلت بعد، لأن الكونت زوجها، والذي كان عليه اصطحابها، كان قد تعطل بسبب موسم جني العنب.

وعلى ضوء الغرفة الخافت كانت تبرز النافذة المفتوحة، والتي كانت تؤطر كوزيمو وهو واقف هناك ثابتًا على فرع الشجرة.

انحنيت لأقبِّل يد أمنا، عرفتنى على الفور، ووضعت يدها فوق رأسي - آه، ها قد وصلت يا بياجو.

كانت تتحدث بصوت واهن، وذلك عندما لا تضغط الأزمة بشدة على صدرها، ولكنها كانت تتحدث بطلاقة وبوعي تام. ولكن، ما أدهشني هو إحساسي أنها كانت توجه كلامها إليّ وإلى كوزيمو على قدم المساواة، وكأنه يقف هو أيضًا بجوار فراشها، وكان كوزيمو يجيبها من فوق الشجرة.

- هل أخذت الدواء منذ فترة طويلة يا كوزيمو؟

- لا يا أمي، أخذته منذ فترة وجيزة، انتظري قليلاً قبل أن تأخذيه مرة أخرى، فلن يفيدك أخذه الآن.

وفي لحظة ما قالت له: كوزيمو، أعطني فص برتقالة، واستغربت أنا الموقف، ولكن زادت دهشتي عندما وجدت أن كوزيمو يمد من النافذة داخل الحجرة شيئًا يشبه خطاف الزوارق وبه أمسك بفص برتقالة من الطبق ووضعه في يد أمنا.

ولاحظت أنها كانت تفضل أن تتوجه إليه هو لتنفيذ هذه الأشياء الصغيرة.

- كوزيمو، أعطني الشال.

وكان هو يبحث بالخطاف بين الأشياء الموضوعة على المقعد، ثم يرفع الشال ويعطيه لها - ها هو يا أمي.

- أشكرك يا بني.

وكانت تتحدث معه دائمًا وكأنه على بعد خطوة واحدة منها، ولكنني لاحظت أنها لم تطلب منه قط أشياء لا يمكن إنجازها من فوق الشجرة. وفي هذه الحالات كانت تطلب مني، أو من السيدات دائمًا.

وفي الليل لم تكن أمنا تستطيع النوم، وكان كوزيمو يمكث على الشجرة ليسهر بجوارها، ومعه لمبة صغيرة معلقة على أحد الفروع حتى تستطيع أن تراه أيضًا في الظلام.

وكان الصباح هو أحلك لحظات الأزمة، وكان العلاج الوحيد هو محاولة التسرية عنها، وكان كوزيمو يعزف لها على مزمار بعض النغمات، أو يقلد صوت العصافير، أو كان يصطاد الفراشات ويجعلها تطير أمامها في الغرفة، أو كان يفتح أمامها عناقيد أزهار الوستارية.

وفي أحد الأيام المشمسة، كان كوزيمو يقف فوق الشجرة ومعه قدح تكون به فقاقيع من الصابون، وينفخ بها داخل الغرفة تجاه فراش المريضة. وعندما رأت أمنا تلك الألوان للانعكاسات التي تطير وتملأ الغرفة قالت:

آه، يا لها من لعبة مسلية! حيث إن ألعابنا ونحن صغار لم تكن تحوز إعجابها، وكانت ترى أن أساليب تسليتنا طفولية جدًا ولا فائدة لها. ولكن الآن، وربما للمرة الأولى، أسعدتها إحدى ألعابنا. وكانت فقاقيع الصابون تصل إلى وجْهها، وكانت هي تمزقها بأنفاسها وتضحك. ووصلت إحداها إلى فوق شفتيها ولم تتحرك، انحنينا بجوارها لنراها، وسقط القدح من بين يدي كوزيمو، فقد ماتت أمنا.

وتعقب فترات الحداد - إن آجلاً أو عاجلاً- أحداث سعيدة، إنها سُنة الحياة. فبعد عام من وفاة أمنا خطبت فتاة من إحدى الأسر النبيلة في الجوار. وقد لزم كثير من المحايلة والتحايل لأستطيع إقناع خطيبتي أن تأتى لتعيش في أومبروزا؛ فلقد كانت تشعر بالخوف من أخي. كانت فكرة وجود رجل يتحرك بين الأشجار، ويتنصت على كل ما يحدث خلف النوافذ، ويظهر عندما لا يتوقعه أحد، فكرة تملأها بالخوف، وذلك أيضًا لأنها لم تكن قد رأت كوزيمو قط، وكانت تتخيل أنه كالهنود. ولأزيل عنها تلك المخاوف، أقمت مأدبة غداء في الحديقة تحت الأشجار، ودعوت إليها كوزيمو. كان كوزيمو يأكل فوقنا فوق إحدى أشجار الزان، والأطباق موضوعة فوق رف صغير. ويجب أن أقر أنه، على الرغم من أنه لم يعتد تناول الطعام بداخل مجتمع منذ فترة، وعلى الرغم من أنه لم يتدرب على ذلك، تصرف بطريقة جيدة جدًا. هدأت خطيبتي قليلاً، بعد أن أدركت أنه بغض النظر عن بقائه فوق الأشجار، كان رجلاً مثل الجميع في كل شيء، ولكن بقي بداخلها نوع من الريبة لا يتزعزع.

حتى بعد أن تزوجنا واستقررنا معًا في فيلتنا بأمبروزا، كانت تحاول أن تتهرب بقدر المستطاع ليس فقط من أن تتحدث مع صهرها، ولكن من مجرد رؤيته، مع أنه - المسكين - كان يحضر لها من حين إلى آخر صحبة ورود، أو فراء من الأنواع الفاخرة. وعندما ولد الأبناء وبدءوا يكبرون، أصرت على أن قربهم من عمهم ربما يكون له تأثير سيئ عليهم وعلى

تربيتهم. ولم يهدأ لها بال إلا عندما أعادت تجهيز قصرنا القديم في ممتلكاتنا في روندو، والذي هُجر منذ فترة، وأصبحنا نمكث هناك أكثر من مكثنا في أومبروزا، حتى لا تكون أمام الأطفال قدوة سيئة.

إلا أن كوزيمو بدأ يشعر بمرور الزمن، وكان علامة ذلك هو الدشهند ماسيمو أتيمو، فقد تقدمت به السن ولم تعد لديه الرغبة في أن ينضم إلى مجموعة الصيد، وهي تجري خلف الثعالب، ولم يعد يحاول ممارسة الحب بطريقته العبثية مع أنثى الكلاب من فصيلة الدرواس أو الداني. كان ماسيمو يرقد طوال الوقت، وكأنه لا يرى جدوى من الوقوف، حيث إنها مسافة قليلة جدًا التي تفصل بطنه عن الأرض عندما يقف. كان يرقد هناك بطوله، من ذيله إلى فمه، عند ساق الشجرة التي يقف عليها صاحبه رافعًا رأسه نحوه وهو يهز ذيله بصعوبة. كان ذلك يثير الاستياء لدى كوزيمو، فالشعور بمرور الزمن كان ينقل إليه نوعًا من الشعور بعدم الرضا عن حياته، من الصعود والنزول الدائم بين تلك الأشجار القليلة. ولم يكن هناك شيء يمنحه الرضا التام، لا الصيد، ولا قصص الحب العابرة، ولا حتى الكتب. ولم يكن حتى هو يعرف ماذا يريد، وكان مأخوذًا بالغضب يتعلق بسرعة شديدة على أكثر القمم رقة وهشاشة، وكأنه يبحث عن أشجار أخرى تنمو على قمة الأشجار ليصعد فوقها أيضًا.

وفي أحد الأيام بدا ماسيمو أتيمو قلقًا، بدا وكأنه يستنشق رياح الربيع، أخذ يرفع أنفه، ويستنشق، ثم يلقي بنفسه أرضًا مرة أخرى. نهض مرتين أو ثلاثًا، تحرك حول نفسه، كان يستلقي ثم يرقد من جديد. وفجأة أخذ يجري، أصبح يعدو ببطء الآن، فكان يتوقف كل حين ليلتقط أنفاسه. وأخذ كوزيمو يتبعه من فوق فروعه.

انطلق ماسيمو أتيمو في طريق الغابة، وكان يبدو أن لديه في ذهنه اتجاهًا محددًا جدًا، لأنه، مع أنه كان يتوقف كل فترة ليتبول، أو ليستريح ولسانه يتدلى خارج فمه وهو ينظر إلى صاحبه، سرعان ما كان يستكمل

طريقه بلا تردد. وكان، بهذه الطريقة، يتجه إلى المناطق التي كان نادرًا ما يتردد كوزيمو إليها، بل التي يكاد لا يعرفها، لأنها كانت في اتجاه منطقة ممنوع الصيد فيها، تابعة للدوق توليمايكو.

كان الدوق توليمايكو مسنًا واهنًا، وبالتأكيد لم يكن يذهب إلى الصيد منذ فترة طويلة، ولكن في منطقة حظر الصيد التابعة له، لم يكن أي صياد، ممن يخالفون قواعد الصيد، يجرؤ أن يطأ بقدمه هناك، حيث إن حراس الصيد كانوا كثيري العدد ويقظين دائمًا، وكان كوزيمو، والذي كانت له معهم بالفعل حسابات أخرى، يفضل أن يبتعد تمامًا. والآن بدأ ماسيمو أتيمو ومعه كوزيمو يدخلان ويتوغلان في المنطقة الممنوعة للأمير توليمايكو، ولكن لم يكن أحدهم يفكر في إخراج الحيوانات الغالية الثمن من مخابئها. كان الدشهند يهرول وهو يتبع نداءه الغامض، وكان البارون يسيطر عليه فضول عاجل لاكتشاف إلى أين، بحق السماء، يذهب هذا الكلب.

وهكذا وصل الدشهند إلى منطقة تنتهي فيها الغابة ويبدأ بستان. وكان هناك أسدان من الحجر جالسان على الرخام ويحملان شعارًا. وهنا، ربما، تبدأ حديقة ما، أو متنزه، ملكية خاصة لتوليمايكو، ولكن لم يكن هناك سوى الأسدين الحجريين، وبعد المنتزه، ذلك المنتزه المتسع المترامي الأطراف المكون من الأعشاب القصيرة الخضراء، والتي لا يُرى نهايتها سوى من بعيد جدًا، تظهر أشجار البلوط السوداء. وكانت السماء خلف تلك الأشجار ملبدة ببعض السحب، ولم يكن هناك طائر واحد يغرد.

كان ذلك المنتزه، بالنسبة إلى كوزيمو، منظرًا يملؤه بالفزع. فبعد أن عاش دائمًا وسط الأشجار الكثيفة لأومبروزا، واثقًا بأنه يمكنه الوصول إلى أي مكان عبر طرقه الخاصة، وكان يكفي أن يجد البارون أمامه سهلاً مفزعًا، لا يمكن عبوره، خالياً من الأشجار تحت الشمس ليسيطر عليه شعور بالدوار.

ألقى ماسيمو أتيمو بنفسه في المنتزه، وكان يجري بقوة وكأن شبابه قد عاد إليه. ومن فوق شجرة لسان العصفور، رقد كوزيمو وأخذ يصفر ويدعوه: هنا، عد إلى هنا، عد يا ماسيمو أُتيمو ! إلى أين أنت ذاهب؟ ولكن الكلب لم يطعه، ولم يكن حتى يستدير نحو الصوت: أخذ يجري ويجري عبر المنتزه حتى ظهر ذيله من بعيد كأنه فصلة صغيرة، وحتى ذلك اختفى.

عقد كوزيمو يديه فوق الشجرة. كان معتاداً هروب الدشهند وغيابه، ولكن ها هو ماسيمو أتيمو الآن يختفي في ذلك المنتزه الذي لا يمكنه عبوره، وتوحد هروبه مع ذلك الشعور بالحزن الذي كان يشعر به منذ وهلة، وملأه بشعور ترقب لا حد له لنوع من الانتظار، انتظار شيء ما يظهر من هناك من ذلك المنتزه.

وكان يجتر تلك الأفكار عندما سمع خطوات أسفل الشجرة، ورأى أحد الحراس وهو يمر، ويداه في جيبه وهو يصفر. وفي الحقيقة كان يبدو عليه الشرود والتشرد، مما يجعله غريبًا عن الحراس البشعين في الزي الرسمي، ولكن كانت علامات ملابسه تدل على أنه من صفوف رجال الدوق، واختبأ كوزيمو خلف الجذع. ثم سيطر عليه تفكيره في الكلب فسأل الحارس: آه... سيادة السيرچنت، هل رأيت كلب دشهند مر من هنا؟

رفع الحارس وجهه: آه، أهو أنت، الصياد الذي يطير مع ذلك الكلب الذي يتمسح في الأرض! لا، لم أر كلبك! وماذا صدتما إذن هذا الصباح؟

واستطاع كوزيمو أن يتعرف إلى أكثر أعدائه نشاطًا وقال: ما هذا الذي تقوله، لقد هرب مني الكلب، واضطرت أن أتبعه حتى هنا... إن بندقيتي فارغة.

ضحك الحارس: آه، يمكنك أن تُعدّها إذن، وأن تطلق النيران حيثما تريد! فالآن.!

- فالآن، ماذا؟

- فالآن وقد مات الدوق، من ذا الذي سيهتم بمنع الصيد؟

- آه، هكذا إذن، مات الدوق، لم أكن أعرف.

- مات ودُفن منذ ثلاثة أشهر. وهناك صراع بين الورثة أبناء زوجته الأولى وزوجته الثانية وبين الأرملة الشابة الجديدة.

- كانت له زوجة ثالثة؟

- تزوجها عندما أكمل عامه الثمانين، قبل أن يتوفي بعام، هي فتاة في الحادية والعشرين أو أقل، من هناك. أقول لك كان شيئًا مجنونًا بالفعل، فهي عروس لم تمكث معه يومًا واحدًا، والآن فقط بدأت في زيارة ممتلكاته، ولا يعجبها شيء.

- ماذا؟ لا تعجبها الممتلكات؟

- لا أحد يعلم، فهي تستقر في قصر، أو في إقطاعية، تصل إلى المكان بكل طاقم العاملين لديها، لأن لديها دائمًا حشدًا من العاملين خلفها، وبعد ثلاثة أيام تجد أن كل شيء قبيح، وحزين، وترحل من جديد. عندئذ، يظهر ورثة آخرون ويقفزون ليستولوا على المكان، ويطالبوا بحقوقهم، فتقول لهم: "آه، أجل، خذوه!"، والآن قد وصلت هنا إلى جناح الصيد، ومن يدرِ كم ستمكث؟ أعتقد قليلاً.

- وأين إذن جناح الصيد؟

- هناك بعد هذا المنتزه، خلف أشجار البلوط.

- إن كلبي قد ذهب إلى هناك الآن...

- لا بد أنه ذهب بحثًا عن عظام. اعذرني، أشعر أن سيادتك لا تعطيه ما يكفيه ليأكل. ثم انفجر في الضحك.

لم يجبه كوزيمو، ونظر إلى المنتزه الذي يصعب اجتيازه، وكأنه لا يستطيع التخلص من الفزع الذي يسببه له.

وفي المساء، ظهر الدشهند من جديد، كان كنقطة وسط المنتزه، لم يكن من الممكن ملاحظته إلا بعين حادة مثل عيني كوزيمو، وكان يتقدم نحوه حتى أصبح مرئيًا: ماسيمو أتيمو! تعالَ هنا! أين كنت؟

توقف الكلب، كان يهز ذيله وينظر إلى صاحبه، وينبح، كأنه يدعوه إلى الذهاب معه، إلى أن يتبعه، ولكنه أدرك من المسافة أنه لا يمكنه اجتيازها، فاستدار إلى الوراء، ثم خطا خطوات مترددة، وإذ به يستدير.

- يا ماسيمو أتيمو ! تعالَ هنا! ماسيمو!

ولكن الدشهند جرى بعيدًا، واختفى وراء المنتزه.

وبعد ذلك بقليل عبر اثنان من حراس الصيد: ما زلت هنا إذن تنتظر الكلب، يا سيادة البارون! لا تقلق فقد رأيته في الجناح بين يدين أمينتين.

- كيف ذلك؟

- نعم، إن الماركيزة، أو الأفضل أن نقول الدوقة الأرملة (نحن نقول عنها الماركيزة لأنها كانت ماركيزة صغيرة وهي صبية)، تحتفي بالكلب وكأنه كان لها طوال الوقت. إنه كلب مدلل يا سيدي، اسمح لي. والآن وجد ما يسمح له بأن يعيش في رغد، ولن يتزعزع. وابتعد الجنديان بابتسامة خبيثة.

ولم يعد ماسيمو أتيمو بعد ذلك، وكان كوزيمو يحضر كل يوم إلى شجرة الزان لينظر إلى المنتزه وكأنه فيه يستطيع أن يقرأ شيئًا ما يدمره من الداخل منذ فترة، فكرة البعد في ذاتها، وعدم استكمال الأشياء، وذلك الانتظار الذي يمكن أن يطول إلى ما لا نهاية.

ـ ٢١ ـ

وفي أحد الأيام كان كوزيمو ينظر من فوق شجرة الزان، توهج ضوء الشمس، وعبر أحد آشعتها المنتزه فتحول لونها من الأخضر الفاتح إلى الأخضر الزمردي.

ومن هناك، بجوار غابة البلوط السوداء تحركت بعض الأغصان، ومن وسطها قفز حصان. كان حصانًا يحمل فوق متنه فارسًا، يرتدي اللون الأسود، ومعطفًا، لا، بل تنورة. لم يكن إذن فارسًا؛ كانت فارسة، كانت تجري مطلقة العنان، وكانت شقراء.

بدأ قلب كوزيمو يخفق بقوة، وتملكه الأمل أن تقترب تلك الفارسة حتى يتمكن من رؤية وجهها جيدًا، وأن يتضح أنه وجه رائع الجمال. ولكن، بالإضافة إلى انتظاره أن تقترب، وأن تكون جميلة، كان ينتظر شيئًا ثالثًا، كان هناك فرع أمل آخر يتضافر مع الأملين السابقين، وكان في أن تجيب هذه الفارسة ذات الجمال المضيء عن احتياج بداخله ليتعرف على انطباع معروف لديه، وربما يكون قد نسيه، ذكرى لم يبق سوى خيط ضئيل منها، لون يريد أن يظهر على السطح ما تبقى منه، أو أن يجده في شيء ما في الحاضر.

وبهذه المشاعر كان متلهفًا إلى أن تقترب من حدود المنتزه القريبة منه، حيث يقف تمثالا الأسدين، ولكن سرعان ما أصبح ذلك الترقب مؤلمًا، لأنه أدرك أن الفارسة لا تقطع المنتزه في خط مستقيم تجاه الأسدين، ولكن في خط مستعرض، لأنها اختفت سريعًا مرة أخرى في الغابة.

وبالفعل كاد يفقدها من مرمى بصره، عندما استدارت فجأة بحصانها، وأصبحت تقطع المنتزه في اتجاه أفقي آخر، وكان يمكن أن يجعلها تصل بالقرب منه، ولكنها اختفت مرة أخرى في الجهة المقابلة للمنتزه. وبينما كان كوزيمو يترقب بضجر، اخترق المنتزه، قادمين من الغابة، حصانان بنيًّا اللون، يمتطيهما فارسان، ولكنه حاول أن يبعد تلك الفكرة بسرعة، وقرر أنهما لا أهمية لهما. كانت تكفي رؤية كيف كانا يتخبطان بعنف هنا وهناك خلفها، من المؤكد أنهما كانا بلا أهمية، إلا أنه كان يجب أن يعترف أنهما كانا يسببان له الضجر. وها هي الفارسة، وقبل أن تختفي من المنتزه، حتى هذه المرة، استدارت بحصانها، ولكنها استدارت إلى الخلف مبتعدة عن كوزيمو. ولكن لا، فالآن يدور الحصان حول نفسه، ويقفز هنا وهناك، ويبدو أن تلك الحركة كانت مقصودة لتشتيت الفارسين المتخبطين، واللذين بالفعل ركضا بعيدًا، ولم يدركا أنها كانت تجري في اتجاه مختلف.

والآن أصبح كل شيء يسير لمصلحته؛ فقد كانت الفارسة تركض في الشمس، وكانت تبدو أكثر جمالاً، وتجيب أكثر عن ظمأ الذكرى لدى كوزيمو، ولكن الشيء الوحيد المقلق كان ذلك المسار المعوج الذي كانت تسلكه، والذي لم يجعله يتمكن من توقع نياتها: حتى الفارسان لم يتمكنا من معرفة إلى أين هي ذاهبة، وحاولا أن يتبعا كل حركاتها حتى انتهى بهما الأمر لأن قطعا طرقًا كثيرة بلا فائدة، ولكن كان يبدو دائمًا أنهما يفعلان ذلك بإرادتهما وبإصرار. وها هي الفارسة، في اللحظة التي لم يكن ينتظر فيها كوزيمو شيئًا، تصل إلى المنطقة القريبة منه في المنتزه، وها هي تعبر من بين التمثالين الواقفين للأسدين، وكأنهما يقفان هكذا على شرفها، ثم

استدارت تجاه المنتزه، وكل ما كان في ذلك الاتجاه من المنتزه بإيماءة، وكأنها وداع، ثم أخذت تقفز إلى الأمام بحصانها، وعبرت أسفل شجرة الزان. والآن استطاع كوزيمو أن يرى وجهها جيدًا، ويعرفها، تلك الجبهة السعيدة بأن تقع فوق تلك العينين، وهاتين العينين السعيدتين لأنهما في ذلك الوجه، وأنفها، وفمها، وذقنها، وعنقها، كل ما بها سعيد بكل شيء آخر، وكان كل هذا يذكره بالصبية التي رآها وهو فى الثانية عشرة من عمره فوق الأرجوحة في اليوم الأول من صعوده فوق الأشجار: سوفونيسبا فيولا فيولانتي أدونداريفا.

ذلك الاكتشاف، أو كونه قد حمل بداخله منذ الوهلة الأولى ذلك الاكتشاف دون الاعتراف به حتى أمام نفسه، أصاب كوزيمو بشيء كالحمى. فلقد أراد أن يناديها، حتى ترفع عينيها تجاه شجرة الزان وتراه، لكن لم يخرج شيء من حنجرته سوى صوت طيور المستنقعات، ولم تلتفت هي إلى الوراء.

وها هو الحصان الأبيض يركض في حقل الكستناء وحدواته تطأ الثمار المبعثرة على الأرض مظهرة القشرة الخشبية واللامعة للثمرة.

كانت الفارسة تقود حصانها في اتجاه ثم تغيره إلى آخر، يعتقد كوزيمو عندئذ أنها ابتعدت بالفعل، ولن يمكنه الوصول إليها، ثم يراها مرة أخرى، عندها يقفز من شجرة إلى أخرى، وهي تظهر فجأة على مقربة من سيقان الأشجار، وكانت طريقة حركتها تلك تزيد نيران الذكرى التي تشتعل في ذهن البارون. أراد أن يرسل إليها نداءه، أو أية إشارة لوجوده، ولكن شفتيه لم تطلقا سوى صفير طائر الحجل الرمادي، ولم تهتم هي بالصوت.

كان يبدو أن الفارسين اللذين يتبعانها لم يستطيعا أن يفهما نياتها والطريق الذي تسلكه، واستمرا في الذهاب إلى اتجاهات خاطئة مصطدمين بالأشواك، أو يغرقهما وحل المستنقعات، في حين تنطلق هي كالسهم واثقة باتجاهها، ولا شيء يوقفها. بل كانت تعطي نوعًا من

التعليمات والحث للفارسين رافعة ذراعها ممسكة بالسياط، أو مقشرة قرن خروب تاركة إياه معلقًا، وكأنها تقول لهم عن الاتجاه. وعلى الفور يلقي الفارسان بأنفسهما في ذلك الاتجاه قفزًا في المنتزهات والشواطئ، أما هي فقد استدارت نحو اتجاه آخر، ولم تعد تنظر إليهما.

"إنها هي، هي!"، أخذ كوزيمو يفكر وهو يزداد اشتعالا بالأمل، وكان يريد أن يصرخ باسمها، ولكن من بين شفتيه لم يخرج سوى صفير طويل وحزين مثل صوت طائر الزقزاق. وبدأ يتضح أن كل ذلك الذهاب والإياب، ومحاولة خداع الفارسين أو اللهو، كان يدور في خط واحد، والذي مع كونه غير مستقيم ومتعرجٍ إلا أنه لا يستبعد وجود قصد محتمل.

ومخمنًا تلك النية، بالإضافة إلى عدم استطاعته اتباعها، قال كوزيمو لنفسه: "سأذهب إلى مكان ستذهب إليه إذا كانت هي فعلاً. بل لا يمكن أن تكون قد جاءت إلى هنا إلا لتذهب إلى هذا المكان".

وأخذ يقفز في طرقه الخاصة، وذهب تجاه الحديقة القديمة المهجورة لعائلة أونداريفا.

في ذلك الظل، في ذلك الهواء المليء بالروائح، في ذلك المكان حيث الأوراق والأشجار لها لون آخر ومركبة من عناصر أخرى، شعر وكأن الذكريات تأخذه إلى طفولته، حتى إنه كاد ينسى الفارسة، أو إذا لم يكن قد نسيها، ربما يقال إنه من الممكن ألا تكون هي، ولكن هل يمكن أن يكون ذلك الانتظار على أمل أن تكون هي جعلها تبدو هي بالفعل في نظره؟

ولكنه سمع ضوضاء، كان صوت حدوات الحصان الأبيض على الحصى، كانت تأتي عبر الحديقة ولكنها لم تكن تجري، وكأن الفارسة أرادت أن تنظر وتتعرف على كل شيء بدقة. ولم يكن هناك أي وجود للفارسين الغبيين، لا بد وأنهما فقدا آثارها تمامًا.

ورآها، كانت تدور حول الحوض، وحول الكوخ الصغير، وحول الجرات. أخذت تنظر إلى الأشجار التي تضخمت، بجذورها المعلقة في الهواء،

وأشجار المانوليا التي تحولت إلى غابة. ولكنها لم تكن تراه، وهو يحاول أن ينادي عليها بوشوشة الهدهد، أو بتغريد العُزيزاء، بأصوات كانت تختلط بالتغريد الكثيف لطيور الحديقة.

هبطت من فوق السرج، أخذت تسير على قدميها ممسكة بالحصان خلفها من لجامه. وصلت إلى الفيلا وتركت الحصان، ودخلت، وأخذت تصرخ: أورتنسيا! جايتانو! تاركوينيو! هنا يجب أن يلوّن بالأبيض، يجب إعادة طلاء المصاريع الخشبية، وتعليق السجف! أريد المائدة هنا، وأريد الكونسول هناك، ضعوا الأرغن، ويجب تغيير مكان كل اللوحات.

عندئذ أدرك كوزيمو أن ذلك المنزل الذي كان بالنسبة إلى نظرته الشاردة بدا مغلقًا ومهجورًا كالعادة، أصبح الآن مفتوحًا ومليئًا بالأشخاص، خدم ينظفون، ويرتبون، ويدخلون الهواء إلى المنزل، ويضعون الأثاث في مكانه، وينفضون التراب من السجاجيد. إذن فيولا هي التي عادت، فيولا ستقيم مرة أخرى في أومبروزا، وكانت تستعيد ملكيتها للفيلا التي رحلت منها وهي طفلة! وأصبحت دقات قلب كوزيمو من الفرحة لا تختلف كثيرًا عن دقات قلبه من الخوف، لأنه بوجودها هكذا تحت ناظريه لا يمكن توقع تصرفاتها بهذه الطريقة، ولأنها متكبرة جدًا أيضًا، فإن هذا يعني أن يفقدها إلى الأبد، حتى في الذاكرة، ولا يبقى منها حتى ذلك السر المعطر برائحة الأوراق ولون الضوء الذي يتخلل الأخضر، كل هذا كان يمكن أن يعني أنه ربما يكون مجبرًا على الهروب منها، ومن ثم يهرب أيضًا من ذكراه الأولى عنها وهي طفلة.

وبخفقات القلب تلك المتغيرة لدى كوزيمو كان يراها تتحرك وسط خدمها، وهي تنقل الأرائك، والالآت الموسيقية، وأثاث الأركان، ثم تعود وتعبر بسرعة في الحديقة لتركب الحصان من جديد، وتعود وتهرع نحو آخرين ينتظرون أوامرها، ثم توجهت بأوامرها إلى عمال البستان، قائلة لهم كيف يجب أن يعيدوا تنظيم الحدائق الصغيرة ويعيدوا زراعتها، وأن

ينشروا في طرقات الحديقة الحشائش التي اقتلعتها الأمطار، وأن يعيدوا وضع الكراسي المصنوعة من الخوص، والأرجوحة... وفيما يخص الأرجوحة فقد أشارت بإيماءات واسعة إلى الفرع الذي كانت معلقة عليه من قبل، والذي يجب أن تعلق عليه مرة أخرى، وكم يجب أن يكون طول أحبالها، واتساع مجراها. وفي أثناء قولها هكذا بالإيماء وصلت نظرتها إلى شجرة المانوليا التي كان ظهر لها عليها كوزيمو في الماضي. وها هي تراه مرة أخرى يقف على الشجرة.

دُهشت، دهشت كثيرًا. بالتأكيد استعادت ثباتها سريعًا وبدت قوية، بطريقتها المعتادة، ولكن رويدًا رويدًا أبدت دهشة كبيرة، وابتسمت عيناها وفمها وسِنَّة كانت تظهر عندما تبتسم منذ أن كانت صغيرة.

- أنت! ثم، باحثة عن نبرة من يتحدث عن شيء عادي، لم تستطع إخفاء اهتمامها الفرح:

- آه، وهكذا مكثت هناك منذ تلك اللحظة دون أن تنزل؟

ونجح كوزيمو في تحويل ذلك الصوت الذي أراد أن يخرجه كصريخ طائر الدوري إلى: نعم، إنه أنا، فيولا، هل تتذكرين؟

- دون أن تطأ بقدميك الأرض على الإطلاق؟

- أبدًا.

أما هي، وكأنها قد منحته الكثير: آه، إذن لقد نجحت. لم يكن الأمر إذن في غاية الصعوبة.

- كنت أنتظر عودتك.

- رائع. أنتم هناك، أين تذهبون بهذه الستارة! اتركوا كل شيء هنا حتى أراه بنفسي! ثم عادت لتنظر إليه. كان كوزيمو ذلك اليوم يرتدي ملابس الصيد: كان خشن الشعر، يرتدي القبعة المصنوعة من فراء القط، ومعه بندقيته.

- تبدو كروبنسون!

سألها على الفور- هل قرأته؟ ليثبت لها أنه على دراية بكل شيء.

كانت فيولا قد استدارت: جايتانو! إمبيليو! الأوراق الجافة! يوجد الكثير من الأوراق الجافة! ثم قالت له: بعد ساعة في نهاية الحديقة. انتظرني! وجرت بعيداً لتكمل أوامرها من فوق ظهر الحصان.

وألقى كوزيمو بنفسه في وسط الأوراق الكثيفة، وتمنى لو كانت هناك أوراق أكثر من ذلك بآلاف المرات، كمية هائلة من الأوراق والفروع والأشواك والنباتات المتسلقة، ونباتات الزينة ليلقي بنفسه بداخلها ويغرق، وبعد أن انغمس بداخلها تماماً بدأ يفهم هل هو فرح أو يكاد يجن خوفاً.

وفوق الشجرة الضخمة في نهاية الحديقة، وبركبتيه الثابتتين على الفرع كان ينظر الساعة في ساعة رخامية كانت ملكاً لجدنا والد أمنا الجنرال فون كورتثيتز، وأخذ يقول لنفسه: لن تأتي.

إلا أن السيدة فيولا وصلت، تماماً في موعدها، على الحصان. توقفت أسفل الشجرة، وحتى من دون أن تنظر إلى أعلى. لم تكن ترتدي القبعة ولا حتى سترة الفارسة؛ كانت ترتدي قميصاً أبيض مطرزاً على تنورة سوداء، كانت وكأنها ترتدي زي راهبة. صعدت فوق الركاب مدت يدها إليه فوق الفرع؛ ساعدها؛ صعدت على السرج ووصلت إلى الفرع؛ ثم، ومن دون أن تنظر إليه، تسلقت بسرعة، وبحثت عن غصن مريح ثم جلست. قبع كوزيمو تحت قدميها، ولم يستطع أن يبدأ إلا بأن يقول لها: هل عدت؟

نظرت إليه فيولا بسخرية. كانت شقراء كما كانت وهي طفلة، وقالت: وكيف عرفت ذلك؟

وهو، من دون أن يفهم أنها تمزح: لقد رأيتك في ذلك المنتزه للمنطقة المحرمة ملكية الدوق.

- إن المنطقة ملكي أنا. تلك المليئة بالخضراوات! أتعرف كل شيء؟ أقصد، عني أنا؟

- لا .عرفت فقط أنك الآن أرملة.

- بالتأكيد، أنا أرملة. ثم ضربت بيديها على التنورة السوداء، وهي تفردها، وأخذت تتحدث باسترسال: أنت لا تعرف أي شيء أبدًا. فأنت تعيش فوق الأشجار طوال النهار لتزج بأنفك في شئون الآخرين، ثم لا تعرف شيئًا. لقد تزوجت بالعجوز تاوليمايكو، لأن والديَّ أجبراني على ذلك، أجبراني. كانا يقولان إنني امرأة طائشة ولا يمكن أن أظل بلا زوج. وقد أصبحت الدوقة تاليمايكو لمدة عام، وكان أكثر عام مللاً في حياتي، حتى وإن كنت لم أمكث مع ذلك المسن سوى أسبوع. لن أطأ بقدمي في أي من قصورهم أو أطلالهم، أو جحورهم البائسة، فلتمتلئ كلها بالثعابين. من الآن فصاعدًا سأمكث هنا، حيث عشت وأنا طفلة، سأمكث هنا كما يحلو لي، مفهوم؟ ثم سأذهب بعيدًا : فأنا أرملة وأستطيع أن أفعل ما يحلو لي، أخيرًا. في الحقيقة، لقد كنت أفعل دائمًا ما أريد، حتى تاليمايكو لقد تزوجته لأنني أردت أن أتزوجه، ليس حقيقيًا أنهما أجبراني على ذلك، لقد أراداني أن أتزوج بأي ثمن، عندئذ اخترت أنا أكثر العرسان تدهورًا من الناحية الصحية من بين المتقدمين "هكذا أصبح أرملة في أقرب وقت"، هذا ما قلته لنفسي، وهذا ما حدث بالفعل.

كان كوزيمو جالسًا هناك مدهوشًا أسفل ذلك الوابل من الأخبار والتأكيدات الحاسمة، وكانت فيولا بعيدة أكثر من ذي قبل، متحررة، أرملة، ودوقة. كانت تنتمي إلى عالم لا يمكنه الوصول إليه، وكان كل ما استطاع قوله هو: ومع من إذن كنت متحررة؟

وهي: إذن، أنت تغار، اسمع، لن أسمح لك أبدًا أن تكون غيورًا. وبالفعل شعر كوزيمو باندفاعة غيرة تحثه على الشجار، ثم فكر على الفور "كيف؟

غيور؟ ولماذا يجب أن أعترف أنني أغير عليها؟ ولماذا تقول "لن أسمح لك قط "؟ إنها مثل من يفكر أننا".

عندئذ، وقد احمر وجهه وارتبك، أراد أن يقول لها كل هذا، وأن يسألها، وأن يسمع، ولكن سارعت هي وسألته بجفاء: قل لي إذن أنت؛ ماذا فعلت؟

أخذ هو يقول: آه، فعلت أشياء كثيرة، لقد خرجت للصيد، حتى الخنازير البرية، ولكن على الأخص، الثعالب والأرانب والنموس، وبالطبع كنت أصطاد أيضًا السمان والشحرور. ثم القراصنة، نزل القراصنة الأتراك الشاطئ، وحدثت معركة كبيرة، مات فيها عمي. وقرأت كتبًا كثيرة، لي ولصديقي، قاطع طريق تم شنقه. ولديّ كل موسوعة ديديروا، بل كتبت له وأرسل إليّ بالرد من باريس، وقمت بأعمال كثيرة، شذبت الأشجار، وأنقذت الغابة من حريق.

ـ وستحبني إلى الأبد، حبًا مطلقًا، فوق كل شيء، وستعرف كيف تفعل أي شيء لأجلي؟ وأمام اندفاعها ذلك قال كوزيمو مدهوشًا : أجل.

- فلقد عشت فوق الأشجار فقط من أجلي، لتتعلم كيف تحبني.

- أجل. أجل.

- قبِّلنى

- دفعها نحو الجذع ثم قبّلها. وعندما رفع وجهه أدرك جمالها، وشعر وكأنه يراه أول مرة - يا إلهي: كم أنت جميلة.

- لأجلك أنت! وبدأت تفك أزرار قميصها الأبيض، كان صدرها يافعًا وردي اللون، وما كاد كوزيمو يلمسها حتى هربت بعيدًا بين الفروع، حتى بدا وكأنها تطير، وأخذ هو يجري خلفها وتنورتها تتطاير أمام وجهه.

- ولكن إلى أين ستأخذني؟ قالت له فيولا، وكأنه هو الذي يقودها، وليست هي التي تجذبه خلفها.

- من هنا، قال كوزيمو وأخذ هو القيادة، ومع كل خطوة على فرع كان يمسك بيدها أو بخصرها ليساعدها على العبور.

- من هنا، وكانا يسيران على بعض أشجار الزيتون تمتد على مطلع جبلي وعر، ومن فوق قمة كل شجرة منها كان يظهر البحر المقسم بين الأوراق والفروع وكأنه مجزأ، وفجأة ظهر أمامها هادئًا ولامعًا ومتسعًا كالسماء. وكان الأفق مفتوحًا أمامهما على اتساعه وارتفاعه، والبحر الأزرق ساكنًا ومتسعًا ولا شيء يشوبه، وكان يمكن أن تُحصي الثنيات التي بدأت الأمواج لتوها في تكوينها. ولم يكن هناك سوى دوامات مائية خفيفة جدًا، وكأنها الأنفاس وكانت تجري لتصل إلى حصى الشاطئ.

وبعيونهم التي غشَّاها الضوء تقريبًا، تقدم كوزيمو وفيولا في الظلال الخضراء القاتمة لأوراق الشجر: من هنا.

وفي داخل شجرة جوز، وفي جزء من الجذع كان هناك كهف مجوف كان نتاج جرح عمل قديم بالفئوس، هناك كان أحد مخابئ كوزيمو. وكان يغطي الأرض جلد خنزير بري، وحوله توجد قنينة، وبعض الأسلحة، وإناء. ألقت فيولا بنفسها فوق الجلد: هل أحضرت هنا نساء أخريات، تردد كوزيمو. وفيولا: إذا لم تكن قد فعلت ذلك، فأنت لست رجلاً.

- بلى. بعضهن.

عندئذ انهالت على وجهه بصفعة قوية: أهكذا إذن كنت تنتظرني؟ وضع كوزيمو يده على وجنته المحمرة ولم يعرف ماذا يقول، ولكن بدا عليها وأنها عادت إلى استعدادها: وكيف كن، قل لي، كيف كن؟

- لسن مثلك يا فيولا، لسن مثلك....

- وماذا تعرف إذن عن كيف أكون، قل لي، ماذا تعرف؟

وبدأت تتدلل، ولم يكف كوزيمو عن الشعور بالدهشة أمام تقلباتها تلك المفاجئة. اقترب منها. وكانت فيولا كالذهب والعسل.

- قولي.

- قل.

وعرف كل منهما الآخر. عرفها هو، وعرف فيها نفسه، لأنه في الحقيقة لم يكن يعرف نفسه من قبل، وهي عرفته وعرفت فيه نفسها، لأنها على الرغم من معرفتها الواثقة بنفسها دائمًا، فإنها لم تتمكن من معرفة نفسها قط بهذا العمق.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ ٢٢ ـ

كانت أول زيارة لهما هي لتلك الشجرة، والتي على قشرتها كان هناك حفر عميق، قديم جدًا وغير واضح المعالم، بحيث لم يعد يبدو كعمل إنساني، وكان مكتوبًا بحروف كبيرة: كوزيمو وفيولا، ثم - في أسفل- ماسيمو أتيمو.

- ما هذا المكتوب فوق؟ من كتبه؟ متى؟

- أنا. آنذاك.

تأثرت فيولا.

- وما معنى هذا؟ ثم أشارت إلى كلمتي: ماسيمو أتيمو.

- إنه كلبي، أقصد كلبك، الدشهند.

- توركاريه؟

- ماسيمو أتيمو، أنا أطلقت عليه هذا الاسم.

- توركاريه! كم بكيت عندما أدركت بعد رحيلي أننا لم نأخذه معنا. آه، لم يكن يهمني أنني لن أراك ثانية، ولكنني شعرت بالحزن الشديد لفقدان الدشهند!

- إذا لم يكن هو موجودًا لما كنت قد عثرت عليك! إنه هو الذي اشتم في الرياح وجودك، ولم يرتح إلا عندما انطلق للبحث عنك.

- لقد عرفته على الفور، بمجرد أن رأيته يقترب من الجناح، مقطوع الأنفاس. قال الآخرون: "ومن أين أتى هذا الشيء؟"، أما أنا فقد انحنيت لأنظر إليه، اللون، والبقع، وقلت: "ولكن هذا توركاريه! الدشهند، الكلب الذي كنت أملكه وأنا صغيرة في أومبروزا!".

ضحك كوزيمو، أما هي فقرصت له أنفه فجأة: ماسيمو أتيمو، يا له من اسم قبيح؟ من أين تأتي بتلك الأسماء القبيحة؟ وعلى الفور أصبح وجه كوزيمو قاتم اللون.

فيما يخص ماسيمو أتيمو لم يعد هناك شيء يعكر صفو سعادته، فقد نعم أخيرًا قلبه المسن لكلب، انقسم في حب صاحبين، بالسلام، وذلك بعد أن أنهكه التعب أيامًا وليالي ليجذب الماركيزة تجاه حدود المنطقة المحرمة، تجاه شجرة الزان حيث كان يقف كوزيمو. كان يجذبها من ردائها، أو كان يهرب منها لإحضار شيء ما ثم يتجه إلى المنتزه لتتبعه، وهي: ولكن ماذا تريد؟ إلى أين تجذبني؟ توركاريه! توقف! ولكن كيف أصبحت مشاغبًا هكذا! ولكن مجرد رؤية الدشهند مرة أخرى حركت في ذاكرتها ذكريات الطفولة والحنين إلى أومبروزا. وسرعان ما أعدت للانتقال من الجناح الدوقي لتعود إلى الفيلا القديمة المليئة بالنباتات الغريبة.

عادت فيولا، وهكذا بدأت أحلى الفصول في حياة كوزيمو، وفي حياتها هي أيضًا، والتي كانت تجوب الحقول بجوادها الأبيض، وبمجرد أن ترى البارون بين الأغصان والسماء كانت تنهض من فوق السرج وتتسلق سيقان الأشجار وفروعها، وسرعان ما غدت خبيرة هي أيضًا بها مثله، وكانت تلحق به في كل مكان.

- آه يا فيولا، لم أعد أعرف أي شيء، أشعر أنني أريد التعلق، لا أعرف أين...

- بي أنا، كانت فيولا تقول له هذا بصوت منخفض - فيجن جنونه.

كان الحب بالنسبة إليها ممارسة بطولية: كانت المتعة تختلط باختبارات في الشجاعة والكرم والإخلاص والتوتر لكل ما هو متعلق بالقدرات النفسية. وكان عالمهما هو الأشجار الأكثر تعقيدًا واعوجاجًا وصعوبة.

- هناك! كانت تصيح وهي تشير إلى تشعب مرتفع للفروع، وكانا ينطلقان على الفور للوصول إليه، وتبدأ بينهما مسابقة أكروباتية. تنتهي بالعناق مرة أخرى. كانا يعبِّران عن حبهما وهما معلقان في الفضاء، وهما يتأرجحان أو يتعلقان فوق الفروع، كانت تلقي بنفسها فوقه وكأنها تطير.

وكان عناد الحب لدى فيولا يواجه ما لدى كوزيمو، وأحيانًا كانا يصطدمان. كان كوزيمو ينفر من التأجيلات ومن البطء، والسلوك المهذب: ولم يكن يعجبه شيء سوى الحب الطبيعي. وكانت الفضائل الجمهورية ما زالت في الأفق. وكانت فترة تمهيد لأزمنة قاسية وماجنة في آن. كان كوزيمو حبيبًا لا يشبع أبدًا، كان رواقيًا، زاهدًا، صارمًا. كان دائم البحث عن السعادة في الحب، إلا أنه مع ذلك كان عدوًا لدودًا للشهوة الحسية. وكان يصل به الأمر إلى أن يتوجس ريبة من القبلة والمداعبة، من الإغواء الشفاهي، ومن كل شيء يمكن أن يخنق أو يقترب من أن يحل محل صحة الطبيعة. وقد كانت فيولا هي التي جعلته يكتشف ملء تلك الطبيعة. ومعها لم يشعر قط بالحزن بعد ممارسة الحب، والذي تحدث عنه اللاهوتيون، بل إنه كتب عن هذا الموضوع خطابًا فلسفيًا إلى روسو، والذي ربما لما شعر به من الاضطراب لم يجبه.

ولكن فيولا كانت أيضًا امرأة رفيعة المستوى، ذات نزوات، مدللة، والكاثوليكية تجري في دمها وروحها. كان حب كوزيمو يملأ كل حواسها، ولكنه لم يكن يرضي جميع أخيلتها. ولذلك كانت تشعر ببعض مشاعر الشقاق والندم. ولكنها مشاعر لم تكن تدوم طويلاً، نظرًا إلى ما كانت عليه حياتهما وعالمهما من تنوع كبير.

وعندما كانا يشعران بالتعب كانا يبحثان عن ملاجئ بعيدة عن الأعين فوق الأشجار ذات الأغصان الكثيفة: مضاجع تحيط بجسديهما وكأنهما بداخل ورقة ملفوفة، أو أروقة معلقة بستائر تطير في الهواء، أو بداخل مخادع من الريش. ولتحقيق هذه التجهيزات كانت تظهر عبقرية السيدة فيولا، فحيثما وجدت الماركيزة كانت لديها الموهبة لإبداع الراحة والرفاهية حولها، وأنواع من وسائل الراحة المركبة؛ مركبة عند رؤيتها، ولكنها كانت تستطيع الحصول عليها بسهولة إعجازية، لأن أي شيء كانت تريده كان يجب أن تراه يُنفذ بأي ثمن.

وفوق مخادعهما تلك الطائرة كانت طيور أبي الحناء تقف لتغرد. ومن بين الستائر كانت تدخل أزواج فراشات الأميرال وهي تتبعهما. وفي أيام الصيف في الظهيرة، وعندما كان الحبيبان يخلدان إلى النوم متجاورين، كان يدخل سنجاب باحثًا عن شيء يقضمه، ويداعب وجهيهما بذيله الناعم أو يقرض إبهام إحدى أقدامها. وعندئذ كانا يغلقان الخيام بحرص أكثر، ولكن أخذت عائلة من الفئران النوامة تقرض سقف الرواق حتى سقط فوقهما.

وكانت الفترة التي يكتشف فيها كل منهما الآخر، ويحكي كل منهما حياته للآخر، ويسأل كل منهما الآخر:

- وكنت تشعر أنك وحيد؟

- كان ينقصني وجودك أنت.

- ولكنك كنت وحيدًا بالنسبة إلى العالم؟

- لا، لماذا؟ كان لديّ دائمًا ما أفعله مع الآخرين، لقد جمعت الفاكهة، وشذبت الأشجار، ودرست الفلسفة مع الأب الراهب، وحاربت القراصنة. هذا لا يحدث للجميع؟

- لك أنت فقط، ولهذا أحبك.

ولكن البارون لم يكن قد فهم جيداً ما كانت تقبله فيولا في شخصيته وما كانت ترفض. وأحياناً كان يكفي شيء تافه، كلمة أو إشارة بسيطة لإثارة غضب الماركيزة.

على سبيل المثال، يقول: مع چان داي بروجي كنت أقرأ روايات، ومع الفارس كنت أنفذ مشروعات مياه.

- ومعي أنا؟.

- معك أستمتع بالحب. مثل تشذيب الأشجار، الفاكهة.

كانت هي تلتزم الصمت، وتسكن. عندئذ كان كوزيمو يدرك أن غضبها قد استشاط، وتتحول عيناها إلى قطعتي ثلج.

- ماذا، ماذا حدث يا فيولا؟ ماذا قلت؟

كانت هي بعيدة، وكأنها لا تراه ولا تسمعه، بعيدة عنه مئات الأميال، ووجهها كالرخام.

- ولكن لا، فيولا، ماذا حدث؟ لماذا؟ اسمعي.

كانت فيولا تنهض بخفة، من دون مساعدة من أحد، ثم تبدأ في النزول من فوق الشجرة.

ولم يكن كوزيمو قد أدرك بعد ما هو خطؤه، أو لم يكن قد استطاع بعد التفكير، أو ربما كان يفضل عدم التفكير ألبتة، وعدم الفهم حتى يستطيع الإعلان عن براءته بطريقة أفضل: ولكن لا، لم تفهميني، فيولا، اسمعي. وكان يتبعها حتى أكثر المناطق انخفاضاً: فيولا، لا تذهبي، ليس بهذه الطريقة، فيولا.

والآن هي تتحدث، ولكن مع حصانها، الذي قد وصلت إليه وحلت قيوده، وصعدت فوقه السرج وابتعدت. وكان كوزيمو قد بدأ ييأس، ويقفز من شجرة إلى أخرى: لا، فيولا، قولي لي، فيولا!

وتبتعد هي بعيدًا. وهو يتبعها من فوق الأغصان: أتوسل إليك يا فيولا، أنا أحبك! ولكنها لم تعد تراه. كان يلقي بنفسه على الفروع الهشة، وهو يقفز قفزات خطيرة: فيولا! فيولا!

وعندما يصبح واثقًا أنه قد فقدها، ولا يستطيع السيطرة على نحيبه، إذ بها تمر مرة أخرى وهى تركض، من دون أن ترفع نظرها: انظري! انظري يا فيولا ماذا أفعل! ثم يبدأ في نطح جذع الشجرة بجبهته العارية (والتي كانت في الحقيقة، قاسية جدًا) ولكنها لم تكن حتى تنظر إليه. كانت قد ابتعدت بالفعل.

وكوزيمو ينتظر عودتها وهو يتلوىّ بين الأشجار: فيولا! أشعر باليأس! وكان يلقي بنفسه في الهواء ورأسه إلى أسفل، ممسكًا بقدميه في أحد الفروع، ويكيل اللكمات لرأسه ووجهه بقبضته، أو يبدأ في تكسير الفروع بغضب مدمر، ويتحول فرع من فروع شجرة الدردار المليء بالأغصان إلى فرع عار في ثوان قليلة، بل ويتجرد تمامًا من أوراقه وكأن البرد قد أصابه.

إلا أنه لم يكن يهدد قط بالانتحار، بل لم يكن يهدد قط بأي شيء، فلم يكن يلجأ إلى الابتزاز العاطفي قط. كان يفعل ما كان يشعر بأنه يريد أن يفعله، وبينما ينفذه بالفعل، كان يعلن عنه، وليس قبل ذلك. وعند لحظة معينة، غير متوقعة، تتخلص فيولا من الغضب فجأة كما كان ينتابها.

ومن بين كل تصرفات كوزيمو المجنونة، والتي بدت وكأنها لم تمسها، كان يكفي تصرف فجائي ليشعلها بالرحمة والحب: لا يا كوزيمو يا حبيبي! انتظرني! وتقفز فوق السرج، وتهرع لتتعلق بأحد الفروع، حيث ذراعاه مدلاتان وجاهزتان لالتقاطها. وكان الحب يبدأ بينهما من جديد بسرعة مساوية لسرعة خلافهما. وكأن شيئًا لم يحدث، ولكن لم يكن كوزيمو يفهم شيئًا.

- لماذا تعذبينني؟

- لأنني أحبك.

والآن يبدأ هو في الغضب: لا، إنك لا تحبينني! من يحب يرد السعادة وليس الألم.

- من يحب يرد الحب فقط، حتى وإن كان ثمنه الألم.

- إذن أنت تؤلمينني عن عمد.

- نعم، لأرى هل حقًا تحبني.

وكانت فلسفة البارون ترفض الذهاب إلى أبعد من ذلك.

- الألم حالة سلبية تصيب الروح.

- الحب هو كل شيء.

- الألم شيء يجب هزيمته دائمًا.

- الحب لا يرفض أي شيء.

- هناك أشياء لن أقبلها قط.

- لا، لا بد أن تقبلها، لأنك تحبني وتتألم.

وهكذا، وكما كانت حالات اليأس لدى كوزيمو صاخبة، فقد كانت تفجرات الفرح الغامر لديه صاخبة أيضًا. وأحيانًا كانت سعادته تصل إلى الحد الذي فيه يشعر بضرورة الانفصال عن حبيبته ليذهب ويقفز ويصرخ معلنًا روعة حبيبته.

- أنا أحب أكثر نساء العالم جميعًا روعة (*).

وكان الذين يجلسون على مصاطب أومبروزا من العاطلين والبحارة المسنين، قد اعتادوا بالفعل على تعدد مرات ظهوره السريعة تلك. وها هو يظهر وهو متقدم نحوهم قافزًا عبر أشجار البلوط معلنًا:

(*) كالفينو تلك العبارات بأكثر من لغة متداخلة: Yo quiero the wonderful puellman de todo el mundo! (المترجم).

سأذهب لأبحث عن سعادتي، على جزيرة چامايكا من المساء حتى الصباح[1].

أو يقول:

يوجد مكان تنبت فيه الحشائش كل ساعات النهار

خذني بعيداً، خذني بعيداً، إنني هنا أموت[2].

ثم يختفي.

وكانت دراسته للغات الكلاسيكية والحديثة، مع أنه لم يتعمق فيها، تسمح له بأن يلقي بنفسه في ذلك الإعلان الصاخب عن مشاعره. وكلما اهتزت روحه من الانفعالات القوية ازدادت لغته غموضاً. ويُذكر أنه في إحدى المرات، وعندما كان سكان أومبروزا يحتفلون بعيد قديس البلدة، وكانوا مجتمعين في الميدان، ووضعوا هناك شجرة العطايا[3]، والزينة والأعلام.

ظهر البارون على قمة شجرة دلب وبإحدى تلك القفزات التي لا تستطيعها سوى خفته الأكروباتية، قفز على شجرة العطايا، وصعد إلى قمتها وصاح:

هنا عاشت فينوس أيامها الأخيرة.

ثم ترك نفسه ليتزحلق إلى أسفل على العامود المغطى بالصابون واللزج حتى كاد يصل إلى الأرض، إلا أنه توقف، وصعد بسرعة مرة أخرى إلى القمة، ثم نزع من وسط الأشياء الموضوعة قطعة جبن وردية اللون

---

(١) Zu dir, zur dir, - Vo cecrcando iI mio ben, En Oa isla de jamaica0Du soir jusque matin gunaka.

(٢) II y a un pre where the grass grows to de oro- Take me away io.

(٣) عامود لزج ومغطي بالصابون يتسلقه المتطوعون ليستطيعوا الحصول على المأكولات والأشياء الموضوعة فوق ثمته.

ومستديرة الشكل، وبقفزة أخرى من قفزاته طار وعاد إلى شجرة الدلب، واختفى تاركًا وراءه أهل أومبروزا في حالة ذهول.

ولم يكن هناك شيء يسعد الماركيزة أكثر من تلك التدفقات في المشاعر، وتدفعها بالتالي لتبادلها معه بإثباتات حب عنيفة أيضًا. وكان أهل أومبروزا عندما يشاهدونها وهي تقفز بحصانها من دون أن تمسك بلجامه، ووجهها مغمور تقريبًا في العرف الأبيض للحصان، كانوا يعرفون أنها تهرع في طريقها للقاء البارون. فقد كانت في ترويضها للحصان تعبر عن قوة حبها، ولكن لم يكن كوزيمو يستطيع اللحاق بها؛ وكان شغفها بالفروسية، مع إعجابه الشديد به، بالنسبة إليه السبب الخفي للغيرة والحقد، لأنه كان يرى فيولا وهي تسيطر على عالم أكثر اتساعًا من عالمه، وكان يُدرك أنه لن يستطيع أن يستحوذ عليها لنفسه فقط، وأن يقيدها في حدود مملكته. أما الماركيزة، فمن جهتها، ربما كانت تعاني أنها لا تستطيع أن تكون حبيبة وفارسة في آن: كان يجتاحها أحيانًا احتياج غير محدد أن حبها هي وكوزيمو لا بد وأن يكون حبًا على صهوة جواد، ولم يكفها الجري فوق الأشجار، كانت تود لو استطاعت الجري معه ركضًا فوق السرج على جوادها.

في الواقع أصبح جوادها بسبب الجري على تلك الأراضي الصاعدة والمنحدرات، متسلقًا كالجدي، وكانت فيولا تدفعه إلى الوثوب أمام بعض الأشجار، على سبيل المثال شجرة الزيتون العجوز بجذعها المائل. وكان الحصان أحيانًا يصل إلى الغصن الأول من الفروع، وكانت هي قد اعتادت أن تربطه، ليس فوق الأرض، ولكن هناك فوق شجرة الزيتون. كانت تترجل من فوقه وتتركه هناك ينتزع الأوراق والأغصان.

وهكذا، عندما كان أحد الثرثارين يرفع عينيه، في أثناء عبوره من حقل الزيتون، ويرى البارون والماركيزة فوق الشجر متعانقين، كان يذهب ليقص هذا ويضيف: وكان الحصان الأبيض هو أيضًا فوق أحد الفروع! كان الناس يظنون أنه يقص قصصًا خيالية، ولا يصدقه أحد. ولذلك ظل سر الحبيبين محفوظًا.



ـ ٢٣ ـ

ما حكيته الآن يبرهن كيف أن أهل أومبروزا، مع أنهم كانوا يهتمون بالثرثرة حول حياة أخي الصاخبة السابقة، إلا أنهم الآن، وأمام ذلك الحب الذي يتفجر، إذا أمكن القول، فوق رءوسهم، يلتزمون بنوع من التحفظ المحترم، وكأنهم أمام شيء أكبر منهم جميعًا. ولا يعني هذا أن سلوك الماركيزة لم يكن موضع توبيخ؛ ولكن التوبيخ كان يوجه إلى تصرفاتها الخارجية، فعلى سبيل المثال عندما كانت تركض ممسكة برقبة الحصان (من يدرِ أين هي ذاهبة في عجالة بهذه الطريقة؟ كانوا يقولون هذا فيما بينهم، مع أنهم يعرفون جيدًا أنها ذاهبة للقاء كوزيمو) أو ذلك الأثاث الذي كانت تضعه فوق الأشجار. كان هناك بالفعل اتجاه إلى اعتبار كل شيء موضة جديدة للنبلاء، شيئًا من بين الأشياء الغريبة الكثيرة التي يقومون بها (الجميع فوق الأشجار الآن: نساء ورجال. تُرى ماذا سيكون لديهم بعد ذلك ليبدعوه؟). على كل حال، ربما كان هذا يحدث لاقترابنا من فترات أكثر تسامحًا، أو ربما يجدر أن نقول أكثر نفاقًا.

وعلى شجر البلوط في الميدان بدأ البارون يظهر لفترات طويلة، وكانت هذه علامة على أنها رحلت. لأن فيولا كانت أحيانًا تتغيب لشهور، وذلك لمتابعة أملاكها المبعثرة في أنحاء أوربا، ولكن رحيلها هذا غالبًا ما يكون

مرتبطًا بفترات تكون فيها العلاقة بينهما قد تعرضت لأزمة، حيث شعرت الماركيزة بالإهانة من كوزيمو لأنه لم يفهم ما أرادت أن تشرحه له عن الحب. ولا يعني هذا أن فيولا قد رحلت غاضبة منه؛ فلقد كانا ينجحان دائمًا في التصالح قبل رحيلها، ولكن يبقى بداخله دائمًا شك أنها قررت القيام بتلك الرحلة لأنها تعبت منه، أو لأنه لا يمكنه الاحتفاظ بها، وربما تحاول الانفصال عنه، وربما تكون فرصة السفر أو التوقف للتفكير يدفعها إلى أن تقرر عدم العودة.

وهكذا كان أخي يعيش في قلق دائم. فمن جهة كان يحاول استعادة حياته المعتادة قبل أن يقابلها، أن يعود مرة أخرى إلى رحلات الصيد أو صيد الأسماك، أو أن يتابع أعمال الزراعة، أو دراساته، أو يستأنف قصصه الخيالية في الميدان، وكأنه لم يفعل شيئًا آخر في حياته (كان ما زال بداخله ذلك الشاب العنيد والمليء بالكبرياء والذي لا يريد الاعتراف بأنه يمكن الآخرون أن يؤثروا فيه)، وكان يسعد بكل ما منحه له هذا الحب من حيوية وفخر، ولكن في الوقت نفسه كان يدرك - من ناحية أخرى- أن كثيرًا من الأشياء لم تعد لها الأهمية نفسها، وأنه من دون فيولا لا يستطيع أن يشعر بمذاق الحياة، وأن جميع أفكاره تهرع دائمًا نحوها. وكان، كلما حاول، بعيدا عن زوبعة وجود فيولا، استعادة السيطرة على الانفعالات والمتع في تدبير حكيم للنفس، ازداد شعوره بالفراغ الذي تركته، أو بحمى ترقب عودتها. كان حبه لها تمامًا كما أرادته فيولا، وليس كما كان يدعي هو، فلقد كانت المرأة دائمًا هي الغالبة، حتى وإن كانت بعيدة، وكوزيمو - رغمًا عنه - يستمتع بذلك.

وفجأة كانت الماركيزة تعود، ويبدأ موسم الحب من جديد فوق الأشجار، ولكن يبدأ معه موسم الغيرة أيضًا. أين كانت فيولا؟ ماذا فعلت؟ كان كوزيمو متلهفًا إلى معرفة هذا كله، ولكنه في الوقت نفسه خائف من الطريقة التي تجيب بها عن تساؤلاته، كانت تجيب عن كل شيء بالتلميحات، وفي كل تلميحة كانت تجد الطريقة لتدفع كوزيمو إلى الشك،

وكان هو يفهم أنها كانت تفعل ذلك لتعذبه، أو أن كل شيء يمكن أن يكون حقيقيًا بالفعل، وفي هذه الحالة من الشك كان أحيانا يخفي غيرته، وأحيانا أخرى يترك شكوكه تتفجر بعنف، وكانت فيولا تجيب دائمًا على ردود أفعاله بطرائق مختلفة وغير متوقعة: أحيانًا تبدو وكأنها مرتبطة به أكثر من ذي قبل، وأحياناً أخرى لا ينجح في إشعال حبها من جديد.

ولكن كيف كانت حياة الماركيزة بالفعل في أثناء رحلاتها؟ لم نتمكن ونحن هنا في أومبروزا من معرفة ذلك نظرًا إلى أننا بعيدون عن المدن الكبيرة وعن ثرثرتها. ولكن في تلك الفترة قمت أنا برحلتي الثانية إلى باريس لإنجاز بعض العقود (لتصدير الليمون، حيث بدأ كثير من النبلاء ممارسة التجارة، وكنت أنا من أوائل من اتجهوا إلى ذلك).

وفي إحدى الأمسيات، وفي أحد الصالونات الباريسية الفاخرة قابلت السيدة فيولا. كانت تتحلى بتسريحة شعر غاية في التأنق، وترتدي ثوبًا غاية في الجمال، وتعرفت إليها على الفور، بل عرفتها بمجرد أن رأيتها، لأنها كانت امرأة لا يمكن أن يخطئ أحد في معرفتها. صافحتني بلا اهتمام، ولكنها سرعان ما وجدت فرصة للاختلاء بي ولأن تسألني، ولكن من دون أن تنتظر الإجابة بين سؤال وآخر: هل لديك أخبار عن أخيك؟ هل ستعود سريعًا إلى أومبروزا؟ خذ، أعطه هذا كذكرى مني ـ ثم أخرجت من صدرها منديلاً من الحرير وضعته بسرعة في يدي. ثم انصرفت على الفور لتلحق بركاب المعجبين الذي كان يتبعها.

سألني صديق من باريس بصوت منخفض: هل تعرف الماركيزة؟

أجبته: معرفة سطحية، وكانت هذه هي الحقيقة، ففي أثناء إقامتها في أومبروزا، لم تكن السيدة فيولا، وكأنها أصابتها العدوى من الحياة الهمجية لكوزيمو، تهتم كثيرًا بالتردد إلى مجتمع النبلاء المجاور لها. قال صديقي: نادرًا ما يجتمع مثل هذا الجمال مع مثل هذا التوتر، يقولون إنها في باريس تنتقل من حبيب إلى آخر، في منافسات مستمرة، الأمر الذي لا يسمح لأي منهم بأن يقول إنها ملكه، أو إنه هو المفضل. ولكنها كل فترة

تختفي لأشهر عديدة، ويقولون إنها تخلو بنفسها في أحد الأديرة لتغرق نفسها في الندم.

منعت نفسي بصعوبة من الضحك عندما اكتشفت كيف يعتقد الباريسيون في إقامة الماركيزة فوق أشجار أومبروزا فترات توبة، ولكن في الوقت نفسه سبب لي هذه هذا الكلام اضطرابًا؛ حيث جعلني أتوقع فترات حزن ستمر على أخي.

ولأقيه شر المفاجآت السيئة أردت أن أحذره. وبمجرد أن عدت إلى أومبروزا ذهبت للبحث عنه. سألني طويلا عن رحلتي، وعن الأخبار الجديدة في فرنسا، ولكنني لم أنجح أن أنقل له أي خبر جديد عن السياسية أو الأدب؛ لأنه كان يعرف كل الأخبار بالفعل.

وفي النهاية، أخرجت من جيبي منديل السيدة فيولا.

- في أحد الصالونات في باريس قابلت سيدة تعرفك، وأعطتني هذا لك، مع تحياتها.

أنزل على الفور السلة المعلقة بالحبل، ورفع المنديل الحريري، ووضعه بقرب وجهه ليستنشق رائحته.

- آه، هل رأيتها؟ كيف حالها؟ قل لي: كيف كانت؟

- كانت غاية في الجمال والضياء - أجبته ببطء - ولكنهم يقولون إن هذه الرائحة تستنشقها أنوف كثيرة.

خبأ المنديل في صدره وكأنه يخشى أن ينتزعه أحد منه. ثم توجه إليّ ووجهه مضرج بالحمرة: ولم يكن لديك سيف لتطرد تلك الفريات من حنجرة من يقولها؟

كان علي أن أعترف أن هذا لم يخطر ببالي أبدًا. سكت لوهلة ثم هز كتفيه: كلها فريات. أنا فقط أعرف أنها لي أنا وحدي.

ثم هرب بين الفروع من دون أن يحييني. وكنت أعرف طريقته المعتادة في رفض أي شيء يدفعه إلى الخروج من عالمه.

ومنذ تلك اللحظة كنت أراه دائمًا حزينًا ونافد الصبر، وهو يقفز هنا وهناك من دون أن يفعل شيئًا. وكنت أحيانا أسمعه يصفر منافسة للشحارير، ولكن صفيره كان يزداد عصبية وكآبة.

ووصلت الماركيزة. وكالعادة كانت غيرته تسعدها؛ أحيانا تستفزها، أحيانا تحولها إلى مجرد لعبة. وهكذا كانت تعود أيام الحب الجميلة، وتعود إلى أخي سعادته.

ولكن الماركيزة في تلك الفترة، لم تكن تفوت فرصة لتتهم كوزيمو بأنه لديه فكرة ضيقة عن الحب.

- ماذا تريدين قوله؟ أنني غيور؟

- أحسنت بكونك غيورًا. ولكنك تحاول أن تخضع غيرتك للعقل.

- بالتأكيد، هكذا أحولها إلى شيء أكثر فاعلية.

- إنك تفكر أكثر من اللازم. لماذا يوضع الحب محل تفكير؟

- لأحبك أكثر. إن كل شيء، إذا أخضعناه للعقل، تزداد قوته.

- تعيش بين الأشجار ولديك عقلية كاتب مصاب بداء المفاصل.

- أكثر المشروعات شجاعة تنفذها أكثر النفوس تواضعًا.

واستمر في إلقاء العبارات حتى هربت منه؛ عندئذ، يبدأ هو في اللحاق بها، وفي الإصابة باليأس، وبتقطيع شعره.

في تلك الأيام، ألقت سفينة إنجليزية حربية مرساها في مينائنا. وأقام ربان السفينة حفلة لمشاهير أومبروزا ولضباط السفن الأخرى المارة في ذلك الوقت. وذهبت الماركيزة إلى الحفلة؛ ومنذ تلك الليلة جرب كوزيمو من جديد آلام الغيرة. فلقد هام ضابطان من سفينتين مختلفتين حبًا بفيولا، وكانا يظهران دائمًا على الشاطئ وهما يتوددان إلى السيدة النبيلة، وفي

محاولة أن يتفوق كل منهما على الآخر في جذب انتباهها. كان أحدهما ملازمًا بحريًا في السفينة الحربية الإنجليزية، والآخر أيضًا ملازمًا بحريًا، ولكن في أسطول من نابولي. استأجر كل منهما جوادًا أشقر، وكان الملازمان يقومان بجولات مكوكية أسفل تراس الماركيزة، وعندما كانا يتقابلان كان الملازم القادم من نابولي يحوم حول ذلك الإنجليزي بنظرة تكاد تحرقه، في حين كانت تتطاير من بين رموش الإنجليزي نظرة كحد السيف.

وماذا عن النبيلة فيولا؟ لم تكن تمل تلك المتبرجة المكوث بالساعات داخل المنزل، ثم تظهر لهما في زي الصباح من الشرفة وكأنها أرملة مات زوجها توا، وخرجت من حدادها منذ برهة. أما كوزيمو، فنظرًا إلى أنها لم تعد معه بين النباتات، ونظرًا إلى أنه لم يكن يسمع اقتراب خطوات الحصان الأبيض فكاد يصيبه الجنون، وأصبح مكانه (هو الآخر) أمام ذلك التراس، ليراقبها هي وملازميّ السفينة الحربية.

كان يدرس الطريقة التي بها يمكنه إطلاق بعض الطلقات تجاه منافسيه تجعلهما يعودان في أقرب وقت، كل منهما إلى سفينته، ولكنه عندما رأى أن فيولا تقابل بترحاب متساو وتودد كلاً منهما، استعاد الأمل في أنها ربما ترغب في العبث بالاثنين، ومنه هو أيضًا معهما، ولذلك لم يقلل من مراقبته لها، فمع أول إشارة تظهر بأنها تفضل أحدهما على الآخر، سيكون هو حاضرًا ليتدخل.

وإذا بالإنجليزي يمر في صباح أحد الأيام، وفيولا تقف في النافذة. ابتسم كل منهما للآخر. أسقطت الماركيزة ورقة ما من يدها. أمسكها الضابط قبل أن تسقط أرضًا وقرأها ثم انحنى وقد احمر وجهه، وانطلق مبتعدًا. ميعاد! كان الإنجليزي إذن هو المحظوظ! أقسم كوزيمو ألا يتركه يقضي يومه بهدوء حتى المساء.

وفي أثناء ذلك مر الضابط القادم من نابولي. ألقت فيولا بورقة له هو أيضا. قرأها الضابط، وقربها من شفتيه وقبلها. إذن فلا بد أنه هو

المختار؟ إذن ماذا عن الآخر؟ ضد أي منهما يجب على كوزيمو الهجوم؟ من المؤكد أن فيولا قد أعطت ميعادا لأحدهما، وربما داعبت الآخر فقط بمداعبتها المعتادة. أم أنها تريد العبث بهما معًا؟

أما عن مكان اللقاء فقد اتجهت شكوك كوزيمو نحو كوخ في نهاية المنتزه، فقبل ذلك بقليل كانت الماركيزة قد أعادت تنظيمه وتنسيقه، وكان كوزيمو يحترق من الغيرة، لأنها لم تعد تلك الفترة التي فيها كانت تملأ قمم الأشجار بالأرائك والستائر، والآن بدأت تهتم بمناطق لن يستطيع هو دخولها أبدًا. وقال كوزيمو لنفسه: "سأراقب هذا الجناح، إذا كانت قد حددت ميعادا مع واحد من الملازمين فلا بد أنه هناك". وقبع في جزء كثيف من أغصان شجرة كستناء هندي.

وقبل الغروب بقليل سُمع ركض، فقد وصل ملازم سفينة نابولي، وفكر كوزيمو: " والآن سأثير غضبه!" وبواسطة مقلاع ألقى في عنقه بقذيفة من روث السناجب، ارتعد الضابط ونظر حوله. ابتعد كوزيمو عن ذلك الفرع وأثناء ذلك لمح من بعيد، من وراء السياج الملازم الإنجليزي يهبط من فوق السرج، ويربط الحصان إلى عامود. "إذن فهو المقصود. ربما كان الآخر يمر مصادفة". وعلى الفور ألقى بقذيفة من روث السناجب على أنفه.

قال الإنجليزي: من هناك؟ وكان يعبر السياج، ولكنه وجد نفسه وجهًا لوجه مع زميله النابولي، والذي عندما نزل هو الآخر من فوق جواده أخذ يصيح بدوره: من هناك؟

قال الإنجليزي: أستمحيك عذرًا يا سيدي، ولكننى يجب أن أطلب إلى سيادتك أن تترك هذا المكان على الفور!

أجابه النابولي قائلاً: وجودي هنا الآن من حقى، فأنا أدعو سيادتك إلى أن تترك المكان حالاً!

رد الإنجليزي: لا حق لديك أقوى من حقي، أنا آسف، لن أسمح لك بالمكوث.

قال الآخر: إنها مسألة شرف، وسأكون على مستوى لقبي: سالفاتوري دي سان كاتالدو دي سانتا ماريا كابو فيبتري، من القوات البحرية للصقليتين!

عندئذ قدم الإنجليزي نفسه: إن ثلث اسمي هو سير أوسبرت كاسلفايت، ويشرفني أن أفرض على سيادتك أن تترك الساحة.

- ليس قبل أن أطرد سيادتك بهذا السيف! ويستل سيفه من غمده.

- إذن فأنت تريد القتال - قال هذا السير أوسبرت ـ وبدأ في الدفاع عن نفسه.

وتقاتلا.

- لطالما أردتك هنا أيها الزميل، وليس فقط اليوم، ثم ضربه ضربة قوية.

وضربه سير أوسبرت ضربة مماثلة قائلا: منذ فترة وأنا أتبع خطواتك أيها الملازم، وكنت أتوقع ذلك!

وبما أنهما متساويان في القوى، أخذ ملازما السفينتين يتبادلان الهجوم والتراجع. وكانا في قمة مبارزتهما عندما ظهرت النبيلة فيولا عند عتبة الجناح وصاحت: توقفا، بحق السماء!

وقالا هما الاثنان في صوت واحد، وبعد أن أنزلا السيفين وانحنى كل منهما للآخر: سيدتى الماركيزة، إن هذا الرجل.

وفيولا: صديقيَّ العزيزين! ضعا جانبًا سيفيكما، أرجوكما! أهذه إذن هي الطريقة التي تخيفان بها سيدة؟ كنت أفضل هذا الجناح لأنه أكثر الأماكن صمتا وسرية في حديقتي، وها أنا بمجرد أن استلقيت أيقظني صوت ضربات سيفيكما!

قال الإنجليزي: لكني، سيدتي، ألم أكن أنا المدعو هنا من قبل سيادتك؟

قال النابولي: ولكني سيادتك كنت هنا في انتظاري، يا سيدتي. ومن

حنجرة السيدة فيولا ارتفع صوت ضحكة خفيفة وكأنها حفيف أجنحة: آه، بلى، بلى، دعوتك أنت، أم دعوتك أنت. آه إنني مرتبكة جداً. حسناً، ماذا تنتظران؟ تفضلا، استريحا، أرجوكما.

- سيدتي، كنت أعتقد أن الأمر يتعلق بدعوة لي أنا وحدي، والآن وقد خاب أملي، استأذن من سيادتك، اسمحي لي بالانصراف.

- الشيء نفسه أقوله أنا أيضا يا سيدتي، اسمحي لي.

- ضحكت الماركيزة: صديقيَّ العزيزين. صديقيَّ الطيبين. أشعر أنني متهورة، كنت أعتقد أنني دعوت سير أوسبرت في ساعة، ودون سالفاتوري في ساعة أخرى.لا، لا، اعذراني؛ بل في الساعة نفسها، ولكن في مكانين مختلفين. آه؟ لا، كيف يمكن هذا؟. حسناً، نظراً إلى أنكما هنا أنتما الاثنان، لماذا لا نجلس معًا ونتحدث بتحضر؟

- نظر الملازمان كل منهما إلى لآخر، ثم نظرا إليها، هل يجب أن نفهم بهذه الطريقة يا ماركيزة أنك كنت تتظاهرين بأنك تقدرين اهتمامنا فقط لتعبثي بنا نحن الاثنين؟!

- لماذا يا صديقيَّ العزيزين، بالعكس، بالعكس. لم أستطع أن أعامل مثابرتكما بلا مبالاة. فلقد أصبحتما عزيزين جداً... وهذا هو سبب ألمي. فإذا اخترت رقة السير أوسبرت يجب أن أفقدك أنت يا دون سلفادوري يا غرامي. وإذا اخترت نار الملازم دي سان كاتالودو يجب أن أتخلى عنك أنت أيها السير! آه. لماذا إذن. لماذا؟

ـ لماذا إذن ماذا؟ سألاها في صوت واحد.

قالت دونا فيولا خافضة رأسها: لماذا إذن لا يمكن أن أكون معكما في الوقت نفسه؟

ومن فوق شجرة الكستناء الهندي سمع صوت سقوط الأغصان. كان كوزيمو الذي لم يعد يحتمل البقاء ساكنا.

ولكن الملازمين كانا مرتبكين جداً فلم يسمعا شيئا. تراجع كل منهما خطوة إلى الوراء، لا يمكن هذا أبداً يا سيدتي.

رفعت الماركيزة وجهها الجميل بابتسامة متألقة:

- حسنًا، سأكون لأول من يقوم من بينكما، لإثبات حبه، وليرضيني في كل شيء، يعلن أنه على استعداد ايضا ليتقاسمني مع خصمه!

- سيدتي.

- سيدتي.

انحنى كل من الملازمين تجاه فيولا في تحية جافة للاستئذان، ونظر كل منهما إلى الآخر ومد كل منهما يده إلى الآخر ثم شدا على قبضتيهما.

- كنت متأكداً أنك رجل مهذب يا سينيور كاتالدو، قال الإنجليزي.

- وأنا أيضًا لم أكن أشك في شرفك يا سير أوسبرتو، قال الضابط النابولي، واستدارا ليتركا الماركيزة، واتجها إلى جواديهما.

- صديقيَّ. لماذا شعرتما بالإهانة. أيها الغبيان كانت فيولا تقول هذا، ولكنَّ كلاً من الضابطين قد وضع قدمه في ركاب حصانه.

وكانت اللحظة التي ينتظرها كوزيمو منذ فترة، ليستمتع بالانتقام الذي أعده لهما؛ فالآن سيتعرض الاثنان لمفاجأة مؤلمة. إلا أنه عندما رأى موقفهما الرجولي تجاه الماركيزة المتكبرة شعر فجأة برغبة في التصالح معهما. ولكن فات الأوان! فالآن لم يعد في الإمكان نزع قنبلة الانتقام من موضعها! ففي ثانية قرر كوزيمو في لحظة كرم أن يحذرهما؛ وصاح من فوق الشجرة، أنتما هناك! لا تجلسان على السرج!

رفع الاثنان رأسيهما بحيوية: ماذا تفعل هناك فوق؟

- ماذا تفعل؟ كيف تسمح لنفسك؟ انزل!

ومن خلفهما كانت تُسمع ضحكة النبيلة فيولا، إحدى تلك الضحكات الرقيقة.

شعر الاثنان بالارتباك، فقد كان هناك شخص ثالث ربما استمع إلى كل ما حدث، وازداد الموقف تعقيداً.

وقال كل منهما للآخر: على كل حال سيتضامن كل منا مع الآخر!

- ونقسم على ذلك بشرفنا!

- لن يوافق أحد منا بأن يقتسم سيدتي مع أي شخص.

- أبداً وإلى الأبد!

- ولكن إذا قرر أحد منا أن يوافق على ذلك!

- في هذه الحالة، ومتضامنان إلى الأبد، سنوافق على ذلك معا!

- حسناً! والآن، هيا بنا!

وأمام هذا الحوار الجديد قضم كوزيمو إصبعه من الغضب، لأنه حاول أن يتجنب استكمال انتقامه."إذن فليتم الانتقام!" ثم ابتعد بين الأغصان. قفز الضابطان ليجلسا فوق سرجيهما. فكر كوزيمو "الآن سيصرخان" وخطر له أن يسد أذنيه بيديه. عندئذ تعالت صرخة ثنائية. جلس الملازمان على قنفذين خبأهما كوزيمو أسفل غطاء السرج.

- خيانة! وطارا إلى الأرض في انفجار من القفزات والصرخات وهما يدوران كل منهما حول نفسه، وبدا أنهما أرادا أن يتهما الماركيزة.

ولكن النبيلة فيولا، والتي شعرت بالغضب أكثر منهما، صرخت وهى تنظر إلى أعلى: أيها القرد القبيح الشرير والمتوحش! وهرعت وهي تقفز من جذع شجرة الكستناء الهندي، بسرعة شديدة، واختفت عن أنظار الضابطين حتى اعتقدا أن الأرض قد ابتلعتها.

وبين الفروع وجدت فيولا نفسها في مواجهة كوزيمو. أخذ ينظر كل منهما إلى الآخر وعيونهما تطلق شراراً، وكان ذلك الغضب يضفي عليهما نوعًا من النقاء، وكأنهما ملاكان. وبدا وكأنهما يكاد كل منهما يفتك بالآخر، عندما صاحت المرأة: آه يا عزيزي! هكذا! هكذا أريدك: غيوراً

وشرسًا! وبالفعل ألقت بذراعيها حول رقبته، وتبادلا العناق ولم يعد كوزيمو يتذكر أي شيء.

كانت تتموج بين ذراعيه، ابعد وجهها عن وجهه وكأنها تفكر ثم:

- ولكن، هما الاثنان أيضًا هل رأيت كم يحبانني؟ أنهما على استعداد أن يتقاسماني فيما بينهما.

وبدا على كوزيمو وكأنه سيلقي بنفسه فوقها، ثم ابتعد بين الفروع، وأخذ يقضم الأغصان، ويضرب رأسه في جذع الشجرة: إنهما ليسا سوى دودتين!

كانت فيولا قد ابتعدت وقد تجمد وجهها.

- ما زال أمامك الكثير لتتعلمه منهما. استدارت ونزلت بسرعة من فوق الشجرة.

أما الحبيبان فنسي كل منهما الخلافات الماضية، ولم يكن أمامها حل آخر سوى أن يبدأ كل منهم بكل صبر البحث عن الأشواك لزميله. قاطعتهما فيولا:

- بسرعة، تعالا فوق عربتي! واختفوا جميعا خلف الجناح. ورحلت العربة. أما كوزيمو، فمن فوق شجرة الكستناء الهندي، خبأ وجهه بين يديه.

وبدأت فترة العذابات لكوزيمو، ولكن لخصميه أيضا. ولكن هل يمكن أن يُقال إنه وقت سعادة بالنسبة إلى فيولا؟ أعتقد أن الماركيزة كانت تعذب الآخرين فقط، لأنها تريد تعذيب نفسها. كان الضابطان النبيلان يوجدان دائمًا معًا، لا ينفصلان أبدًا أسفل نافذة فيولا أو مدعوين في صالونها، أو في لقاءات طويلة بينهما فقط في الحانة. وكانت هي تغريهما وتطلب منهما التنافس دائما على إظهار أدلة حب جديدة، والتي كانا يعلنان في كل مرة استعدادهما لها، وكانا بالفعل على استعداد لأن يتقاسماها فيما بينهم، ليس هذا فقط، بل واقتسامها أيضا مع آخرين، فالآن وقد تدحرجا

في منحدر التنازلات، ولم يعد في الإمكان التوقف، مدفوعين بالرغبة في أن ينجحا في النهاية بهذه الطريقة لأن يحركا مشاعرها، وأن تلتزم بوعودها، وفي الوقت نفسه بالتزام كل منهما بوعد التضامن مع خصمه، في حين كانت تفترسهما الغيرة كل نحو الآخر، والأمل في أن يتخلص كل منهما من الآخر، بل كانت تدفعهما أيضا محاولة النجاة من الانحطاط المظلم الذي كان يشعر كل منهما أنه سيغرق فيه.

ومع كل وعد جديد تنزعه من الضابطين البحريين، كانت فيولا تصعد على حصانها وتهرع لتخبر به كوزيمو، وكانت تصرخ فيه بمجرد أن تراه قابعًا بهدوء فوق إحدى الأشجار:

- هل عرفت أن الإنجليزي على استعداد ليفعل هذا وهذا. والنابولي أيضًا.

لم يكن كوزيمو يجيبها.

كانت هي تردد بإصرار: هذا هو الحب المطلق!

وكان كوزيمو يصرخ : إنكم جميعا تفاهات مطلقة! ويختفي.

أصبحت هذه الطريقة الوحشية الطريقة الوحيدة لديهما ليحب كل منهما الآخر، ولم يعودا يعرفان كيف النجاة منها.

واستعدت السفينة الحربية للإبحار. قالت فيولاي لسير أوسبرت: ولكنك ستبقى، أليس كذلك؟ وهكذا لم يقدم سير أوسبرت نفسه على سطح السفينة؛ فتم اعتباره هاربًا من الخدمة العسكرية. وتضامنًا ومنافسة، هرب دون سيلفادوري من الخدمة هو أيضا.

- لقد هربا من الخدمة العسكرية! أعلنت فيولا الخبر بانتصار لكوزيمو. فعلا ذلك من أجلي! وأنت.

- وأنا؟! صرخ كوزيمو بنظرة غاية في الوحشية حتى إن فيولا لم تنبس ببنت شفة.

وكان سير أوسبرت وسيلفادوري دى سان كاتالدوي، الهاربان من الخدمة كل منهما من جيشه، يقضيان أيامهما في الحانة، يلعبان الطاولة، شاحبين وقلقين، محاولين أن يربح كل منهما في لعبة القمار من الآخر، بينما كانت فيولا في قمة استيائها من نفسها، ومن كل ما يحيط بها.

امتطت حصانها وذهبت تجاه الغابة. كان كوزيمو فوق شجرة بلوط. توقفت تحتها في مرعى.

- أشعر بالتعب.

- منهما؟

- منكم جميعًا.

- آه.

- لقد منحاني أكبر أدلة الحب.

بصق كوزيمو.

ـ ولكنهما لا يكفياني.

رفع كوزيمو عينيه نحوها.

وهي: أنك تعتقد أن الحب هو تكريس مطلق وإنكار للذات.

كانت هناك فوق الحشائش، أكثر جمالا من ذي قبل، وكان يكفي شيء يسير ليذيب البرودة التي كانت تكسو ملامحها، وذلك التغيير في شخصيتها، وليستطيع استعادتها بين ذراعيه. كان يمكن لكوزيمو أن يقول أي شيء ليرضيها، كان يمكن أن يقول لها: قولي لي ماذا تريدين أن أفعل، وأنا مستعد. وكانت ستبدأ سعادته من جديد، سعادة معها بلا ظلال. إلا أنه قال: لا يمكن أن يكون هناك حب إذا لم يكن المرء متفقًا مع ذاته بكل ما بداخله من قوى.

أتت فيولا بإيماءة معارضة، والتي كانت أيضا حركة تعبر عن التعب. وعلى الرغم أنه كان بإمكانها أن تفهمه كما كانت تفهمه دائما، بل كانت

الكلمات على شفتيها: "إنك تماما كما أريدك..." ثم تصعد له على الفور.... إلا أنها عضت شفتها وقالت: إذن لتكن متفقًا مع ذاتك وحدك.

أراد كوزيمو أن يقول "ولكن لن أكون متفقا مع ذاتي دونك، فإن ذلك سيكون بلا معنى" إلا أنه قال: إذا كنت تفضلين هاتين الدودتين.

- لا أسمح لك باحتقار أصدقائي! صرخت فيه وكانت تفكر "إنني لا يهمني سواك أنت، إنه لأجلك أنت أفعل كل ما أفعله!".

- أنا فقط من يمكن احتقاره.

- إنها طريقتك في التفكير!

- أنا وطريقتي في التفكير شيء واحد.

- إذن وداعًا. سأرحل هذا المساء، ولن تراني أبدًا بعد اليوم.

جرت إلى الفيلا، أعدت حقائبها، ورحلت دون أن تقول أي شيء للملازمين. وكانت عند كلمتها، ولم تعد قط إلى أومبروزا، ذهبت إلى فرنسا، واتفقت الأحداث التاريخية في فرنسا على تنفيذ إرادتها في الوقت الذي كانت هي تتمنى فيه العودة. تفجّرت الثورة، ثم الحرب، في البداية كانت الماركيزة مهتمة بمجرى الأحداث الجديد (فلقد كانت من مجموعة لافايات) ثم هاجرت بعد ذلك إلى بلجيكا ومنها سافرت إلى إنجلترا. وفي ضباب لندن، أثناء أعوام الحرب الطويلة ضد نابليون كانت تحلم بأشجار أومبروزا. ثم تزوجت مرة أخرى من لورد مهتم بالحملات في الهند، واستقرت في كالكوتا. ومن نافذتها كانت تشاهد الغابات، كانت الأشجار أكثر غرابة من تلك الموجودة في حديقة المنزل الذي قضت فيه طفولتها، وكان يبدو لها في كل لحظة أنها ترى كوزيمو يسير بين الأوراق، ولكنه لم يكن سوى ظل قرد أو جاجوار.

وظل كل من سير أوسبرت كاسلفايت وسالفاتوري دي سانت كاتالدو متلازمين في الحياة وفي الموت، وكرسا حياتهما لحياة المغامرة وقد شوهدا

في منازل القمار في فينسيا، وفي كلية اللاهوت في جوتينغن، وفي بلاط كاترينا الثانية في بطرسبرج، ثم فُقدت آثارهما.

ظل كوزيمو طويلا يهيم في الغابات وهو يبكي، مُحطمًا، رافضًا تناول الطعام. كان يبكي بصوت مرتفع وكأنه طفل رضيع، وأصبحت الطيور، التي في يوم ما كانت تهرب بمجرد ظهور ذلك الصياد الماهر، تقترب منه، وتلتف حوله على قمة الأشجار، أو تطير بالقرب من رأسه. وكانت طيور الدوري تصرخ، وطيور الحسون تدندن، والقصرية تشوش والسمان تزرزر، والصفنج والمازجة تغردان، ومن المخابئ العالية خرجت السناجب والزغبة وفئران الحقل، وضمت صفيرها إلى جوقة العصافير، وهكذا كان أخي يتحرك وسط هذه السحابة من العويل.

ثم بدأت فترة العنف المدمر، كان يبدأ كل شجرة من القمة، كان ينزع ورقة تلو الأخرى، ويحولها بسرعة البرق إلى مجرد جذع وكأنها في فصل الشتاء، حتى وإن كانت من النوع الذي لا تتساقط أوراقه. ثم يصعد من جديد إلى القمة، ثم يبدأ في تكسير كل الفروع الصغيرة حتى لا يترك فيها سوى الدعائم الضخمة، ثم يصعد مرة، أخرى وبسكين صغيرة كان يبدأ في نزع اللحاء، وكنا نرى الأشجار المقشرة كاشفة عن اللون الأبيض وكأنها جروح تسبب القشعريرة.

وفي كل هذا الكرب المزعج لم يكن يشعر بأي حقد تجاه فيولا، لم يكن يشعر سوى بالندم لأنه فقدها، لأنه لم يعرف كيف يستبقيها إلى جانبه، لأنه جرحها بكبريائه الظالمة والغبية. لأنه الآن قد أدرك أنها كانت دائمًا مخلصة له، وإذا كانت تجذب وراءها هذين الرجلين الآخرين، فإنها كانت تعني بذلك أنها تحب كوزيمو فقط، وترى أنه الوحيد الذي يستحق أن يكون حبيبها الوحيد، وكل ما كانت تعبر عنه من عدم رضا ومضايقة لم يكن سوى ذلك العطش الجنوني لأن تجعل حبهما ينمو من دون أن تسمح له بأن يصل إلى أقصى حد له. أما هو، فهو لم يستطع أن يفهم أي شيء من هذا، بل أغضبها حتى فقدها.

ومكث لبضعة أسابيع في الغابة، وحيداً كما كان دائماً، ولم يكن معه ولا حتى ماسيمو أتيمو؛ لأن فيولا كانت قد أخذته معها. وعندما عاد أخي ليظهر من جديد في أومبروزا كان قد تغير تمامًا. حتى أنا لم أستطع أن أخدع نفسي: هذه المرة كان كوزيمو قد فقد صوابه بالفعل.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ ٢٤ ـ

كانوا في أومبروزا يتحدثون دائمًا عن جنون كوزيمو، منذ أن صعد وعمره اثنا عشر عامًا فوق الأشجار رافضًا النزول. ولكن بعد ذلك، وكما يحدث دائمًا، قبِل الجميع جنونه هذا. ولا أتحدث فقط عن إصراره على العيش فوق الأشجار؛ ولكن عن التصرفات الغريبة الكثيرة التي كان يقوم بها، ولم يكن أحد ينظر إليه سوى على أنه شخص مختلف. ثم، وأثناء الفترة التي ازدهر فيها حبه لفيولا بدأت تظهر ثوراته وهو ينطق عبارات غير مفهومة، وخاصة تلك التي قالها في أثناء الاحتفال بعيد شفيع البلدة، والذي اعتبره كثير من الناس منهم إهانة للمعتقدات الدينية، مفسرين كلماته وكأنها صرخة هرطوقية، ربما بلغة قرطاج، لغة أتباع البيلاجيانية[١]، أو تلاوة صلاة سوسيانية[٢] بالبولندي. ومنذ تلك اللحظة

(١) نظرية لاهوتية يعود اسمها إلي الراهب بيلاجيوس (٣٥٤ ـ ٤٢٠م). إنها معتقد أن الخطيئة الأصلية لم تؤثر على الطبيعة البشرية، وإن إرادة الإنسان لا تزال قادرة على الاختيار بين الخير والشر من بدون مساعدة إلهية خاصة. وتُعتبر البيلاجيانية هرطقة في معظم الطوائف المسيحية.(المترجم).

(٢) مذهب سبق المذهب التوحيدي، بدأه الراهب واللاهوتي الإيطالي باولو سوزيني (١٥٣٩ ـ ١٦٤٠): الذي اشتهر أيضًا باسم «سوسيان» أو «سوسيانوس». قام سوسيان بنشر كتاب إصلاحى انتقد فيه عقائد الكنيسة الكاثوليكية بشدة، وهاجم التثليث والتجسد والكفارة =

بدأت الشائعات: لقد جن البارون! وكان العاقلون من الناس يضيفون: وكيف يمكن أن يصاب من هو مجنون بالفعل؟!

ووسط تلك الأحكام المتناقضة كان كوزيمو قد أصبح مجنونًا حقًا. إذ كان في البداية يسير وهو مغطى بفراء الحيوانات من رأسه حتى قدميه، فإنه أصبح الآن يزين رأسه بالريش، مثل سكان أمريكا الأصليين، ريش طيور الهدهد وطيور الخضري ذات الألوان الزاهية، وليس على رأسه فقط، بل كان يزين به ملابسه أيضا. وفي النهاية بدأ يصنع لنفسه معاطف مغطاة كلها بالريش، وبدأ يقلد عادات مختلف الطيور، مثل طائر نقار الخشب؛ بأن ينزع من جذوع الأشجار الديدان واليرقات، ويتفاخر بها وكأنه حصل على ثروة.

وكان يقرأ أيضًا دفاعيات الطيور إلى جميع المجتمعين للاستماع إليه للسخرية منه تحت الأشجار. وتحول من صياد إلى محام للطيور، وكان يعلن أحيانًا أنه عصفور طويل الذيل، وأحيانًا أخرى أنه بومة أو أبو الحناء بما يناسب كل منهم من تنكر، ويبدأ في إلقاء خطب اتهام للبشر، والذين لا يستطيعون التعرف إلى أصدقائهم الحقيقيين من العصافير، وهي خطب كانت تتحول إلى إدانة لكل المجتمع الإنساني متخذه شكل القصص الرمزية. ويبدو أن الطيور أيضا أدركت ذلك التغير في أفكاره، فأصبحت تقترب منه، حتى مع وجود كثير من الناس أسفل الشجرة يستمعون إليه. وهكذا كان يستطيع أن يوضح أحاديثه بأمثلة حية يشير إليها على الفروع حوله.

ودارت أحاديث كثيرة بين الصيادين في أومبروزا حول استغلال تأثيره هذا في الطيور كطعم، ولكن لم يجرؤ أحد قط على إطلاق النار على

= والصلب والفداء وسائر المعتقدات الكاثوليكية، ودعا إلي التوحيد الخالص، وامتدت تعاليمه إلي نواح عدة، حيث انتشرت في عنغاريا (المجر) ثم بولندا وترانسلفانيا (إقليم في رومانيا) ثم انتشرت منها إلي هولندا ثم بريطانيا وأخيرًا إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وعرف مذهبه اللاهوتي باسم «السوسيانية» واتباعه بالسوسينيانيين، كما سماهم أعداؤهم بالآريوسيين الجدد؛ نسبة لآريوس ومذهبه القديم.

العصافير الواقفة بجواره؛ لأن البارون، حتى الآن، على الرغم من فقده لرشده، كان لا يزال يثير نوعًا من الرهبة، كانوا يتحدثون عنه بسخرية، هذا حقيقي، وعادة ما كان يقف له تحت الأشجار حشد من المتشردين والعاطلين الذين يسخرون منه، إلا أنه كان أيضًا موضع احترام، ويستمع إليه الجميع دائمًا بانتباه.

أصبحت أشجاره مزينة بالأوراق المكتوبة، وأيضًا بلوحات عليها حكم ونصائح الفيلسوف الرواقي سنيكا وإيرل شافتسبري، وبأشياء مثل مجموعات من الريش، شموع كنيسة، قصاصات ورق، تيجان، شدادات صدر، مسدسات، موازين، مربوطة كل واحدة منها في الأخرى بنظام معين. وكان سكان أومبروزا يقضون الساعات وفي محاول للتخمين عما يمكن أن ترمز إليه تلك الألغاز: النبلاء، البابا، الفضيلة، الحرب. وأنا أعتقد أنها أحيانا لم يكن لها أي مغزى، ولكنها كانت تفيد فقط في أن تشحذ العقل، وأن توضح أنه أحيانا ما تكون أكثر الأفكار بعدًا عن المألوف هي أصح الأفكار.

وأخذ كوزيمو أيضا في تأليف بعض الكتابات مثل: قصيدة الشحرور، ونقار الخشب يطرق الباب، وحوارات البومة، بل أخذ يوزعها على الجمهور، بل كانت فترة اختلال عقله هذه هي الفترة التي تعلم فيها فن الطباعة، وبدأ يطبع أنواعًا من الكتب الصغيرة والنشرات (ومن بينها: نشرة طيور العقيق)، ثم جمعها جميعًا تحت عنوان: مرشد ذوي القدمين. ووضع فوق شجرة جوز مصطبة كبيرة، وآلة طباعة، ومكبس طباعة، ودرجًا للأحرف، وقارورة حبر كبيرة، وكان يقضي الأيام وهو يؤلف تلك الصفحات ويطبع منها نسخًا. وأحيانا كانت تسقط بين آلة الطباعة، والورقة بعض العناكب أو الفراشات، وكانت آثارها تظهر على الصفحة، وأحيانًا أخرى كان حيوان الزغبة يقفز على الورقة التي حبّرت لتوها فيشوّه كل شيء بخبطات من ذيله. وأحيانًا كانت السناجب تأخذ حرفًا من الحروف الأبجدية وتخبئه في جحورها معتقدة أنه شيء يؤكل، كما حدث مع حرف

Q والذي بسبب شكله الدائري وذيله القصير اعتقدته القوارض نوعًا من الفاكهة، واضطر كوزيمو أن يستعيض عنه بحرف الـ C.

كانت كلها أشياء جميلة، ولكن كان لدي انطباع أنه في تلك الفترة لم يكن أخي قد أصيب فقط بالجنون؛ ولكنه أصيب أيضًا بشيء من البلاهة، وهو الشيء الأكثر خطرًا وإيلامًا، لأن الجنون، سواء أكان شرًا أم خيرًا فهو قوة من قوى الطبيعة، في حين البلاهة بالتأكيد هي ضعف الطبيعة.

في الشتاء كان يسقط في نوع من الخمول. كان يبقى معلقا على جذع بداخل جواله المفروش، ولا يظهر منه سوى رأسه، وكأنه بداخل عشه، وكان أقصى ما يفعله في أشد الساعات حرارة هو أن يخطو بعض الخطوات ليصل إلى شجرة جار الماء أمام وادي ميردانزو ليقضي حاجته. كان يجلس بداخل جواله ليقرأ (مضيئا في الظلام مصباحًا زيتيًا) أو ليتمتم مع نفسه، أو ليغني. ولكنه كان يقضي أغلب الأوقات نائمًا.

وليأكل كانت لديه بعض المؤن الغامضة، ولكنه كان أيضًا يقبل ما يقدم إليه من أطباق الحساء أو الرافيولي، عندما كان يُصعدها بعض فاعلي الخير إليه، إلى فوق، مستخدمين لذلك سلمًا. في الواقع كان قد ظهر نوع من المعتقدات الخرافية لدى البسطاء بأن تقديم شيء إلى البارون يجلب الحظ، وهذه علامة على أنه كان يثير لديهم إما الخوف وإما التعاطف وأنا أعتقد أنه كان يثير التعاطف. وبدا لي مثيرًا للاستياء أن يعيش حامل لقب بارون روندو على المعونات، وخاصة عندما فكرت في أبى رحمه الله إذا عرف شيئا مثل هذا. بالنسبة إليّ، فحتى تلك اللحظة لم يكن عليّ أن ألوم نفسي على أي شيء؛ لأن أخي كان يحتقر دائما ما تقدمه إليه العائلة من وسائل الراحة، وكان قد وقع لي على ورقة تعفيني من أي واجب نحوه سوى أن أمنحه قليلاً من الدخل (والذي ينفقه كله تقريبا على شراء الكتب). ولكنني الآن، وأنا أراه عاجزًا عن الحصول على طعامه، جربت أن أُصعد إليه بواسطة السلم أحد الخدم، مرتديًا زيه والباروكة البيضاء، ومعه ربع ديك رومي، وكوب من النبيذ فوق صينية. وكنت أعتقد أنه

سيرفض، بسبب أحد تلك الأسباب الغامضة الخاصة بالمبدأ، إلا أنه قبلها بسرور على الفور. ومنذ تلك اللحظة، وفي كل مرة كنا نتذكره، كنا نرسل حصة من طعامنا إليه فوق الشجرة.

على كل حال، كان تدهورًا سيئًا، ولكن من حسن الحظ حدث غزو الذئاب، واستطاع كوزيمو أن يقدم أفضل ما لديه من إمكانات. كان شتاءً قارصًا، وكان الجليد قد تساقط حتى غابتنا، وبدأت أفواج من الذئاب التي طردها الجوع من جبال الألب تنحدر نحو أنهارنا، وقابلها أحد عمال الغابة وحمل لنا الخبر وهو مفزوع. وقام أهل أومبروزا، والذين كانوا قد تعلموا منذ فترة الحراسة ضد الحرائق أن يتحدوا في وجه الخطر، قاموا بنوبات حراسة حول المدينة لمنع اقتراب تلك الوحوش الجائعة. ولكن لم يكن أحد يجرؤ على الخروج من منزله وخاصة في الليل. وكانوا يقولون في أومبروزا: مع الأسف لم يعد البارون على سابق عهده!

وكان لهذا الشتاء القاسي تأثيره السيئ في صحة كوزيمو، فكان هناك يتأرجح منكمشا بداخل جواله وكأنه دودة قز داخل شرنقة، وأنفه يسيل ويبدو وكأنه مسدود ومتورم. وكان التحذير ضد الذئاب قد بدأ، وكان وهم يمرون أسفل شجرته يخاطبونه: آه أيها البارون؟ في إحدى المرات كنت أنت الذي تحرسنا من فوق الأشجار، والآن نحن الذين نحرسك.

وكان هو يمكث هناك وعيناه شبه مغلقتين، وكأنه لم يفهم ما يقولون، أو لا يهمه شيء. إلا أنه فجأة رفع رأسه، وامتخط ثم قال بصوت مبحوح:

- النعاج. لاصطياد الذئاب ضعوا النعاج فوق الأشجار واربطوها. وكان الناس قد بدءوا بالفعل يجتمعون أسفل الشجرة ليستمعوا إلى جنونه ويسخروا منه، إلا أنه نهض من الجوال وهو يرشح من أنفه، ويبصق بلغما من فمه، وقال: سأريكم أين. وابتعد بين الفروع. وفوق بعض أشجار البندق أو البلوط، بين الغابة والمنطقة الزراعية، وفي مواقع مختارة بعناية أرادهم كوزيمو أن يحضروا بعض النعاج والحملان، وربطها هو بنفسه في الفروع، وهي حية، تثغو، ولكن بطريقة تحميها من السقوط من فوق الأشجار.

وفوق كل واحدة من هذه الأشجار خبأ بندقية وعبأها بالطلقات، وهو أيضا ارتدى ملابس وكأنه نعجة؛ غطاء رأس، معطفًا، غطاء للذراعين، وجميعها من صوف الغنم المجعد. وأخذ يترقب الذئاب في الليل في مكان مكشوف فوق الأشجار. واعتقد الجميع أنها أكبر فكرة مجنونة في حياته.

ولكن في تلك الليلة أتت الذئاب، وعندما اشتمت رائحة النعاج، وسمعت ثغاءها، بل رأتها معلقة هناك فوق، توقف كل القطيع تحت الشجرة، وأخذ يعوي بأفواه جائعة مفتوحة في الهواء، وأخذت الذئاب تشبك مخالبها فوق جذع الشجرة. عندئذ اقترب كوزيمو وهو يتأرجح بين الفروع، وبمجرد أن رأت الذئاب ذلك الشكل الذي يتراوح بين النعجة والإنسان، والذي يقفز هناك فوق مثل الطيور، مكثت مدهوشة وأفواهها مفتوحة، حتى نالت رصاصتين في حنجرتها، رصاصتين؛ لأن كوزيمو كان يحمل معه بندقية (وكان يعبئها بعد كل طلقة) والبندقية الأخرى كانت معدة بالفعل بقذائفها فوق كل شجرة، وهكذا كان في كل مرة يترك خلفه ذئبين ممدين على الأرض المُجمدة. وحصد بهذه الطريقة عددًا كبيرًا منها، ومع كل طلقة كان القطيع يتشتت في اتجاهات مختلفة، وكان الصيادون يهرعون نحو مصدر العواء وصوت الرصاص ويقومون ببقية المهمة.

وعن مسألة صيد الذئاب هذه كان كوزيمو يحكي قصصًا بطرائق مختلفة، ولا أعرف بالتحديد أيها كانت القصة الحقيقية. على سبيل المثال:

- كانت المعركة تسير على أفضل وجه عندما فوجئت في أثناء توجهي إلى الشجرة التي تقف عليها النعجة الأخيرة بثلاثة ذئاب كانت قد تمكنت من التشبث بالفروع والصعود فوق الشجرة، وكادت تنهي ما تبقى من تلك النعجة. ونظرًا إلى أنني كنت نصف أعمى وأصم من البرد الذي أعانيه، وطئت تقريبًا بقدمي على فم أحد الذئاب دون أن أنتبه. وبمجرد أن رأت الذئاب تلك النعجة الأخرى التي تسير على قدميها بين الفروع استدارت نحوها، وهو تفتح أفواهها الملطخة بالدماء. كانت بندقيتي فارغة، لأنني

بعد كل ما أطلقته من قذائف فرغ ما أحمله من بارود، وكانت البندقية المعدة بالفعل بعيدة خلف الذئاب، ويصعب الوصول إليها. وكنت أقف فوق فرع ثانوي، ضعيف بعض الشيء، ولكن فوقي كان هناك فرع آخر أكثر صلابة. أخذت أسير بحذر على فرعي، مبتعدًا ببطء عن الجذع، وأخذ أحد الذئاب يتبعني ببطء. ولكنني أمسكت بيديَّ بالفرع المعلق فوقي، وكنت أتظاهر بأنني أحرك قدمي فوق ذلك الفرع الواهن، وفي الحقيقة كنت أتحرك بيديَّ. وهكذا، تحرك الذئب المخدوع بثقة، وتحطم الفرع أسفله، في حين رفعت نفسي بقفزة فوق الفرع الآخر، وسقط الذئب وهو يطلق صوتًا كنباح الكلب، وتكسرت عظامه، وتجمد على الأرض.

- والذئبان الآخران؟

ـ أخذ الذئبان الآخران ينظران إليّ بلا حركة، عندئذ نزعت فجأة عني المعطف والقبعة المصنوعين من فراء النعاج وألقيتهما عليهما. أحد الذئبان عندما رأى تلك الظلال البيضاء للحمل وهي تطير فوقه حاول أن يمسكها بأسنانه، ولكن نظرًا إلى أنه كان قد أعد نفسه للإمساك بوزن ثقيل، في حين أنه في الحقيقة لم يكن سوى غطاء فارغ، فقد توازنه، وانتهى به الأمر هو أيضًا وقد تحطمت أقدامه ورقبته على الأرض.

- ما زال هناك ذئب.

ـ ما زال هناك واحد، ونظرًا إلى أنني خففت فجأة من ملابسي بأن ألقيت معطفي بعيدًا، فلقد واتتني عطسة قوية من تلك التي تهز السماء، وأمام ذلك الانفجار المفاجئ والجديد فزع الذئب، وقفز مرتعدًا حتى سقط من فوق الشجرة، فتحطمت رقبته هو الآخر.

وهكذا كان أخي يحكي ليلة المعركة، ولكن الشيء المؤكد أن البرد الذي تعرض له ليلتها، ونظرًا إلى أنه كان مريضًا بالفعل، كان له تأثيره المدمر فيه. مكث بعض الأيام بين الحياة والموت، وتم علاجه على نفقة المقاطعة، اعترافًا منهم بالجميل. كان ممددًا على مضجع معلق محاطًا بحركة كثير من الأطباء الذين كانوا يصعدون إليه بسلالم من الحبال. تم استدعاء

أفضل الأطباء في المنطقة لاستشارتهم في حالته، فمنهم من كان يحقنه، ومنهم من كان يفصده، ومنهم من كان يضع له الكمادات. ولم يعد أحد يتحدث عن بارون روندو على أنه مجنون، بل أخذوا يتحدثون عنه وكأنه أعظم العباقرة والظواهر في عصره. واستمرت الحال هكذا طوال فترة مرضه.

عندما تماثل من مرضه عاد بعض منهم يقول عنه إنه حكيم، وبعضهم الآخر يقول إنه مجنون. ولكن الحقيقة أنه لم يعد يرتكب أشياء غريبة كالسابق. استمر فقط في طباعة مجلة أسبوعية، وغير عنوانها من "مرشد ذي القدمين" إلى "الحيوان الفقري العاقل".

ـ ٢٥ ـ

لا أعرف هل في تلك الحقبة كان قد تم تأسيس محفل للبنائين الأحرار في أومبروزا بالفعل: فلقد بدأت الماسونية بعد ذلك بفترة، بعد أول حملة لنابليون، وذلك بانضمام عدد كبير من البورجوازيين الأغنياء والنبلاء الصغار في منطقتنا، ولكنني لا أستطيع أن أتحدث عن ماهية العلاقات الأولى لأخي مع المحفل. وفي هذا الصدد سأتحدث عن موقف حدث تقريبا في الوقت الذي أقص فيه هذه الأحداث، والذي يؤكد شهود متنوعون حدوثه بالفعل.

في أحد الأيام وصل إلى أومبروزا اثنان من الإسبان، كانا مسافرين عابرين، وتوجها إلى منزل شخص يدعى بارتولوميو كافاميا، صانع حلوى، ومعروف بأنه عضو ماسوني. وعلى ما يبدو كانا هما أيضًا عضوين في محفل مدريد، نظرًا إلى أنه قادهما في المساء لحضور اجتماع ماسوني أومبروزا، والذي كان يتم عندئذ على ضوء المصابيح والشموع في حلقة وسط الغابة. وعن كل ما سبق ليس لديّ من أخبار سوى من خلال شائعات وافتراضات، ولكن الشيء المؤكد هو أنه في اليوم التالي، وبمجرد أن خرج هذان الإسبانيان من الفندق كان كوزيمو دي روندو يتبعهما من دون أن يرياه من وكان يراقبها من فوق الأشجار.

دخل المسافران في فناء إحدى الحانات المفتوحة، تربص كوزيمو فوق شجرة وستارية، وعلى المائدة كان هناك زبون ينتظرهما؛ ولم يكن وجهه واضحًا، إذ إنه كان مغطى بقبعة سوداء ذات جوانب عريضة. وأخذت تلك الرءوس الثلاثة، بل تلك القبعات الثلاث تتحاور فوق المربع الأبيض لغطاء المائدة. وبعد أن تحادثا لبرهة أخذت يد الشخص المجهول تكتب في ورقة صغيرة شيئًا ما كان الأخيران يمليانه عليه، وبالترتيب الذي كانوا يضعون الكلمات به واحدة فوق الأخرى يمكن أن يقول عنها إنها قائمة أسماء.

قال كوزيمو: صباح الخير أيها السادة. ارتفعت القبعات الثلاث فأظهرت أسفلها ثلاثة وجوه بعيون جاحظة تجاه الرجل الواقف فوق الشجرة. ولكن أحد هؤلاء الثلاثة، ذلك الذي يرتدي القبعة العريضة، أحنى رأسه مرة أخرى بسرعة حتى كاد يلمس المائدة بطرف أنفه. واستطاع أخي أن يلمح وجهًا ليس غريبا عنه. قال الاثنان: صباح الخير أيها السيد! ولكن هل هي عادة في تلك الأنحاء أن تقدموا أنفسكم للغرباء بأن تسقطوا عليهم من السماء كالحمام؟ نتمنى أن تتكرم وتنزل على الفور لتفسر لنا هذا الأمر!

قال البارون: إن من يمكث في أعلى يراه الجميع من كل اتجاه، في حين أنه يوجد من يختبئ ليخفي وجهه.

- فلتعلم أن لا أحد منا مضطر إلى أن يظهر وجهه لسعادتك أيها السيد، كما ليس مضطرًا أن يظهر لك مؤخرته.

- أعرف أن هناك بعض النوعيات من الأشخاص شرفهم يكمن في إخفاء وجوههم.

- من هم، اسمح لي؟

- الجواسيس، على سبيل المثال!

ارتعد الرفيقان. ومكث ذلك المنحني بلا حراك، ولكن سمع صوته لأول مرة عندما قال:

- آه، وهناك مثال آخر، أعضاء الجماعات السرية.

قال هذا ببطء وبوضوح.

وكان يمكن تفسير تلك العبارة بطرائق متنوعة. فكر كوزيمو في ذلك. وقال بقوة: إن تلك العبارة يا سيد يمكن أن تفسر بأكثر من طريقة. أنت تقول "أعضاء الجماعات السرية" ملمحًا أنني منهم، أو تقصد بذلك أنكم أنتم منهم، أو أن كلينا من هذه الجماعات، أو لا أنا ولا أنتم، ولكن تقصد بها آخرين، أو لأي سبب آخر، ولكنها عبارة يمكن أن تخدمك في أن تعرف ما سأقوله بعد ذلك. أليس كذلك؟

- ماذا، ماذا، ماذا؟ قال وقد ارتبك الرجل ذو القبعة المتسعة الجوانب، وفي ارتباكه هذا نسي أنه يجب أن يحتفظ برأسه منحنٍ، ونهض حتى نظر إلى كوزيمو في عينيه. عندئذ عرفه كوزيمو، كان دون سولبيتشو، ذلك اليسوعي عدوّه عندما كان في أوليفا باسا!

صاح كوزيمو: آه لم أكن أخدع نفسي إذن! لتسقط القناع أيها الأب المحترم!

- أنت! كنت متأكدًا من ذلك! قال ذلك الإسباني وخلع قبعته، وانحنى كاشفًا عن هويته الرهبانية: دون سولبيتشو دي جواداليتى، رئيس الرهبنة اليسوعية.

- كوزيمو دي روندو، بنَّاء حر ومقبول!

والإسبانيان الآخران أيضًا قدم كل منهما نفسه بانحناءة سريعة.

- دون كتايستو!

- دون فولجينشوا!

- يسوعيان أيضا أيها السيدان؟

- شرف عظيم لنا!

- ولكن ألم يتم حل نظامكم الرهبني هذا أخيرًا بناء على أمر من البابا؟

قال دون سوبليتشو وهو يشهر سيفه: ليس ليريح الفوضويين والهرطوقيين من أمثالك!

كانوا يسوعيين من إسبانيا، بعد أن حل نظامهم الرهبني اتجهوا إلى الريف في محاولة لتكوين فرقة مسلحة في كل المناطق ليحاربوا بها الأفكار الجديدة والنزعة التوحيدية.

وكان كوزيمو أيضا قد أخرج سيفه من غمده، وكان كثير من الناس قد تجمعوا حولهم، ثم قال الإسباني: تفضل وانزل إذا أردت أن تصارع على طريقة الفرسان الإسبانيين.

وبالقرب من المكان كانت توجد غابة أشجار الجوز، وكانت فترة الحصاد، وعلق الفلاحون ملاءات تصل بين شجرة وأخرى لجمع الجوز الذي يسقط. جرى كوزيمو نحو إحدى تلك الأشجار وقفز فوق الملاءة ووقف مستقيما، مثبتا قدميه اللتين كانتا يتزحلقان على ذلك النسيج المصنوع من المشمع.

- فلتصعد سيادتك هنا، على ارتفاع شبرين يا دون سولبيتشو، فلقد نزلت أنا أكثر من المعتاد. وأشهر هو أيضًا سيفه.

- قفز الإسباني هو أيضًا فوق الملاءة المشدودة، وكان من الصعب عليهما الحفاظ على التوازن، لأن الملاءة كانت تغلق عليهما وكأنها جوال، ولكنّ المتصارعين كانا في حالة من الهياج سمحت لهما بأن يتبارزا بسيفيهما.

- باسم الله الأعظم!

- مجدا للبنَّاء الأعظم للكون!

وأخذا يتبادلان الضربات القاصمة.

قال كوزيمو: قبل أن أغرس لسيادتك هذا النصل في معدتك، قل لي أخبار الآنسة أورسولا.

- ماتت في أحد الأديرة!

اضطرب كوزيمو عند سماع الخبر (ولكنني أعتقد أنه خبر ملفق في وقته) واستغل اليسوعي السابق هذا الاضطراب ليضربه ضربة يسارية. وبضربة عميقة وصل إلى إحدى الزوايا المربوطة في فروع شجرة الجوز والتي تربط بها الملاءة من الناحية التي يقف عليه كوزيمو وقطعها. كان من المؤكد سقوط كوزيمو لولا أنه كان خفيفًا سريع الحركة، بحيث ألقى بنفسه إلى الجانب الذي يقف فيه دون سولبيتشو، وتعلق هناك بأحد الأطراف. وفي أثناء قفزته تلك غافل سيفه حرص الإسباني وانغرس في بطنه. تخلى دون سولبيتشو عن تماسكه، وانزلق إلى أسفل ناحية الجزء الذي كان قد قطعه في الملاءة، وسقط أرضًا، وتسلق كوزيمو إلى شجرة الجوز. رفع اليسوعيان السابقان الآخران جسد رفيقهما المصاب أو الميت (لم نعرف هذا)، وهربا، ولم نرهما بعد ذلك.

وتجمع الناس حول الملاءة الملطخة بالدماء، ومنذ ذلك اليوم اشتهر أخي لدى الجميع بأنه رفيق ماسوني.

ولم تسمح لي سرية الجماعة بأن أعرف أكثر من ذلك. فعندما انضممت إلى الجماعة، كما قلت، كنت أسمعهم يتحدثون عن كوزيمو وكأنه رفيق قديم، ولكن لم تكن علاقاته بالمحفل واضحة، فكان منهم من يصفه بأنه "خلايا نائمة"، ومن يقول عنه إنه هرطوقي انتقل إلى مذهب آخر، ومنهم من وصفه بأنه مرتد. إلا أن ذلك كله كان يُقال في احترام شديد لنشاطه السابق. ولا يمكنني أن أستبعد أن يكون هو ذلك المعلم الأسطوري "نقار الخشب البنّاء"، والذي يُعهد إليه بتأسيس محفل "شرق أومبروزا". ومن جهة أخرى، فإن الشعائر الأولى التي تتم يظهر فيها تأثير البارون؛ يكفي أن أذكر أن الملتحقين الجدد كان يتم تعصيب أعينهم، ثم يصعدوهم على قمة إحدى الأشجار، ثم يسقطونهم من فوق وهم معلقون بحبل.

ومن المؤكد أن أول اجتماعات للجماعات الماسونية، في منطقتنا، كانت تتم في الليل في وسط الغابات. ومن ثم كان وجود كوزيمو له أكثر من تبرير، سواء من خلال تلقيه المطبوعات الخاصة بالقوانين الماسونية ضمن مراسلاته الخارجية، وتأسيس المحفل هنا، أو حتى في حالة وجود شخص آخر هو الذي أدخل الشعائر إلى أومبروزا، على الأرجح بعد إدخالها إلى فرنسا أو إلى إنجلترا. أو ربما كانت الماسونية موجودة هنا بالفعل منذ فترة من دون علم كوزيمو، وأنه بالمصادفة في إحدى الليالي، وهو يتحرك بين أشجار الغابة، اكتشف، في أحد الأركان، اجتماع بعض الرجال ذوي الملابس والأدوات الغريبة على ضوء الشموع، وأنه توقف هناك فوق ليستمع إليهم، ثم تدخل مسببًا الاضطراب لهم بإحدى عباراته المحيرة، على سبيل المثال:

- إذا ارتفعت بأحد الأسوار فكر فيمن ستتركه خارجه! (وهي عبارة كنت أسمعه يرددها كثيرًا)، أو أية عبارة أخرى من عباراته، وعندما عرف الماسونيون بما لديه من تعليم عال أدخلوه في المحفل، وعهدوا إليه بمهام خاصة، جالبًا معه عددًا كبيرًا من الشعائر والرموز الجديدة.

ويبقى دائمًا واقع أن طوال الفترة التي كان لأخي دور ما فيها، كانت ماسونية الهواء الطلق (كما سأطلق عليها لأميزها عن تلك التي كانت تجتمع في مبنى مغلق) تتمتع بشعائر أكثر ثراءً، كانت تدخل فيها البوم، أجهزة التليسكوب وثمار الصنوبر، المضخات المائية وعش الغراب، غطاسات ديكارت وأعشاش العنكبوت وجداول فيثاغورث. وكان هناك أيضًا نوع من المباهاة بالجماجم، ليس فقط بالجماجم الآدمية، ولكن أيضًا بجماجم الأبقار، والثعالب، والنسور. وهكذا كنا نجد في هذه الفترة أدوات مثل هذه، أو أخرى مثل المسطرين ومقياس الزوايا والفرجار، وأدوات الطقوس الماسونية العادية، معلقة على فروع الأشجار بترتيب غريب، وكان يعهد بها أيضًا لجنون البارون. فقط قلة قليلة من الأشخاص الآن يحاولون التلميح أن هذه الألغاز كان لها مغزى أكثر جدية، ولكن حينئذ لم يكن أحد

يستطيع أبدًا الفصل التام بين الإشارات السابقة وتلك التي لحقت بها، أو أن يستبعدوا أنها منذ البداية كانت علامات غريبة لإحدى المنظمات السرية.

لأن كوزيمو، وقبل أن ينضم للماسونية بفترة طويلة، كان قد انضم إلى منظمات أو جمعيات إخاء مهنية، مثل جمعية سان كريسبيتو، أو جمعية صانعي الأحذية، أو أيضًا جمعية صانعي البراميل الأفاضل، أو صانعي الأسلحة العادلين، أو صانعي القبعات الشرفاء. ونظرا إلى أنه كان يصنع بنفسه كل الأشياء التي تلزمه، فقد كان يعرف مختلف الصناعات، وكان يمكن أن يفتخر بأنه عضو في كثير من الجمعيات، وكانوا هم من جانبهم سعداء حيث أصبح بينهم عضو ينتمي إلى عائلة نبيلة، ذو عبقرية فذة، وليست له أي مصالح خاصة من الانضمام إليهم.

ولكن كيف كان شغف كوزيمو هذا بالحياة الجماعية، والذي طالما عبر عنه، كان يتفق مع هروبه الدائم من الأعراف الحضرية؟ هذا ما لم أستطع قط أن أفهمه، ومن ثم ظلت إحدى تلك المميزات القليلة في طابعه. يمكن أن نقول إنه كلما قرر بشدة أن يختبئ وسط فروعه، كان يفكر في خلق علاقات جديدة مع البشر. ولكن مع أنه كان يلقي بنفسه روحًا وجسدًا في تنظيم أو رابطة جديدة، واضعًا لها بدقة القوانين والأهداف، واختيار الأشخاص المناسبين لكل مهمة، إلا أن رفاقه لم يعرفوا قط إلى أي مدى يمكنهم الاعتماد عليه، متى وأين يمكنهم مقابلته، ومتى سيعود فجأة إلى حياته الطبيعية كطائر، ولم يدع أحدًا يقيده قط.

ربما إذا أراد أحد أن يرجع تلك التصرفات المتناقضة إلى دافع واحد، فإن عليه أن يفكر أن كوزيمو كان عدوًا أيضًا لكل نوع من أنواع مشاركة الحياة الإنسانية الموجودة في عصره، ولذلك كان يهرب منها جميعا، ولكنه كان يغرق نفسه بإصرار في تجريب الجديد منها، ولكن لم تبد له أية واحدة منها صالحة ومختلفة كثيرًا عن الأخريات؛ ومن هنا جاءت اعتراضاته المستمرة التي تمثلت في ذلك النفور المطلق من البشر.

كان ما بذهنه هو فكرة المجتمع الكوني، وكان ذلك يتضح في كل المرات التي يعمل فيها على مشاركة الناس، سواء لأهداف محددة، مثل الحراسة ضد الحرائق، أو الحماية من الذئاب، أو في جمعيات مهنية مثل المشحذين البارعين، أو دابغي الجلود المستنيرين، نظرًا لأنه كان دائما ينجح في جعلهم يجتمعون في الغابة ليلا، حول إحدى الأشجار، والتي كان هو يستطيع أن يعظهم من فوقها، وكانت تظهر دائمًا من تلك الجمعيات رياح المؤامرة، أو الطائفية والهرطقة، وهكذا، وفي هذا الجو، كانت الأحاديث تنتقل بسهولة من الخاص إلى العام، ومن القواعد البسيطة لمهنة يدوية يتنقلون بكل سهولة إلى مشروع لتأسيس جمهورية عالمية من المساواة والحرية والعدل.

ولم يكن كوزيمو إذن أثناء انضمامه إلى الماسونية يفعل شيئًا سوى تكرار ما كان قد فعله من قبل في الجماعات السرية أو شبه السرية التي كان قد شارك فيها من قبل. وعندما وصل شخص يدعى لورد ليفربوك، وكان مبعوثًا من المحفل العظيم للندن لزيارة الإخوة في القارة، وصل إلى أومبروزا عندما كان أخي هو "المعلم"، شعر بالإهانة من عدم التزامه بالطقوس، إلى حد أنه كتب إلى لندن عن أن محفل أومبروزا لا بد وأنه نوع جديد من الماسونية الأسكتلندية، التي يمولها ستيوارت لتقوم بالدعاية ضد عرش الهنوفر، وذلك لاستعادة المذهب اليعاقبي.

وبعد ذلك حدث ما قد حكيت عنه، عن المسافرين الإسبانيين، والذين قدما أنفسهما على أنهما ماسونيان إلى بارتواوميو كافانيا. وعندما تمت دعوتهما إلى أحد اجتماعات المحفل وجدا كل شيء عاديًا جدًا، بل قالا إنها تشبه تماماً ماسونية شرق مدريد، وذلك ما جعل كوزيمو، والذي كان يعرف أي جزء من الاجتماع من إبداعه، يشك في هويتيهما؛ ولذلك أخذ يتتبع آثار هذين الجاسوسيين، وكشف عن حقيقتهما، وانتصر على عدوه القديم دون سولبيتشو.

على كل حال، أنا أعتقد أن هذه التغييرات في الطقوس الليتورجية كانت احتياجًا شخصيًا، لأنه فيما يتعلق بكل المهن، كان يمكنه بالفعل تبني الرموز الخاصة بها، فيما عدا تلك التي كانت للبنائين، نظرا إلى أنه لم يكن يرغب قط في البناء، ولا في السكن في منازل مبنية بالطوب.



ـ ٢٦ ـ

كانت أومبروزا أيضًا أرض مزارع الكرم. ولم أبرز هذا قط من قبل، لأنني باتباع كوزيمو اضطررت أن أمكث دائما بجوار الأشجار ذات السيقان المرتفعة. ولكن كانت هناك مساحات شاسعة من منحدرات العنب، وفي شهر أغسطس، وأسفل أوراق الأشجار المصفوفة كان العنب الأحمر ينتفخ في عناقيد بعصير كثيف له بالفعل لون النبيذ. وكانت بعض الكروم في تكعيبات. أقول هذا أيضًا لأن كوزيمو قد أصبح، بتقدمه في السن، صغير الحجم وخفيفًا إلى حد أنه تعلم جيدًا فن السير بلا وزن، حتى إن دعامات التكعيبات كانت تحمله. وهكذا كان يستطيع السير فوق الكروم، وذلك بالاستعانة بأشجار الفاكهة حولها، ومستندًا على نوع معين من الدعامات، كان يستطيع أداء أعمال كثيرة مثل التشذيب في الشتاء، عندما تصبح الكروم عارية متشابكة حول الأسلاك الحديدية، أو كان ينزع الأوراق الزائدة على الحد في الصيف، أو يبحث عن الحشرات، ثم في شهر سبتمبر يساعد في الحصاد.

في يوم الحصاد، كان كل سكان أومبروزا يذهبون في الصباح إلى الكروم، وبين اللون الأخضر لصفوف الأشجار لم تكن تظهر سوى التنورات ذات الألوان الزاهية والقبعات ذات السموط. وكان البغالون يحملون سلالاً

كبيرة مليئة فوق الرحل ويفرغونها في أوعية خشبية كبيرة لعصرها، وسلالاً أخرى يأخذها جباة مختلفون يأتون ومعهم فرق من الجنود ليراقبوا حصص نبلاء المنطقة، وحصص حكومة جمهورية جنوة، وحصص الكهنة، وعشرات الجباة. وفي كل عام كانت تحدث بعض المشاحنات.

كانت مشكلات حصة المحصول التي توزع يمينًا ويسارًا، هي موضوع الاعتراضات الرئيسية في "كراسات الآلام" عندما حدثت الثورة الفرنسية. وأخذوا يكتبون هنا أيضًا في أومبروزا، فقط لمحاكاة التجربة، حتى وإن كان ذلك لا يفيد في أي شيء. وكانت تلك إحدى أفكار كوزيمو، والذي كان في ذلك الوقت لم يعد بحاجة لأن يذهب إلى اجتماعات المحفل ليتناقش مع أولئك الماسونيين الفارغين والفاشلين. كان يقف فوق أشجار الميدان وكان يتجمع حوله كل الناس، من الميناء ومن الحقول، ليشرح لهم الأخبار، لأنه كان يتسلم المجلات بالبريد، بل كان له بعض الأصدقاء الذين يكتبون إليه، ومنهم بايلي الفلكي، والذي أصبح بعد ذلك عمدة باريس، وأعضاء آخرون. وفي كل لحظة كانت هناك أخبار جديدة؛ أخبار عن جاك نيكر، وعن الباستيل، وصالة التنس الملكي للقاءات السرية، ولافاييت بالحصان الأبيض، والملك لويس وهو يرتدي زي التابع. كان كوزيمو يشرح ويمثل لهم كل شيء وهو يقفز من فرع إلى آخر، وكان على أحد الفروع يمثل دور ميرابو في المحكمة، وعلى الآخر جان بول مارا أمام اليعاقبة، وعلى فرع ثالث الملك لويس في فرساي، والذي يضع القبعة الحمراء على رأسه ليرضى الرفاق القادمين سيرا على الأقدام من باريس.

وليشرح لهم معنى "كراسات المظالم" قال كوزيمو: لنجرب أن نصنع واحدة بأنفسنا. أخذ كراسة مدرسية وعلقها بدبوس على إحدى الأشجار، وكان كل منهم يذهب إلى هناك ليكتب ما يسيئه من الأمور. وبدأت تظهر أشياء من كل نوع: كان السماكون يتحدثون عن أسعار السمك، والكرامون يتحدثون عن العشور، والرعاة عن حدود المراعي، وعمال الغابة عن غابات المقاطعة، ثم كان يكتب أيضًا كل من كان لهم أقارب في السجن، أو أقارب

أولئك الذين حُكم عليهم بالشنق لجريمة ما، وأولئك الذين كانوا يكرهون النبلاء بسبب مشكلات لها علاقة بالنساء، ولم ينته ما لديهم قط. وفكر كوزيمو أنها حتى وإن كانت "كراسات المظالم" فليس حسنًا أن تكون بهذا الحزن. وفكر في أن يطلب من كل منهم أن يكتب عن أكثر شيء يعجبه. ومن جديد بدأ كل منهم يكتب عما يعجبه؛ فهناك من كتب عن خبز الفوكاتشا، وعن الحساء؛ ومن كان يحب شقراء، ومن كان يحب خمراوين؛ ومن كان يحب أن ينام طوال النهار، ومن كان يحب أن يذهب بحثاً عن عش الغراب طوال السنة، ومن كان يريد أن تكون لديه عربة يجرها أربعة أحصنة، ومن كان سيكتفي بعنزة، ومن كان يريد أن يرى أمه التي ماتت، ومن كان يرغب في لقاء آلهة أوليمبيا، أي أن كل ما هو حسن وجيد في العالم كتبوه على الكراسة، أو قاموا برسمه؛ لأن كثيرًا منهم لم يكونوا يعرفون الكتابة، أو حتى صوروه بالألوان. وكوزيمو أيضًا كتب فيها اسمًا: فيولا. وهو الاسم الذي ظل لأعوام يكتبه في كل مكان. وهكذا أصبحت كراسة جميلة أطلق عليه كوزيمو اسم "كراسة الشكوى والرضا". ولكن عندما امتلأت لم تكن هناك جمعية يمكنهم إرسالها إليها، وهكذا بقيت هناك، معلقة على الشجرة بدبوس، وعندما عادت الأمطار بقيت الكراسة هناك لتمحو الأمطار وتشوه ما بها، وسبّب رؤيتها الحزن لدى أهل أومبروزا على حاضرهم البائس، وسيطرت عليهم الرغبة في الثورة.

على كل حال، كانت لدينا نحن أيضًا كل أسباب الثورة الفرنسية، إلا أننا لم نكن في فرنسا، ولم تحدث لدينا ثورة. فنحن نعيش في بلد تتحقق فيه الأسباب فقط وليس الآثار المترتبة عليها.

ولكن في أومبروزا حدثت، بالمثل، أحداث جسام. فقد كان الجيش الجمهوري يحرك جيشه هناك بالقرب من جند الجيش النمساوي الساردي. كان ماسينا في جبل كولاردينتي، ولاهارب على نهر نيرفيا، وموريه على طول الساحل، مع نابليون الذي كان في ذلك الوقت مجرد

جنرال مدفعية، وهكذا كان ذلك الدوي الذي نسمعه يصل إلى أومبروزا مع الرياح من حين لآخر، كان من صنيعه.

وفي سبتمبر كان الاستعداد للحصاد. ويبدو أنه كان هناك الاستعداد لشيء سري وبشع.

كانت الجماعة السرية تنتقل من منزل إلى آخر:

- لقد نضج العنب!

- نضج! بالفعل!

- بل هو أكثر من ناضج الآن! سنذهب لنجمعه!

- سنذهب لعصره!

- سنكون جميعا هنا! أنت أين ستكون؟

- على الكرم هناك القريب من الجسر. وأنت؟ وأنت؟

- لدى الكونت بينيا.

- وأنا في كرم الطاحونة.

- هل رأيت عدد العساكر؟ يبدون كطيور شحرور اقتربت لتنقر العناقيد.

- ولكنها لن تنقر شيئا هذا العام!

- فإذا كانت الطيور كثيرة سنكون جميعا صياديها!

- يوجد من لا يريد أن يظهر، ويوجد من يهرب.

- كيف أن الحصاد هذا العام لم يعد يعجب الكثيرين؟

- كنا نريد أن نؤجله، ولكن الآن نضج العنب!

- أجل نضج!

وفي اليوم التالي بدأ الحصاد صامتًا. كانت الكروم مكتظة بالناس

يقفون في سلاسل على طول صفوف الأشجار، ولكن لم تكن هناك أية أغنية، كان هناك بعض النداءات المنتشرة، وصراخ: هل أنتم أيضًا هنا؟ لقد نضج! حركة فرق، شيء عابس، ربما أيضًا من السماء، والتي لم تكن مغطاة تماماً ولكن كانت كئيبة قليلا، وإذا حاول صوت أن يبدأ في أغنية كان يبقى دائما وحيدًا، ولا يستقبله الكورال، كان البغالون يأخذون السلال الكبيرة المعبأة بالعنب إلى أوعية العصر. كانوا معتادين، في البداية، إعداد الجزء الخاص بالنبلاء وبالأسقف وبالحكومة، أما هذا العام فلم يحدث شيء، وبدا الأمر وكأنهم نسوا هذا الأمر. أما الجباة الذين أتوا لجمع العشور فكانوا عصبيين، ولم يكونوا يعرفون ماذا يفعلون، وكلما مر الوقت، ولم يحدث أي شيء كان يُفهم أكثر أن شيئًا ما لا بد سيحدث، وأدرك العسكر أن عليهم الحركة، ولكنهم لم يفهموا ماذا يفعلون.

أما كوزيمو فبخطواته الخفيفة كالهرة، كان قد اعتاد أن يسير وسط التكعيبات. ومعه مقصه في يده كان يقطع عنقودًا هنا وآخر هناك بلا نظام، وكان يقذف بها بعد ذلك لجامعي أو لجامعات الحصاد في أسفل، وهو يقول شيئًا بصوت منخفض لكل واحد منهم.

لم يستطع قائد العسكر أن يتحمل أكثر من ذلك وقال: حسنًا، وهكذا إذن، فلنرَ الآن تلك العشور؟ وبمجرد أن قال ذلك شعر بالندم الشديد. فلقد تصاعد من وسط الكروم صوت كئيب بين الدوي والأزيز؛ كان أحد الحصادين ينفخ في قوقعة مثل البوق، وأخذ ينشر صوت تحذير في كل الأودية. ومن كل جانب أخذت الأصوات المتشابهة تتصاعد، ورفع حصّاد الكرم القواقع كالأبواق، وكوزيمو أيضًا من فوق التكعيبة.

ثم بدأت أغنية تتصاعد من بين صفوف الأشجار. في البداية كانت الأغنية متقطعة، غير منغمة، ولم يكن مفهومًا ماذا كانت. ثم بدأت الأصوات تُفهم، ثم تنغّم وتصدح، وكانوا يغنون وكأنهم يجرون بسرعة، وكان الرجال والنساء واقفين بثبات مختبئين تقريبًا وسط صفوف الأشجار، وكان يبدو أن الأعمدة والكروم والعناقيد تجري جميعًا، وأن العنب يحصد

نفسه، ويلقي بنفسه داخل الأوعية بل يعصر نفسه، وأصبح الهواء والسحب والشمس كله مختمرًا، وبالفعل بدأت الأغنية تتضح. في البداية النغمات الموسيقية، ثم بعد ذلك عبارة بالفرنسية كانت تحاكي صيحة الثورة الفرنسية: سنفوز! سنفوز! سنفوز! وكان الشباب يسحقون العنب بأقدمهم العارية والحمراء، سنفوز! وكانت الفتيات يضربن بالمقصات الحادة وكأنها خناجر تنغرس في النباتات الخضراء جارحة الوصلات المعوجة للعناقيد، سنفوز! وكان البعوض كالسحب يغزو الهواء فوق أكوام العنب المُعدّ للعصر، - سنفوز! وعندئذ حاول العسكر السيطرة على الموقف: أنتم هناك فوق! اصمتوا! يكفي هذا! من سيغني سنطلق عليه النيران! وأخذوا يطلقون طلقات في الهواء! وأجابهم قصف بنادق، حتى بدا أنه قادم من جيوش محتشدة للحرب فوق التلال. أخذت كل بنادق الصيد في أومبروزا في الانفجار، وكان كوزيمو فوق قمة شجرة تين مرتفعة ينفخ بكل طاقته في البوق. وأصبحت هناك حركة بشرية في كل الكرم. ولم يعد أحد يفهم هل هي حركة الحصاد أو كانت خليطًا: رجال وعنب، نساء وأغصان كرمة، مناجل وأوراق، وبنادق، سلال وخيول، وأسلاك وكلمات، ركلات بغال، سيقان ونهود و والكل يغني: سنفوز!

- إليكم عشوركم! وانتهى الأمر بأن حشروا العساكر والجباة من رءوسهم في الأوعية الخشبية المليئة بالعنب، وأرجلهم تتدلى منها وهي تركل. وعادوا أدراجهم دون أن يجبوا أي شيء، ملوثين من رءوسهم إلى أقدامهم بعصير العنب.

واستمر الحصاد وكأنه العيد، وكان الجميع مقتنعين أنهم قضوا على الميزات الإقطاعية. وفي ذلك الوقت كنا نحن النبلاء القدامى والجدد قد تحصنّا في قصورنا مسلحين ومستعدين للدفاع عن أنفسنا. (واكتفيت أنا بألا أطأ خارج المنزل، وخاصة حتى لا يقول النبلاء الآخرون إنني كنت متفقًا مع أخي ذلك الشرير، والذي اعتبروه أسوأ المحرضين واليعقوبيين

والموالين للثورة في المنطقة كلها). ولكن في ذلك اليوم الذي طردوا فيه الجباة والقوات لم يمس أي شخص بسوء.

وكانوا جميعًا منهمكين في الإعداد للاحتفالات، وأقاموا أيضًا شجرة الحرية، ليتبعوا الموضة الفرنسية، إلا أنهم لم يكونوا يعرفون كيف كانت مصنوعة تلك الأشجار، ثم إن لدينا كانت الأشجار كثيرة جدًا، ولم يكن الأمر يستحق وضع شجرة صناعية. وهكذا زينوا شجرة دردار طبيعية بالزهور وعناقيد العنب والشُرط المزخرفة وكتبوا عليها: "تحيا الأمة العظيمة!". وفي أعلى قمة الشجرة وقف أخي وهو يرتدي قبعته الثلاثية فوق القبعة المصنوعة من فراء القط، وهو يلقي عليهم بخطبة عن روسو وفولتير، والتي لم يكن أحد يسمع منها كلمة واحدة؛ لأن الشعب كله أسفل الشجرة كان يرقص وهو يغني: سنفوز!

لم يستمر فرحهم طويلاً؛ فقد أتت قوات مسلحة من جنوة للحصول على العشور ولضمان المحافظة على عدم حياد المنطقة، وقوات نمساوية ساردينية لأنه كانت الشائعات قد انتشرت بالفعل عن أن يعاقبة أومبروزا يريدون إعلان الانضمام إلى "الأمة العظيمة الكونية" أي إلى الجمهورية الفرنسية. حاول الثوار المقاومة، وبنوا بعض المتاريس، وأغلقوا أبواب المدينة. ولكن هيهات، كان الأمر يتطلب شيئًا آخر! فلقد دخلت القوات المدينة من كل الجهات، ووضعوا مناطق تفتيش في كل طرق الحقول، وأولئك الذين كانوا يحملون لقب المحرضين ألقوا بهم في السجن، ما عدا كوزيمو، الذي كان القبض عليه غاية في الصعوبة، وقلة أخرى معه.

وتمت محاكمة الثوار علنًا، ولكن استطاع المتهمون إثبات أن لا دخل لهم، وأن القادة الحقيقيين هم الذين استطاعوا الفرار، وهكذا تم الإفراج عن الجميع. ثم إنه مع وجود كل تلك القوات المحتشدة في أومبروزا لم يعد أحد يخشى أية اضطرابات أخرى. ومكثت أيضًا في أومبروزا حامية عسكرية من جيش النمسا وساردينيا ليحموا أنفسهم من أية احتمالات

لتوغل العدو، وكان يقودهم زوج أختنا باتيستا ديستوماك، والذي هاجر من فرنسا تابعًا لكونت بروفنسا.

وهكذا وجدت أختنا باتيستا معي. وأترك لكم تخيل مدى سعادتي بهذا. فلقد مكثت معي في المنزل مع زوجها الضابط، وخيولهم، وقوات الأمن. وكانت هي تمضي الأمسيات وهي تحكي لنا عمليات الإعدام الأخيرة في باريس؛ بل كان لديها نموذج مصغر من المقصلة، بنصل حقيقي، وكانت تشرح لنا نهاية أصدقائها وأقاربها الذين قُبض عليهم، بأن تقطع رءوس أبو بريص والحرباء والديدان والفئران.

وهكذا كنا نقضي سهراتنا. وكنت أحقد على كوزيمو الذي كان يعيش أيامه ولياليه في الأدغال، مختبئًا في غابة لا يعرفها أحد.

ـ ٢٧ ـ

كان كوزيمو يحكي كثيرًا عن المغامرات التي قام بها في الغابات في أثناء الحرب، وكانت مغامرات لا يصدقها عقل، وكان تفضيل رواية منها على الأخرى شيئًا يصعب عليّ القيام به. لذلك أترك الكلمة له، ناقلاً بأمانة بعض ما حكاه:

في الغابة كانت فرق المستكشفين من الجيشين المتخاصمين تخاطر بالخروج للاستكشاف. ومن فوق الفروع ومع كل خطوة أسمعها تدوي بين الحشائش، كنت أنصت لأعرف هل هي فرقة تابعة للنمساويين أم للفرنسيين.

كان ملازمًا صغيرًا نمساويًا، أشقر جدًا يقود فرقة جنود يرتدون حللاً عسكرية رائعة بذيل الحصان والفيونكة، القبعة الثلاثية وحذاء الفرسان، بالأحزمة البيضاء المتقاطعة، بالبندقية والحربة، وكان يجعلهم يسيرون في صف من اثنين، محاولاً أن يحافظ على نظامهم في تلك المدقات الخربة. ونظرًا إلى أنه كان يجهل طبيعة الغابة، لكنه كان واثقًا من تنفيذ الأوامر التي لديه بدقة، كان يتقدم تبعًا للخطوط المرسومة على الخريطة، متخبطًا باستمرار في الجذوع، مسقطًا فرقته بأحذيتهم المدببة على أحجار

ملساء، أو متسببًا في إيذاء عيونهم بالأشواك، ولكن كل هذا وهو لا يزال واثقًا من تفوق الأسلحة الإمبراطورية.

وكانوا جنودًا رائعين، وكنت أنتظرهم في الممر مختبئًا على شجرة صنوبر. وكانت بيدي ثمرة صنوبر تزن أكثر من نصف كيلو جرام، وتركتها تسقط على رأس آخر جندي في الصف، ففرد الجندي ذراعيه، وثنى ركبتيه وسقط بين نباتات السرخس في الغابة السفلية. لم يلحظ أحد ما حدث، واستمرت الفرقة في السير.

لحقت بهم ثانية. وفي هذه المرة ألقيت بقنفذ ملتف على عنق جندي عريف، فأحنى العريف رأسه، وسقط مغشيًا عليه. ولكن هذه المرة لاحظ الملازم ما حدث، أرسل رجلين ليحملاه على نقالة، واستمر في التقدم.

وكانت الفرقة العسكرية، وكأنها متعمدة، تدخل نفسها في المصاعب في أكثر مناطق الأحراش الوعرة في الغابة كلها. وكانت تنتظرها في كل مرة مأساة جديدة. كنت قد جمعت في كيس نوعًا من الشرنقات الكثيفة الشعر زرقاء اللون، والتي بمجرد لمسها ينتفخ الجلد أسوأ مما يحدث عند الإصابة بمرض الجدري، وقذفت فوقهم بالمئات منها، مرت الفرقة، ثم اختفت بين الأشجار الكثيفة، وظهرت من جديد، وكل منهم يحك بيديه وجهه المليء بالدمامل الحمراء، واستمرت الفرقة في التقدم.

يا لها من فرقة رائعة، ويا له من قائد عظيم. كان كل ما في الغابة غريب جدًا بالنسبة إليهم، ولم يكن في استطاعتهم تمييز الأشياء غير المعتادة، وكانوا يستمرون في طريقهم مع كل المؤثرات المهلكة، ولكنهم مع ذلك كانوا فريقًا فخورًا ولا يمكن إخضاعه. عندئذ لجأت إلى عائلة من القطط البرية؛ كنت ألقيها من ذيلها بعد أن أكون قد أدرتها قليلاً في الهواء، وهو شيء كان يثير غضبها الشديد إلى أبعد حد. بعد ذلك، حدثت جلبة شديدة، وخاصة من السنور، ثم الصمت والهدوء. فقد كان

النمساويون يضمدون جراحهم. واستأنفت الفرقة، بعد أن ابيضّ لونها بسبب الضمادات، السير من جديد.

قلت لنفسي: "الحل الوحيد في هذه الحالة هو أن يتم أسرهم"، وتعجلت لأتقدمهم محاولاً أن أجد فرقة فرنسية لأعلن لها عن اقتراب الأعداء. ولكن لفترة طويلة لم يظهر للفرنسيين أي أثر على تلك الجبهة.

وبينما أنا أعبر بعض المناطق المليئة بالطحالب، رأيت شيئًا ما يتحرك. توقفت وأنصتُ، كان يُسمع صوت خشخشة في المياه، والذي أخذ يتضح في نوع من الهذيان المستمر، ثم استطعت تمييز بعض الكلمات بالفرنسية مثل : ولكن... إذن... لتخدعني إذن.... ماذا.... وبتدقيق النظر في الظلال رأى أن ذلك السقف النباتي كان مكونًا قبل كل شيء من معاطف من الفرو يغطيها الشعر وشوارب ولحى كثيفة. كانت كتيبة من الجنود الفرنسيين. وبسبب ابتلالهم من الرطوبة في أثناء الحملات الشتوية نمَت بين شعورهم الفطريات والطحالب.

كان يقود الكتيبة الملازم أجريبا بابيون، من روون، وهو شاعر ومتطوع في الجيش الجمهوري. ونظرًا إلى اقتناعه بطيبة الطبيعة بصورة عامة، لم يرغب الملازم بابيون في أن يهز الجنود ثمار الصنوبر، أو الكستناء أو الأغصان الصغيرة وأوراق الأشجار، أو الحلزونات التي كانت تلتصق بهم في أثناء عبورهم الغابة. وكانت الفرقة قد بدأت الاندماج بشدة في الطبيعة المحيطة بها إلى حد أنه كانت تلزم بالفعل عين مدربة مثل عيني لتدرك وجودها.

وكان القائد الشاعر يخيم في العراء وسط رجاله، وشعره الطويل، الملفوف والذي يحيط بوجهه النحيف تحت القبعة العالية، وكان ينشد للغابات: آه أيتها الغابة! يا أيها الليل! ها أنذا خاضع لكم! هل يتمكن غصن رفيق من أغصان الكزبرة، والذي يشد بقوة على كعوب أولئك الجنود الشجعان أن يوقف إذن مصير فرنسا؟ آه يا فالمي! كم أنتِ بعيدة!

عندئذ قلت: معذرة أيها المواطن.

- من؟ من هناك؟

- أنا مواطن من هذه الغابات أيها المواطن الضابط.

- آه، هنا! أين أنت؟

- فوق أنفك تماماً، أيها المواطن الضابط.

- أرى! من هناك؟ رجل، طائر، ابن طائر الخطّاف! ربما أنت إذن أحد المخلوقات الأسطورية؟

- أنا مواطن من روندو، وابن آدميين، أؤكد لك، سواء من جهة الأب أو من جهة الأم، أيها المواطن الضابط. بل، كانت أمي جندية شجاعة في فترة حروب الخلافة.

- أفهم. آه يا لها من أزمنة، يا له من مجد. أصدقك أيها المواطن، وأنا في غاية التشوق للاستماع إلى الأخبار التي يبدو وقد جئت لتبلغني إياها.

- توجد فرقة نمساوية على وشك التغلغل في خطوطكم.

- ماذا تقول؟ آه إنها المعركة! حانت الساعة إذن! آه أيها النهر أيها النهر الوديع، ها أنت بعد قليل ستصبغ بالدماء! هيا! إلى الأسلحة!

وبمجرد أن أصدر القائد أوامره بدأ الجنود يجمعون أشياءهم وأسلحتهم، ولكنهم كانوا يتحركون بطريقة متهورة وخاملة، وهم يشدون أنفسهم، ويبصقون ويلعنون، حتى بدأت أقلق من جهة كفاءتهم العسكرية.

- أيها المواطن الضابط، هل لديك خطة؟

- خطة؟ أن نسحق الأعداء!

- نعم، ولكن كيف؟

- كيف؟ بتشكيل الحائط العسكري؟

- حسنًا، إذا سمحتم لي بأن أعطيكم نصيحة ؛ ليبقى الجنود ثابتين في أماكن متفرقة تاركين فرقة العدو تمر وتقع في الفخ بنفسها.

وكان الملازم بابيون رجلا مريحًا ولم يعارض خطتي. وهكذا تبعثر الجنود الفرنسيون في الغابة، وكان من الصعب تمييزهم عن الأعشاب الخضراء، وبالتأكيد كان الملازم النمساوي أبعد شخص يمكنه ملاحظة ذلك الفرق. كانت الفرقة العسكرية الإمبراطورية تسير تبعًا للطريق المرسوم على الخريطة، وكل فترة كان يتصاعد صوت فجائي "إلى اليمين درا" أو "إلى اليسار درا". وهكذا مروا تحت أنف الجنود الفرنسيين من دون أن يدروا بذلك. أما الجنود فقد انتشروا في صمت مسببين فقط ضوضاء طبيعية مثل حفيف الأغصان، أو رفرفة الأجنحة، وانتشروا في مناورة إحاطة. ومن فوق الأشجار كنت أشير لهم بصفير طائر الحجل، أو بصراخ البوم عن تحركات فرق الأعداء، وأقصر الطرق التي يجب أن يسيروا فيها. وهكذا وقع النمساويون، من دون أن يدركوا أي شيء، في الفخ.

- هناك فوق! باسم الحرية والأخوة والمساواة، أعلن أنكم جميعًا أسرى! استمعوا فجأة لهذه الصرخة القادمة من فوق إحدى الأشجار، ثم ظهر لهم من بين الفروع ظل آدمي كان يلوح ببندقية ذات أنبوبة طويلة.

- هوررا! تحيا الأمة! وظهر من كل النباتات حولهم جنود فرنسيون، وعلى رأسهم الملازم بابيون. وتصاعدت لعنات نمساوية ساردينية، ولكن قبل أن يستطيعوا التصرف كان قد تم نزع أسلحتهم، وقام الملازم النمساوي، وهو شاحب الوجه ولكن مرفوع الجبهة، بتسليم سيفه لزميله العدو.

وأصبحت بذلك معاونًا ثمينًا للجيش الجمهوري، ولكنني كنت أفضل أن أحصل على فرائسي وحدي، معتمداً على مساعدة حيوانات الغابة، مثل المرة التي تسببت فيها بهرب طابور نمساوي بأن ألقيت عليهم عش دبابير.

وهكذا انتشرت شهرتي في المعسكر النمساوي السارديني، وتضخمت إلى حد أنه كان يقال إن الغابة تكتظ باليعاقبة المسلحين المختبئين على قمة الأشجار. وفي أثناء تقدمهم كانت الفرق الملكية والإمبراطورية تسترق السمع؛ وعند أول دويّ لثمرة كستناء تُفرط لمرور قنفذ، أو لأقل صفير يطلقه سنجاب، كانوا يعتقدون أنهم محاطون بالفعل من اليعاقبة، وكانوا يغيرون اتجاههم. وبهذه الطريقة، وبمجرد أن أثير ضوضاء أو حفيفًا يكاد يكون مسموعًا، كنت أجعل الفرق القادمة من بيمونتي ومن النمسا تنحرف عن طريقها، وأقودها حيث أريد.

وفي أحد الأيام قدت إحدى تلك الفرق إلى بقعة كثيفة مليئة بالأشواك، وتسببت في أن ضلت الطريق. وفي تلك البقعة كانت توجد عائلة من الخنازير البرية، كانت قد هربت من الجبال حيث كانت تدوي أصوات المدافع، وهبطت الخنازير في قطيع للاحتماء بالغابات السفلى. وكان النمساويون الفزعون يسيرون من دون أن يروا ما يوجد أمام أنوفهم، وفجأة استيقظ تحت أقدامهم سرب من الخنازير البرية الخشنة، وهو يصدر عواءً حادًا. غرست الحيوانات أنفسها بين ركبتي كل جندي رافعة إياه في الهواء ثم أخذت تسحق الذين سقطوا بحوافها الضخمة المدببة، ونشبت أنيابها في بطونهم. وهكذا هُزمت الفرقة المحاربة بتمامها. ومن فوق الأشجار، وبالاشتراك مع رفاقي، أخذنا نلاحقهم بطلقات من بندقياتنا. ومن منهم عاد إلى المعسكر حكى عن زلزال هز فجأة الأرض الشوكية تحت أقدامهم، وهناك من حكى عن معركة ضد عصابة من اليعاقبة الذين ظهروا من تحت الأرض، لأن هؤلاء اليعاقبة لم يكونوا سوى شياطين، نصف إنسان ونصف حيوان، يعيشون إما فوق الأشجار، وأما تحت الأعشاب.

وكما سبق وذكرت كنت أفضّل تنفيذ ضرباتي بمفردي، أو مع تلك المجموعة الضئيلة من رفاق أومبروزا الذين فروا معي ولجئوا إلى الغابات

بعد الحصاد. وكنت أحاول أن أقلل من معاملاتي مع الجيش الفرنسي، لأن الجيوش معروفة، ففي كل مرة يتحركون يرتكبون الكوارث. إلا أنني كنت قد تعلقت بالملازم بابيون قائد الكتيبة، وكنت أشعر بالقلق قليلاً على مصيره. وفي الواقع، كان سكون الجبهة يكاد يكون له تأثير مدمر في الفرقة التي يقودها الشاعر.

فلقد كانت الفطريات والطحالب تنمو فوق ملابس الجنود، وأحيانًا أخرى نباتات الخلنج والسرخس. وفوق قبعاتهم كانت طيور النمنمة تصنع أعشاشها، أو كانت تبرز وتزهر نباتات الزنبق، وأخذت أحذيتهم تلتحم بالأرض الزراعية في قاعدة متلاحمة، وكادت الفرقة كلها تمد جذورها في الأرض. فلقد كان الاستسلام للطبيعة لدى الملازم أجريبا بابيون يتسبب في إغراق تلك المجموعة من الأبطال في خليط حيواني ونباتى. وكان لا بد من إيقاظهم. ولكن كيف؟ واتتني فكرة، وتقدمت إلى الملازم بابيون لاقترحها عليه. وكان الشاعر يخاطب القمر.

- أيها القمر المستدير وكأنك فم اللهب، وكأنك قذيفة مدفع، والتي استنفدت من كثرة دفعها للبارود، تكمل سيرها الدائري الصامت بين السموات! متى تتفجر أيها القمر مسببًا سحابة أخرى من البارود والشرار مغرقًا جيوش الأعداء، والعروش، وفاتحًا أمامي ثغرة المجد في ذلك الحائط المتماسك من الأهمية الضئيلة التي يعطيها لي مواطن! آه يا روون! أيها القمر! أيها المصير! أيتها الأعراف! أيتها الضفادع! أيتها الفتيات الجميلات! آه يا حياتي!

وأنا : أيها المواطن....

أجاب بابيون، الذي تضايق من أنني أقاطعه دائمًا : بجفاء: ماذا إذن؟

- كنت أريد أن أقول أيها المواطن الضابط، إنه توجد طريقة لإيقاظ رجالك من سبات بات خطرًا عليهم.

- هذه إرادة السماء أيها المواطن. أنا كما ترى، أشتاق للحركة. وما يمكن أن تكون هذه الطريقة؟

- البراغيث، أيها المواطن الضابط.

- يؤسفني أن أخيب ظنك أيها المواطن، فإن الجيش الجمهوري ليست به براغيث، فلقد ماتت جميعها من الهزال بسبب قلة الغذاء وتعذر المعيشة.

- يمكنني إمدادك بها أيها المواطن الضابط.

- لا أعرف إذا كنت تتحدث بحكمة أو بجنون. على كل حال سأعرض الأمر على رؤسائي وسنرى. أيها المواطن، أشكرك لكل ما تفعله من أجل القضية الجمهورية! أيها المجد! يا روان! أيتها البراغيث! أيها القمر! وابتعد وهو يهذي.

عندئذ أدركت أنه عليّ أن أتصرف بمفردي. استطعت الحصول على كمية كبيرة من البراغيث، ومن فوق الأشجار، وبمجرد أن أرى جنديًا فرنسيًا، كنت ألقي عليه بواحدة بواسطة قوس، محاولاً أن أصيب الهدف الدقيق بأن ألقيها على عنقه. ثم بدأت أنشرها في كل المنطقة على دفعات. كانت مهامّ غاية في الخطورة، لأنه إذا قبض عليَّ متلبسًا، لما شفعت لى شهرتي كمواطن بأي شيء؛ لأنهم كانوا سيقبضون عليّ وسينقلونني إلى فرنسا، ويقطعون رأسي بالمقصلة وكأنني أحد مبعوثي "بيت". إلا أن تدخلي كان مناسبًا جدًا؛ فلقد أشعلت قرصات البراغيث الحادة الحاجة الإنسانية والمتحضرة إلى الحك لدى الجنود، وإلى أن يفتشوا في ملابسهم ويزيلوا الحشرات؛ نزعوا ملابسهم المليئة بالفطريات وعرّضوها للهواء، وحقائبهم وأحمالهم المغطاة بعش الغراب وأعشاش العنكبوت، واغتسلوا، وحلقوا شعورهم ولحاهم، وصففوا شعورهم، واستعادوا إدراكهم بإنسانيتهم الفريدة، وانتصر بداخلهم مفهوم الحضارة،

وأنقذهم من الغرق في الطبيعة البهيمية، بالإضافة إلى ذلك بدأ ينخزهم دافع للنشاط والحماسة والنضال، كانوا قد نسوه منذ فترة.

ومن ثم تأهبوا بتلك الدفعة في لحظة الهجوم، وانتصرت الجيوش الجمهورية على مقاومة الأعداء، وعبروا الجبهة وتقدموا حتى وصلوا إلى انتصارات ديجو وميليزيمو.



ـ ٢٨ ـ

هربت أختنا والمهاجر ديستوماك من أومبروزا، تمامًا في الوقت المناسب قبل أن يقبض عليهما الجيش الجمهوري. وبدا سكان أومبروزا وكأنهم قد عادوا لأيام الحصاد. رفعوا شجرة الحرية، والتي كانت في هذه المرة تشبه كثيرًا النماذج الفرنسية، أي أنها تشبه كثيرًا شجرة الرخاء. أما كوزيمو، بلا شك، فقد تعلق عليها، وهو يرتدي القبعة فوق رأسه، ولكنه سرعان ما شعر بالتعب وابتعد.

وحول قصور النبلاء تصاعدت بعض الضوضاء والصرخات: لنقبض عليهم، لنقبض عليهم، إلى المنارة، سنفوزا وبالنسبة إليَّ، فنظرًا لأنني أخو كوزيمو، وأننا لم نصبح في عداد النبلاء إلا من وقت قريب، فقد تركوني في سلام، بل، بعد ذلك، اعتبروني مواطنًا (وهكذا عندما تغير موقفي من جديد وقعت في كثير من المشكلات).

وأسسوا مجلس البلدية، وعينوا العمدة، كل شيء على الطريقة الفرنسية، وعُين أخي في المجلس المؤقت، مع أن الكثيرين اعترضوا معتبرين إياه مختلاً عقليًا. أما الذين ينتمون إلى النظام القديم، فقد كانوا يضحكون ويقولون إنه قفص للمجانين.

كانت جلسات المجلس تُعقد في القصر القديم لحاكم چنوة. كان كوزيمو يقبع فوق شجرة خروب، على ارتفاع النافذة، ويتابع المناقشات. وأحيانًا كان يتدخل في الحوار، ويدلي برأيه. وكما هو معروف، فإن الثوريين، أكثر تمسكًا بالشكليات من المتحفظين؛ وكانوا يجدون دائمًا ما يقولونه، مثل إن هذا النظام لم يكن يصلح، وإنه يقلل من شأن المجلس، وهكذا. وعندما أقاموا جمهورية ليجوريا بدلاً من الجمهورية النخبوية لچنوة، لم ينتخبوا أخي مرة أخرى في الإدارة الجديدة.

وكان كوزيمو في تلك الفترة قد كتب ووزع: مشروع دستور المدينة الجمهورية، مع إعلان لحقوق الرجال والنساء والأطفال، الحيوانات الأليفة والمتوحشة، العصافير والأسماك والحشرات، والنباتات سواء ذات الساق الطويلة أو الخضروات أوالحشائش. كان عملاً غاية في الجمال، وكان يمكن أن يخدم في تحديد اتجاهات كل الحكومات؛ إلا أن أحدًا لم يضعه في الاعتبار، وظل خطابًا ميتًا.

ولكن كان كوزيمو ما زال يقضي أغلب وقته في الغابة، حيث كان الجنود المكلفون بالحفر في السلاح الهندسي للجيش الفرنسي يفتحون طريقًا لنقل المعدات الحربية. كان سلاح الحفارين مختلفًا تمامًا عن كل العسكريين الآخرين بلحاهم الطويلة التي تظهر من قبعاتهم العسكرية، ويضيعون أسفل ردائهم الفوقي المصنوع من الجلد. ربما يعود ذلك إلى أنهم لا يحملون خلف ظهورهم تلك الآثار المدمرة والخسائر التي تحملها فرق الجيش الأخرى، ولكن بالعكس، فلديهم ذلك الرضا عن الأشياء التي سيتركونها خلفهم والطموح لأن يصنعوها على أفضل وجه. ثم إنهم كان لديهم الكثير ليحكوه؛ فلقد عبروا أممًا كثيرة، وعاصروا الحصار والمعارك؛ بل إن بعضًا منهم رأوا أيضًا الأشياء العظيمة التي حدثت في باريس، إخلاء الباستيل والمقاصل. وكان كوزيمو يقضي أمسياته في الاستماع إليهم، فبعد أن يضعوا جانبًا الفئوس والمجارف كانوا يجلسون حول النيران وهم يدخنون الغليونات القصيرة، ويعيدون حرث الذكريات.

وفي الصباح كان كوزيمو يساعد عمال التخطيط على تحديد مسار الطريق. لم يكن هناك من هو أفضل منه يستطيع أداء ذلك؛ كان يعرف كل الخطوات التي يمكن أن تمر منها طرق العربات بأقل خلل في المستويات، وبأقل خسائر للأشجار. وكان الأهم في ذهنه، أكثر من الأسلحة الفرنسية، احتياجات السكان الذين ليست لديهم طرق في تلك المناطق. فعلى الأقل بهذا المشروع يمكن الاستفادة بشيء من عبور كل هؤلاء العسكر سارقي الدجاج: بأن يصنعوا طريقًا على نفقاتهم.

ولا بأس بذلك؛ ففي ذلك الوقت كانت الفرق المحتلة، وخاصة منذ أن تحولت من جمهورية إلى ملكية، قد أصبحت مثيرة لاستياء الجميع. وكان الجميع يذهبون ليفرجوا عما في نفوسهم مع الوطنيين:

- انظروا إلى أصدقائكم وما يفعلونه!

والوطنيون، وهم يفردون أذرعهم ويرفعون أعينهم إلى السماء، كانوا يجيبون بتنهد: جنود! نتمنى أن ينتهي كل هذا قريبًا!

كان جنود نابليون يستولون على الخنازير والأبقار من الحظائر، وحتى الماعز. أما بالنسبة إلى الضرائب والعشور فقد ازداد الأمر سوءًا، فلقد أضيف إليها التجنيد الإجباري. ولم يرغب أحد في منطقتنا أبدًا فهم فكرة التجنيد هذه؛ وكان الشبان الذين يتم استدعاؤهم يختبئون في الغابات.

وكان كوزيمو يفعل كل ما في استطاعته ليخفف من كل هذه الشرور؛ كان يحرس الماشية في الغابة عندما كان يرسل بها المُلاك الصغار إلى الأدغال خوفًا من النهب؛ أو كان يقوم بحراسة العمليات السرية لنقل القمح إلى المطحن أو الزيتون إلى المعصرة؛ بحيث لا يقتطع منه جنود نابليون جزءًا، أو كان يرشد شباب المجندين إلى الكهوف التي يمكنهم الاختباء فيها في الغابة. أي أنه كان يحاول أن يدافع عن الشعب ويحميه من الجبروت، إلا أنه لم يقم قط بأي هجوم ضد القوى المحتلة، مع أنه في

تلك الفترة كانت بدأت تجول في الغابات عصابات مسلحة من "الملتحين"، والذين كانوا يحولون حياة الفرنسيين إلى جحيم. ونظرًا لأن كوزيمو كان عنيدًا فلم يكن يريد قط أن يكذب نفسه. ولأنه كان صديقًا للفرنسيين في البداية، استمر في التفكير أنه يجب أن يظل مخلصًا لهم، حتى وإن تغيرت أشياء كثيرة، وأصبح كل شيء خلاف ما هو متوقع. ثم يجب أيضًا أن ندرك أنه كان قد بدأ يتقدم في السن، ولم يكن يهتم بعمل الكثير لأي من الطرفين.

ذهب نابليون إلى ميلانو ليتم تتويجه، ثم قام ببعض الجولات في إيطاليا. وفي كل مدينة كانوا يستقبلونه بالاحتفالات، وكانوا يصطحبونه ليشاهد الأشياء النادرة والآثار. وفي أومبروزا وضعوا في برنامجه أيضًا زيارة إلى "المواطن الذي يعيش فوق الأشجار"، لأنه، كما يحدث عادة، لم يكن أحد منهم يهتم بكوزيمو، ولكنه كان مشهورًا جدًا، وخاصة في الخارج.

ولم يكن لقاءً عاديًا، كان كل شيء معدًا مسبقًا من لجنة البلدية للاحتفالات ليقدموا شيئًا مُشرفًا، اختاروا شجرة جميلة؛ وأرادوا أن تكون شجرة بلوط، ولكن كانت شجرة الجوز أفضل، عندئذ، زودوا شجرة الجوز ببعض أوراق البلوط، ووضعوا فوقها شُرطًا عليها الألوان الثلاثة للعلم الفرنسي، وألوان لومبارديا الثلاثية، وألوان شعار الدولة وشُرط الاحتفالات وجعلوا أخي يقبع هناك فوق، وهو يرتدي أفضل ملابسه، ولكن واضعًا فوق رأسه قبعة فراء القط، وفراء سنجاب على كتفيه.

وأعدوا كل شيء في العاشرة، واحتشد كثيرون في دائرة حول الشجرة، ولكن بالطبع حتى الساعة الحادية والنصف لم يكن نابليون قد ظهر، وبدأ أخي يشعر بالضيق الشديد، والذي بسبب تقدمه في السن بدأ يعاني من مشكلات في المثانة، وكان يجب أن يختبئ كل فترة خلف الجذع ليتبول.

ووصل الإمبراطور وخلفه جميع من يرتدون قبعات المراسم المتأرجحة على شكل الفلوكة.

كان النهار في منتصفه تمامًا، وكان نابليون ينظر إلى كوزيمو بين الفروع، فكانت آشعة الشمس تصيبه في عينيه. وبدأ يوجه إلى كوزيمو بعض عبارات الاحتفاء التقليدية: أعرف جيدًا أن سيادتك أيها المواطن.... ثم حاول أن يقي عينيه من الشمس بيديه، -... وسط الغابات.... ثم قفز قليلاً لأن الشمس كانت تضربه في عينيه تمامًا... بين الفروع المورقة... ثم قفز إلى الناحية الأخرى، لأن كوزيمو في انحناءة يشير بها إلى موافقته كشف من جديد الشمس خلفه.

وعندما لاحظ كوزيمو قلق بونابرت سأله بأدب: هل أستطيع أن أفعل شيئًا لسيادتك، يا إمبراطوري العزيز؟

قال نابليون: نعم، نعم، حاول أن تبقى هناك قليلاً، أرجوك، لتقيني من آشعة الشمس، هكذا، تمامًا، ابق هكذا، ثم صمت وكأنه يفكر في شيء ما، وتوجه بالحديث إلى نائب الملك أوچينيو: كل هذا يذكرني بشيء... بشيء رأيته من قبل.

ساعده كوزيمو: لم تكن سيادتك يا جلاله الإمبراطور، بل كان أليساندرو مانيو.

قال نابليون: آه، ولكن بالتأكيد، لقاء أليساندرو وديوچين!

قال بوهارنيه: إنك لا تنسى أبدًا بلوتارك يا جلالة الإمبراطور!

وأضاف كوزيمو: إلا أنه عندئذ، كان أليساندرو هو من سأل ديوچين عن الشيء الذي يمكنه أن يقدمه له، ورجاه ديوچين أن يحميه.

طقطق نابليون إصبعه وكأنه وجد أخيرًا العبارة التي يبحث عنها. تأكد بنظرة سريعة أن الحاشية تستمع إليه وقال، بلغة إيطالية ممتازة:

إذا لم أكن الإمبراطور نابليون لكنت تمنيت أن أكون المواطن كوزيمو روندو!

ثم استدار وابتعد، تتبعه الحاشية وضوضاء المناخس العالية.

وهكذا انتهى اللقاء. وكنا نتوقع أنه خلال أسبوع سيصل إلى كوزيمو وسام شرف من الجيش، إلا أن هذا لم يحدث. ربما لم يكن أخي يعبأ بأي شيء، ولكنه كان بالتأكيد شيئًا سيسعدنا نحن عائلته.

ـ ٢٩ ـ

سرعان ما يخبو الشباب على الأرض، فما بالكم إذن بالحال فوق الأشجار، حيث مقدر لكل شيء السقوط: الأوراق والثمار. شاخ كوزيمو، بعد كل هذه الأعوام، وكل تلك الليالي التي قضاها في الصقيع، معرضًا للرياح، والمياه، محتميًا بأسقف هشة، ودون أي شيء حوله، تحوطه الرياح دون أن يكون له أي منزل، ولا يتمتع بالدفء، ولا بطعام ساخن.

شاخ كوزيمو وأصبح مُسنًا منكمشًا، بقدمين معوجتين ويدين طويلتين وكأنه قرد، مُحدبًا معبئًا في رداء من الجلد ينتهي بقلسنوة، وكأنه أخ راهب مُشعر. حرقت الشمس وجهه، وأصبح مليئًا بالتجاعيد وكأنه ثمرة كستناء تظهر من بينها عينان فاتحتان مستديرتان.

كان جيش نابليون في بيريسينا قد غير من خط سيره، والفريق الإنجليزي أبحر متجهًا إلى چنوة، وكنا نحن نقضي أيامنا في انتظار أخبار تلك التحولات.

لم يكن كوزيمو يظهر في أومبروزا، كان قابعًا فوق شجرة صنوبر في الغابة، على حافة الطريق الذي سار فيه الجيش، هناك حيث عبرت

المدافع متجهة إلى مارينجو، وكان ينظر تجاه الشرق، إلى الطرق الممهدة التي فيها يتلاقى فقط الرعاة ومعهم الماعز أو البغال المحملة بالأخشاب. ماذا كان ينتظر؟ نابليون، ورآه بالفعل، الثورة؛ عرف كيف انتهت، لم يكن هناك سوى الأسوأ ليتوقعه. إلا أنه كان قابعًا هناك وعيناه ثابتتان، وكأنه بين لحظة وأخرى، فجأة، سيظهر الجيش الإمبراطوري، والذي ما زال مغطى بالمعاطف الجليدية الروسية، وبونابرت فوق سرجه، غير حليق ولحيته تتدلى على صدره، يعاني الحمى، وشاحب الوجه. وربما يتوقف تحت شجرة الصنوبر (وخلفه، صوت خطوات متعثرة مضطربة، واحتكاك حقائب وبنادق عند طرحها أرضًا، وجنود أضناهم التعب يخلعون أحذيتهم عند حافة الطريق، ونزع الضمادات عن الأرجل المجروحة) وربما يقول له: "كنت محقًا أيها المواطن روندو، أعطني مرة أخرى الدستور الذي أصدرته، أعطني مرة أخرى نصيحتك التي لم يرغب في الاستماع إليها الديكتاتور ولا المجلس ولا الإمبراطور؛ لنبدأ من جديد، لنرفع من جديد أشجار الحرية، ولننقذ الوطن الكوني!". بالتأكيد كانت هذه هي أحلام كوزيمو وآماله.

إلا أنه في أحد الأيام هلت من جهة الشرق ثلاثة وجوه تتقدم بصعوبة على مدق مخصص لأسلحة الجيش، أحدهم أعرج يستند إلى عكاز، والثاني كان وجهه مغطى بضمادات، أما الثالث فكان أصحهم، ولم يكن لديه سوى ضمادة سوداء فوق إحدى عينيه. كانت الأقمشة المقطعة التي يرتدونها، وخرق أربطة شد الأزرار تتدلى على صدورهم وقبعاتهم التي لم يعد فيها غطاء الرأس، إلا أن أحدهم احتفظ فوقها بريشة، وكانت أحذيتهم الطويلة ممزقة، وكان يبدو أنها الأزياء العسكرية لجيش نابليون. ولكن لم تكن معهم أية أسلحة. كان أحدهم يشهر جراب سيف فارغًا وآخر يحمل على إحدى كتفيه مدفع بندقية وكأنه عصا، ليرفع بها حزمة. وكانوا يتقدمون وهم يغنون : من بلدي... من بلدي... من بلدى، وكأنهم ثلاثة سكارى.

- صرخ أخي : أنتم أيها الأغراب. من أنتم؟

- يا له من نوع طيور غريب! ماذا تفعل هنالك فوق؟ هل تأكل ثمار الصنوبر؟

وآخر: من يرد إعطاءنا ثمار الصنوبر؟ مع ذلك الجوع الشديد الذي نشعر به يريدنا أن نأكل ثمار صنوبر؟

- والعطش! العطش الذي نشعر به من أكل الجليد!

- نحن فرقة الجنود الثالثة للمشاة.

- بتمامها؟

- كل من تبقى منها!

- ثلاثة من ثلاثمائة ؛ أليس هذا بقليل؟

- بالنسبة إليّ، لقد نجوت بحياتي، وهذا يكفي!

- آه، هذا لم يحدث بعد، فلم تصل سليمًا إلى منزلك بعد!

- ليصيبك السرطان!

- نحن المنتصرون في الحرب مع النمسا!

- والمهزومون في فيلنا! يا للسعادة!

- قل لي، أيها الطائر المتكلم، اشرح لنا أين يمكن أن نجد حانة في هذه الأنحاء!

- لقد أفرغنا زجاجات نصف أوربا ولكن لا شيء يروي عطشنا!

- ربما لأننا أصبحنا مليئين بالثقوب من طلقات الرصاص، والنبيذ بتسرب من أجسادنا.

- لقد تغربلت أنت في ذلك المكان!

- حانة تسمح لنا باقتراض الشراب.

- وسنمر لندفع مرة أخرى!

- ليدفع نابليون!

- برررررر.

- ليدفع القيصر! إنه قادم خلفنا، قدموا له هو الحساب.

قال كوزيمو: لا توجد حانات لبيع النبيذ في تلك الناحية، ولكن في الأمام يوجد مجرى ماء يمكنكم إرواء عطشكم.

- لتغرق أنت في هذا المجرى! يا وجه البومة!

- إذا لم أكن قد فقدت بندقيتي في فيستولا لأطلقت عليك الرصاص وشويتك على الشواية مثل السمان.

- انتظرا: سأذهب أنا إلى ذلك المجرى لأغسل قدمي، لأنها تحرقني.

- بالنسبة إليّ لتغسل فيه أيضًا مؤخرتك.

إلا أنهم ذهبوا جميعًا إلى جدول المياه. ووضعوا أقدامهم بداخلها، وغسلوا وجوههم وملابسهم، وأخذوا الصابون من كوزيمو، والذي كان أحد أولئك الذين بتقدمهم في السن يصبحون غاية في النظافة، لأنه يصيبهم ذلك الاشمئزاز من أنفسهم والذي لم يكونوا يشعرون به في شبابهم، وهكذا كان كوزيمو يتجول دائمًا بالصابون. وقد أفاقت المياه الباردة الجنود الثلاثة من ثملهم. وبمجرد أن أفاقوا قليلاً انتهت سعادتهم، وشعروا بالاستياء من حالتهم، وأخذوا يتنهدون ويتألمون. ولكن في وسط ذلك الحزن، كانت المياه الباردة مصدرًا لسعادتهم وأخذوا ينشدون: من بلدي... من بلدي.

وكان كوزيمو قد عاد إلى مكان المراقبة على قمة الطريق، سمع لركض أحصنة، وإذا حشد صغير من الفرسان يثيرون سحابة من الأتربة كانوا يرتدون بدلاً عسكرية لم نرها من قبل، وأسفل قبعاتهم الثقيلة كانت تظهر

وجوه شقراء، ملتحية، مسحوقة قليلاً، وعيونهم الخضراء. حياهم كوزيمو بقبعته:

- أية ريح طيبة جلبتكم إلى هنا أيها الفرسان؟

توقفوا: تحياتنا! قل لنا أيها المواطن، كم من الوقت يتبقى لنا لنصل!

قال كوزيمو، والذي كان قد تعلم قليلاً من كل اللغات، وأيضًا من اللغة الروسية: تحياتي أيها الجنود ؛ كم من الوقت، لتصلوا إلى أين؟

- لنصل إلى حيث يصل هذا الطريق.

- آه، هذا الطريق، يصل إلى أماكن كثيرة. أنتم إلى أين تذهبون؟

- إلى باريس.

- حسنًا! للوصول إلى باريس هناك طرق أسهل.

- لا لا، باريس، إلى فرنسا، إلى نابليون. إذن إلى أين يؤدي هذا الطريق؟

- إلى أماكن عديدة: أوليفا باسا، ساكوكورتو، ترابا.

- ماذا؟ أليفاباسا؟ لا، لا.

- حسنًا، إذا أردت يمكن الذهاب أيضًا إلى مارسيليا.

- إلى مارسيليا. نعم، نعم، مارسيليا.. فرنسا.

- ولماذا ستذهبون إلى فرنسا؟

- حضر نابليون ليحارب قيصرنا، والآن قيصرنا يطارد نابليون.

- ومن أين أتيتم؟

- كاركوفا، من كييف، ومن روستوفا.

- إذن فقد رأيتم مناطق جميلة! وهل تعجبكم منطقتنا أكثر أم روسيا؟

- أماكن جميلة، أماكن سيئة، إننا نحب روسيا.

ثم قفزة حصان، وتصاعد الكثير من الأتربة، وتوقف الحصان هناك، وكان يمتطيه ضابط أخذ يصرخ في أولئك: هيا! تقدموا! ما الذي يعرقلكم؟

- نحييك أيها المواطن! قال أولئك لكوزيمو، سننطلق... واختفوا مبتعدين.

وتوقف الضابط عند جذع شجرة الصنوبر. كان طويلاً ونحيفًا، يبدو نبيلاً وحزينًا، كان يرفع رأسه العاري تجاه السماء الملبدة بالغيوم.

ثم قال لكوزيمو: صباح الخير يا سيدي، هل تعرف لغتنا؟

- أجل، صباح الخير أيها الضابط، أجابه أخي، ولكنني لا أجيدها إجادتك للفرنسية.

- وهل أنت من سكان تلك البلدة؟ هل كنت هنا عندما كان نابليون موجودًا؟

- أجل أيها الضابط.

- وكيف كانت الحال إذن؟

- أنت تعرف يا سيدي، فالجيوش تسبب عادة الاستياء، مهما كانت الأفكار التي تحملها معها!

- نعم، ونحن أيضًا نسبب كثيرًا من الاستياء، ولكننا لا نحمل أفكارًا.

بدا حزينًا وقلقًا مع كونه منتصرًا. شعر كوزيمو بالتعاطف معه، وأراد مواساته: ولكنكم انتصرتم!

- نعم، لقد حاربنا جيدًا، بل جيدًا جدًا، ولكن ربما...

وفجأة تصاعدت صرخات، وصوت طلقات، وتلاقي أسلحة.

- ما هذا؟ قال الضابط. عاد الجنود وهم يجذبون على الأرض بعض الجثث شبه العارية، ويحملون في أيديهم شيئًا ما، في يدهم اليسرى (كانت يدهم اليمنى تحمل الخناجر المقوسة، التي كانت تقطر دمًا) وهذا الشيء، كانت الرءوس الملتحية لأولئك الجنود السكارى: إنهم فرنسيون! أتباع نابليون! قتلناهم جميعًا!

أمرهم الضابط الشاب بجفاء أن يأخذوهم بعيدًا، وأدار رأسه وتحدث مع كوزيمو: هل رأيت. الحرب. إنني منذ أعوام عديدة أقدم أفضل ما لدى لشيء مرعب: الحرب. وكل هذا بسبب مُثل، لا أعرف أنا نفسي كيف أشرحها.

أجابه كوزيمو: وأنا أيضًا، أعيش منذ أعوام كثيرة لأفكار مثالية لا أعرف كيف أشرحها حتى لنفسي؛ ولكنني أقوم بالفعل بشيء رائع حقًا: فأنا أعيش بين الأشجار.

وتحول الضابط من حزنه إلى غضب، وقال: حسنًا، يجب أن أذهب، حيّاه تحية عسكرية - الوداع أيها السيد. ما اسمك؟

- أنا البارون كوزيمو دي روندو، صرخ كوزيمو خلفه، إذ إنه كان قد ابتعد بالفعل - وما اسمك؟

ـ أنا الأمير أندريه. ولم يسمح له صوت، ركض الحصان بسماع لقبه.



- ٣٠ -

الآن لم أعد أعرف ماذا سيجلب علينا هذا القرن التاسع عشر الذي بدأ سيئًا ويكمل أيامه بطريقة أكثر سوءًا. غطت أوروبا ظلال الترميم؛ كل المجددين من اليعاقبة وأتباع بونابرت هُزموا، استعاد أتباع النزعة المطلقة واليسوعيون الميدان، وهلكت كل المثل العليا للشباب، وهلكت معها كل الأضواء وآمال عصرنا، وتحول كل شيء إلى رماد.

أعهد أنا بكل أفكاري إلى هذه الكراسة، لن أعرف أن أعبر عنها بطريقة أخرى، فقد كنت دائمًا رجلاً هادئًا، ليست لديّ أية نزوات أو شطحات، رب أسرة ونبيل، تنويريًا في أفكاري، وأحترم القوانين. ولم يصبني قط أي شطط تاريخي بصدمات قوية، أتمنى أن يستمر الوضع بهذه الطريقة، ولكن بداخلي، كنت غاية في البؤس. في البداية كان الأمر مختلفًا، كان هناك أخي؛ كنت أقول لنفسي: "هو موجود، وهو يفكر في ذلك كله"، وكنت أنا أهتم بأن أعيش. وكانت علامة الأشياء المتغيرة بالنسبة إليّ لم تكن وصول النمساويين الروس، ولا الانضمام إلى البيومونتي ولا الضرائب، أو أي شيء آخر، ولكن أنني لم أعد أراه عندما أفتح نافذتي وهو جالس هناك يتأرجح. والآن، وبسبب عدم وجوده، يبدو لي أن عليّ

التفكير في أشياء كثيرة؛ الفلسفة والسياسة والتاريخ، أن أتابع الصحف، وأقرأ الكتب، وكاد رأسي ينفجر، ولكن الأشياء التي كان يرغب هو في قولها لم تكن بداخلها، كان هو يقصد شيئًا آخر، شيئًا ما يحتضن كل شيء، ولا يمكن قوله بالكلمات، ولكن فقط بالحياة كما عاش هو، فقط بأن يعيش حياته بتلك القسوة كما كان حتى موته، هكذا استطاع منح شئ ما لكل الناس.

أتذكر عندما صرعه المرض، أدركنا هذا لأنه أحضر مخدعه البائس فوق شجرة الجوز الضخمة هناك في وسط الميدان. في البداية كان يخفي دائمًا الأماكن التي ينام فيها، وذلك بغريزته الوحشية، والآن أصبح يشعر بالاحتياج إلى أن يكون دائمًا على مرأى من الجميع. وآلمني ذلك كثيرًا؛ كنت أفكر دائمًا أنه لن يجب أن يموت وحيدًا، وكان ذلك الذي فعله بالفعل علامة على ذلك. أرسلنا إليه بطبيب، فوق أحد السلالم. وعندما نزل عبر بوجهه عن الألم، وفرد ذراعيه.

صعدت إليه فوق السلم، وبدأت أقول له: كوزيمو، مضى من عمرك الآن خمسة وسبعون عامًا، كيف يمكنك الاستمرار هناك فوق الأشجار؟ الآن وقد قلت بالفعل ما أردت قوله، وقد فهمناه، لقد كانت قوتك النفسية عظيمة جدًا واستطعت تنفيذ ما قلته، الآن يمكنك النزول. حتى من يقضي عمره كله في البحار يرسو على الأرض عند بلوغه سنًا معينة.

ولكن هيهات. أشار بالرفض بيده، فلم يعد يتحدث تقريبًا، كان ينهض كل فترة وهو مغطى حتى رأسه، وكان يجلس على أحد الفروع يستمتع بحرارة الشمس. ولم يكن يتحرك من هناك. وكانت هناك امرأة عجوز من السكان، امرأة تقية (ربما كانت إحدى حبيباته في الماضي)، كانت تذهب لتنظفه، وتحضر له الطعام الساخن. وتركنا السلم المصنوع من الحبال مستندًا إلى الجذع، لأنه كان دائمًا يحتاج إلى شخص ما ليصعد ويساعده، وأيضًا لأننا كنا نأمل في أن يقرر بين لحظة وأخرى أن ينزل أرضًا. (كان

شيئًا يتمناه الآخرون، أما أنا فقد كنت أعلم كيف يفكر أخي). وحوله، في الميدان كانت هناك دائمًا حلقة من السكان كانوا يسلونه، وهم يتحدثون فيما بينهم، وأحيانًا أيضًا كأنهم يوجهون إليه عبارات مضحكة، مع أن الجميع كانوا يعرفون أنه لم تعد لديه رغبة في التحدث.

ازدادت حالته سوءًا، ووضعنا له فراشًا فوق الشجرة، استطعنا أن نصُفه بطريقة متوازية؛ ورقد هو عليه بكل سرور. وشعرنا قليلاً بالندم لأننا لم نفكر في هذه الفكرة قبل ذلك. في الحقيقة لم يكن هو يرفض أساليب الراحة مطلقًا، فمع أنه كان يعيش فوق الأشجار، كان يحاول دائمًا أن يعيش بأفضل طريقة ممكنة. عندئذ سارعنا بالبحث عن وسائل راحة أخرى. تحسنت حالته قليلاً، وأحضرنا له مقعدًا وثيرًا، وثبتناه بين فرعين، وأخذ يقضي أيامه فوقه وهو متدثر في أغطيته.

ولكن في صباح أحد الأيام لم نره فوق السرير ولا فوق المقعد، رفعنا عيوننا ونحن وجلون، كان قد صعد إلى قمة الشجرة، وجلس ممتطيًا فرعًا مرتفعًا جدًا وهو يرتدي فقط قميصًا.

- ماذا تفعل هناك فوق؟

لم يجب. كان متيبسًا تقريبًا، وكان يبدو أنه جالس هناك على الفرع ثابتًا بمعجزة. أعددنا ملاءة كبيرة من تلك التي نجمع فيها الزيتون، وأمسكها نحو عشرين منا لنفردها، لأننا كنا ننتظر أن يسقط في أية لحظة. وفي ذلك الوقت صعد الطبيب إليه فوق، وكانت مسألة صعبة إذ تطلب الأمر ربط سلم في آخر. نزل وقال: ليذهب إليه الكاهن.

وكنا قد اتفقنا أن نحاول أن نرسل إليه كاهنًا اسمه دون باريكلي، أحد أصدقائه، وهو كاهن دستورى من فترة الفرنسيين، وكان عضوًا في المحفل عندما كان الأمر ما زال مسموحًا به للكهنة، ومنذ فترة قريبة عاد إلى مهامه الكنسية في الأسقفية بعد الكثير من الكوارث. صعد إليه وهو

يرتدي حلته الكهنوتية وبيت القربان، وخلفه الشماس. مكث معه فوق قليلاً، وكان يبدو أنهما يتسامران، ثم نزل.

- إذن، هل تناول من الأسرار المقدسة يا دون باريكلي؟

- لا، لا، ولكنه يقول إن كل شيء على ما يرام، بالنسبة إليه كل شيء على ما يرام. ولم نستطع جعله يقول أكثر من ذلك.

وتعب الرجال الممسكون بالملاءة، فلقد مكث كوزيمو هناك فوق ولم يتحرك. ازدادت الرياح، كانت رياحًا ليبية حارة، وأخذت قمة الشجرة تتأرجح، وكنا نحن مستعدين. وفي السماء ظهر منطاد. كانت بعض أسلحة الطيران الإنجليزية تقوم بالتجارب بالطيران فوق الساحل بالمنطاد. كان بالونًا جميلاً مزينًا بالشُرط الملونة والفيونكات، معلقًا به مركب صغيرًا من الصفصاف، وبداخله كان هناك ضابطان على أكتافهما رتب ذهبية، وقبعات المراسم المدببة الطرفين ينظرون بنظاراتهما المكبرة إلى المشاهد المحيطة. نظرا بنظاراتهما إلى الميدان، ورأوا الرجل الجالس فوق الشجرة والملاءة المفرودة، والجموع المحتشدة، منظرًا غريبًا.

كوزيمو أيضًا رفع رأسه إلى فوق، وكان ينظر باهتمام إلى البالون. عندئذ أصابت الرياح الساخنة أيضًا المنطاد وبدأ يجري أفقيًا بفعل الرياح وكأنه اللعبة الدوارة، واتجه صوب البحر. وبسرعة، ودون أن ييأس الطياران حاولا أن يقللا -على ما أعتقد- من ضغط البالون، وفي الوقت نفسه أنزلا الهلب إلى أسفل محاولين التشبث بأي شيء. أخذ الهلب الفضي يتأرجح في السماء معلقًا بحبل طويل وهو يتبع بانحراف سير البالون، الذي كان في تلك اللحظة يمر من فوق الميدان، وكان تقريبًا على نفس ارتفاع قمة شجرة الجوز، حتى إننا خشينا أن يصطدم بكوزيمو، ولكننا لم نكن نستطيع افتراض ذلك الذي رأيناه بأعيننا بعد لحظة واحدة.

فقد قام كوزيمو الذي كان يحتضر في اللحظة التي مر فيها حبل الهلب بالقرب منه، قام بوثبة من تلك التي اعتاد القيام بها في شبابه، وتعلق بالحبل، وقدماه فوق الهلب، وجسده يلتف حوله، وهكذا رأيناه يطير مبتعدًا، تسحبه الرياح وهو يبطئ بالكاد سرعة البالون مختفيًا تجاه البحر.

ونجح المنطاد بعد أن عبر الخليج أن يرسو فوق الشاطئ الآخر. ولم يكن هناك سوى الهلب معلقًا في الحبل. ولم يكن الطياران المنهوكان بشدة في المحافظة على اتجاه معين قد أدركا أي شيء. ويُفترض أن الشيخ المحتضر اختفى هو يطير وسط خليج المياه.

وهكذا اختفى كوزيمو، ولم يمنحنا حتى الرضا بأن نراه عائدًا إلى الأرض جثة هامدة. وعلى مقبرة العائلة يوجد شاهد قبر، كتبنا عليه "كوزيمو بيافسكو دي روندو، عاش فوق الأشجار، وأحب الأرض، وصعد إلى السماء".

بين الحين والآخر أتوقف عن الكتابة وأذهب إلى النافذة. أصبحت السماء فارغة، وبالنسبة إلينا نحن سكان أومبروزا، والذين اعتدنا الحياة تحت تلك القباب الخضراء، يؤلم عيوننا كثيرًا رؤيتها هكذا. يُقال إن الأشجار لم تستطع الصمود بعد أن تركها أخي، أو أن الرجال أصابتهم حمى الفئوس. ثم تغيرت الأشجار؛ لِم تعد هناك أشجار البلوط والدردار والبلوط الأسود، الآن أصبحت إشجار أفريقيا، وأستراليا والأمريكيتين، والهند، والتي تمر حتى هنا فروعها وجذورها. بقيت الأشجار القديمة هناك فوق، وفوق التلال بقيت مزارع الزيتون، وفي الغابات بقيت أشجار الصنوبر والكستناء. وفي أسفل تجاه الساحل أصبح هناك أستراليا حمراء مليئة بالكافور والفيكوس الضخمة، ونباتات حدائق ضخمة جدًا ومنعزلة، والمساحة الباقية مليئة بالنخيل، بأوراقه المنفوشة، تلك الأشجار الصحراوية غير المضيافة.

لم يعد لأومبروزا وجود. عندما أنظر إلى تلك السماء الخالية أتساءل هل وُجدت حقًا. هل وُجد في يوم ما ذلك التجمع من الفروع والأوراق، من الفلقات والفصوص، المتناهية الصغر، اللا نهائية، والتي كانت تظهر فقط أجزاء بسيطة، غير منتظمة ومتقطعة من السماء، ربما كانت توجد فقط حتى يسير فوقها أخي بخطواته الخفيفة التي كانت تشبه خطوات العصفور، كان تطريزًا مصنوعًا في اللا شيء، يشبه ذلك الخيط من الحبر الذي تركته ليجري من صفحة إلى أخرى يملؤها الشطب والإحالات، وعلامات العصبية، والبقع والثغرات، والذي أحيانًا كان ينفك في حبوب واضحة ضخمة، وأحيانًا كان يتكاثف في علامات صغيرة جدًا وكأنها بذور مدببة. كان ذلك الخيط ينكمش أحيانًا على نفسه، وأحيانًا أخرى ينقسم إلى اثنين، كان أحيانًا يجمع أجزاء من العبارات وحولها يصنع الأوراق والسحب، ثم يتوقف، وبعدها يبدأ من جديد في لف نفسه، ثم يجري ويجري ويمتد، ليلف نفسه حول عنقود أخير لا معنى له من الكلمات والأفكار والأحلام، ثم ينتهي.

(١٩٥٧)

سلسلة
الجوائز
150

الرواية

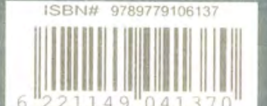
رواية "البارون ساكن الأشجار" هي الجزء الثاني من ثلاثية إيتالو كالفينو "أسلافنا"، وقد سبق وأصدرت سلسلة الجوائز الجزء الأول منها: "الفسكونت المشطور".

في رواية "البارون ساكن الأشجار" يقدم لنا "كالفينو" خبرة التمرد إلى أقصى حدوده، عندما يصبح التمرد اختيارًا للحياة، عندما يصبح اختيارًا لا يمكن التراجع عنه حتى الموت، بالرغم من تعرضه للعديد من المآزق والإحباطات، ولكنه اختيار يعبر أيضًا عن رفض المجتمع بريائه الاجتماعي وما يترتب عليه من تصرفات وضرورات لا طائل لها. إنها رؤية الحياة من منظور مختلف جعلت البطل "كوزيمو"البعيد فوق الأشجار أقرب لأسرته - بطريقته- من فوق الأشجار، بل أقرب أيضًا إلى مَن حوله من أشخاص، والاقتراب من أنماط مختلفة من الشخصيات كان من المستحيل التعرف عليها في وجود التقاليد الأرستقراطية البالية والسور العالي الذي يفصل بينه وبينهم. وكان اقترابه منهم ومن احتياجاتهم هو الذي دفعه بالتالي لمحاولة توعيتهم، ونقل ما تعلمه من الكتب التي قرأها، فأعد مجلات الحائط والمنشورات التي كانت تدعو للحرية وتعرفهم بحقوقهم والتي كان يعلقها في كل مكان فوق الأشجار. وكأن "كالفينو" يحاول أن ينقل صورته المتخيلة عن المبدع والمثقف من خلال بطله "كوزيمو"، ذلك الذي يعيش مبتعدًا عن الأرض... ربما في عالمه الخيالي، ولكنه من هناك يستطيع أن يرى بصورة أفضل وأكثر شمولية العالم أسفله، ومن ثم يمكنه أن يساعد أيضًا في تطوير وتغيير هذا العالم.

الكاتب: إيتالو كالفينو، كاتب إيطالي.
الجائزة: جائزة فياريجيو للأدب عام 1957.



١٨ جنيهاً


ISBN# 9789779106137
6 221149 041370

تصميم الغلاف: د. هند سمير